كيف صنع الإسلام العالم الحديث ؟

مارك غراهام

ترجمة : أ. د. عدنان خالد عبدالله

نبذة عن المؤلف:

درس التاريخ الوسيط والدين في كلية كونتيكت في الولايات المتحدة الأمريكية وحصل على شهادة الماجستير في الأدب الإنجليزي من جامعة كتنرتاون. وهو كاتب وروائي اشتهر بروايته التاريخية "ماريا السوداء" التي نشرت عام 2000. يسكن حالياً في ولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة الأمريكية.

كيف صنع الإسلام
العالم الحديث؟

تأليف: مارك غراهام

ترجمة وتقديم: أ.د. عدنان خالد عبد الله

الرسوم التوضيحية

لوري ماي بطرس

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟

مارك غراهام

BP170. 8. G7312 2010
Graham, Mark, (Mark A.), 1970-
كيف صنع الإسلام العالم الحديث / تأليف مارك غراهام؛ ترجمة وتقديم عدنان خالد عبد الله؛ الرسوم التوضيحية لوري ماي بطرس.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
ص284 : 14×21سم.
ترجمة كتاب: How Islam created the modern World
تدمك:978-9948-01-675-5
1 - الدعوة الإسلامية 2 - الإسلام والغرب. 3 - الحضارة الإسلامية.
أ-عبد الله، عدنان خالد. ب-بطرس، لوري ماي.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Mark Graham
How Islam Created The Modern World
Copyright© 1427 AH/2006AC

كلمة KALIMA
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن آراء الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

كيف صنع الإسلام

العالم الحديث؟

الإهداء

إلى والديّ كينيث وميشيل غراهام،
اللذين علّماني محبة الحقيقة وفضيلة الاحتفاظ بذهن متفتح

قائمة المحتويات

شكر وتقدير 7
توطئة 9
تمهيد المؤلف 14
تقديم المترجم........................ 15
الفصل الأول: الإسلام يصبح إمبراطورية 19
الفصل الثاني: بيت الحكمة.............. 47
الفصل الثالث: أبقراط 67
الفصل الرابع: العمل العظيم 87
الفصل الخامس: ما بعد ألف ليلة وليلة......... 107
الفصل السادس: سلاح الإسلام السري............ 135
الفصل السابع: حرب العصور الوسطى على الإرهاب... 163
الفصل الثامن: الحرب العالمية الأولى.............. 197
الفصل التاسع: المغيرون على المكتبة المفقودة 223
الفصل العاشر: أبناء إبراهيم، أبناء أرسطو 251
الملحق 1: ماذا يقول القرآن 263
الملحق 2: الكلمات العربية في اللغة الإنجليزية........... 266
قراءا ت إضافية 273

شكر وتقدير

لقد اعتمدت على دعم وإلهام وكرم عدد من الأفراد أثناء كتابتي هذا الكتاب، وكتب لي الأستاذ أكبر. س. أحمد مقدمة ممتازة، أما المحرر أحمد عثمان فقد ساعدني من خلال حرصه وإرشاداته السديدة، وضمتني زميلتي أنيتا لي لويس إلى جولتها في إسبانيا، حيث مشيت في شوارع مسقط رأس ابن رشد في قرطبة، وقضيت صباحاً ساراً في مسجدها الجميل، وساعدتني زميلتي الأخرى جينيفر جونسون في الحصول على مصادر البحث، أما أعضاء الهيئة التدريسية وأساتذة كلية موهيلنبرغ الكيسين ومكتبة تريكسلر فقد أتاحوا لي فرصة استخدام مصادر مكتبتهم الشاملة، وزودتني لوري ماو بطرس بالرسوم التوضيحية المتقنة لهذا الكتاب، وشجعني والدي منذ البداية ومنحتني زوجتي فوزية وأبنائي، دين وزين، الإرادة والمبرر لكتابة ضالتي.

وإن شاء الله سيحقق هذا الكتاب بعض النفع.

توطئة

بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، أصبح المسلمون «ينعتون في وسائل الإعلام بالمتطرفين والإرهابيين والبرابرة، لقد ربط الناس الإسلام بالإرهاب، وهذا الرأي يصف ضمناً الإسلام كحضارة غير قادرة على إبداع أي شيء ذي قيمة – وهو موقف يساعد على تجريد الفرد المسلم من الصفات الإنسانية، ومن ثَمّ يشجع على ارتكاب الأعمال الوحشية نحو أفراد معينين، كما حدث في سجن أبي غريب في بغداد حيث ارتكب الجيش الأمريكي أفعالاً عشوائية ضد المساجين، فمن السهل أن تكون قاسياً على شخص ينظر إليه على أنه يمثل الحضارة الوحشية والشريرة.

واشترك في المعمعة معلقون وشارحون من ذوي الخبرة المحدودة أو حتى المعدومة ممن غذى الهستيريا الجماعية. ومررت النظريات والبحوث الهزيلة على أنها شروحات جادة في موجة من الجهل والتحيز ضد المسلمين، وما زاد الطين بلة أن عدداً قليلاً جداً من المسلمين يستطيع الدخول في مناظرات ومناقشات جدية أو على أساس علمي، وهكذا ازدادت الفجوة بين المسلمين وغير المسلمين اتساعاً.

وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أصبحت هناك حاجة ملحة

لسد ثغرة سوء التفاهم تلك، ومن المهم نقل التاريخ الأساسي للإسلام، ومع هذه المعلومة سَتدحض تلقائياً صورة الإسلام الحالية كحضارة متوحشة، ومن واجب كل باحث ومعلق أن يشترك في هذه الرسالة، وسيبقى الإسلام موضوعاً من الموضوعات المهمة لوقت طويل في المستقبل. ففي النهاية ينبغي ألا ننسى أن هناك بليوناً وثلاث مئة مليون مسلم في العالم، وهناك سبع وخمسون دولة تدعى بأنها مسلمة، ويعيش في أمريكا حوالي سبعة ملايين مسلم.

ويطرح مارك غراهام فكرة وجود علاقة واضحة بين الحضارة الإسلامية والنهضة الأوروبية، ويشرع في تحديد التأثير الإسلامي في النواحي العلمية والشعر والفلسفة والميكانيكا والرياضيات والطب بالتفصيل، ولم يرغب غراهام في كتابة مجلد أكاديمي كبير، وهذا ليس كتاب تاريخ مع صفحات كثيرة الحواشي والهوامش، إنه كتاب صغير الحجم ولكنه ذو أهمية بالغة للقراءة، ويعتقد المؤلف أن هناك الآن عدداً قليلاً جداً من الكتب عن هذا الموضوع وخاصة في أمريكا، ويشعر بالحاجة إلى أن يستعرض المعلومات استعراضاً يمكن استيعابه بسهولة ويسر، ويدرك المؤلف أنه في ضوء المناخ الحالي أن أي كاتب يؤكد أن الإسلام بوصفه كياناً ثقافياً معاصراً وعلمانياً [كذا] ومتحضراً مثل الغرب وأنه في الواقع عَلّم الغرب ليكونوا على النحو الذي هم عليه الآن هو أمر مثير للجدل، ولكن غراهام يؤمن بموضوعه إيماناً عميقاً، وتمهد مقدمته الطريق لحجته، فيقول: «إنها قصة تراث غني من المعرفة

لم يحفظ، بل أعيد تشكيله وأعيد تصوره، وهي قصة ولادة النهضة في أوروبا في القرون الوسطى، إنها قصة: كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟»

ويشير غراهام إلى آيات قرآنية ينبغي أن تلقى قبولاً حسناً في أمريكا. مثل ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ (القرآن الكريم سورة المائدة 5: الآية 82) أو مثل قوله: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت 29: الآية :46.)

بعد شرح مختصر وسريع للتاريخ الإسلامي في وقت مبكر، يشير غراهام إلى شخصيات إسلامية فذة عاشت قبل ألف سنة ووضعت أسس الحضارة الإسلامية الراقية والتي بدورها هيأت الظروف لولادة النهضة.

كانت نقطة البداية ترجمة التراث الإغريقي، فقد ترجم العلماء والباحثون العرب أمهات الأعمال الأدبية والعلوم الإغريقية إلى اللغة العربية على مر القرون وأتيح لها أن تترجم بدورها إلى اللاتينية وفي النهاية إلى الفرنسية والإنجليزية، ومع الإغريق جاءت الآراء المنطقية للفكر والنقاش السياسي والحكم الرشيد والفلسفة والأخلاق.

مع ذلك يشير غراهام إلى أننا إذا تصفحنا صفحات كتاب نموذجي لمنهج في الثانوية في الغرب سيكون من الصعب العثور على أية معلومة تذكر أيّ شخصية إسلامية بخلاف النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)،

وربما اسم صلاح الدين أو سليمان القانوني ولا شيء آخر. لهذا السبب شرع غراهام في الكتابة عن الموضوع ليسد الفجوة في معرفة العالم الغربي.

لقد صنعت الأفكار الكلاسيكية الحركات الإنسانية والعقلانية والتنوير، وهي أساس الحضارة الغربية، ومن الغريب أن يقال للمسلمين بأن الإغريق ينتمون إلى المسيحية وليس للإسلام، وفي خاتمة مؤثرة يشير غراهام بأن الإغريق فعلاً ينتمون إلى الإسلام بقدر انتمائهم إلى المسيحية، لقد كان المسلمون هم الذين أنقذوا الإغريق عندما كان المسيحيون يحرقونهم، وهم أيضاً الذين ترجموا تراثهم، وحاوروهم، وعلقوا عليهم وقاموا بتحسين نظمهم، لقد منح المسلمون الغرب المسيحي علومهم وطبهم، وموسيقاهم وغذاءهم وملابسهم وشعرهم وفلسفتهم وعلوم الرياضيات، وهم الذين أخرجوا أوروبا من العصور المظلمة إلى التنوير، وهذه «المعلومة» هي ما يعتقد غراهام بأنها «السر الفظيع الذي تحاول أسطورة النهضة أن تخفيه عن العالم».

والسطور الأخيرة من كتاب غراهام تلخص أطروحته : «لقد حان الوقت لتنتصر الذاكرة على فقدان الذاكرة المتراكمة، فالإسلام ينتمي للغرب بقدر ما ينتمي إليه المصريون واليونانيون. . . . إن كتابة هذا التاريخ الجديد ستمكننا أخيراً من تجنب كل ما أدى إلى تفرقنا، ونعلم من جديد ما نشترك فيه كأبناء إبراهيم وارسطوطاليس».

هذه الرسالة من الأمل والمصالحة هي التي تجعل من كتاب غراهام

«كيف صنع الإسلام العالم الحديث» كتاباً جديراً بالقراءة، إنه كتاب ممتع ومهم وعلى الفرد قراءته في الأوقات العادية، أما في عالم ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر فينبغي أن يكون كتاباً إجبارياً.

البروفيسور أكبر أحمد
كرسي ابن خلدون للدراسات الإسلامية وأستاذ العلاقات الدولية
الجامعة الأمريكية
واشنطن، الولايات المتحدة الأمريكية

تمهيد المؤلف

هذه قصة ينبغي أن تروى.. فهي قصة قد نسيت إلى حد كبير، وحنّطت بقاياها في المجلات العلمية المتخصصة والنصوص التي لا يمكن إلا لحفنة من المتخصصين أن يقرؤوها. افتح أيّ كتاب تاريخ في المدارس الإعدادية، وسترى أن هذا التاريخ مفقود فقداناً تاماً، كما هي الحال مع معظم كتب التاريخ في الجامعات، وهي قصة ديانة قد أصبحت عند الكثيرين متوحشة ومناقضة للحداثة، ولكنها بنت إمبراطورية من الثروة والألَق لم يرَ العالم مثيلاً لها، وهي قصة تراث غني من المعرفة لم يحفظ، بل أعيد تشكيله وأعيد تصوره، وهي قصة ولادة النهضة في أوروبا في القرون الوسطى، إنها قصة: كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟

مقدمة المترجم

لقد أصبح الإسلام في نظر بعض الغربيين لا علاقة له بالبناء أو الحضارة، وإنما أصبح يقوم على القتل والفتك بالآخرين، ووسمت حضارة تبلغ مئات السنين وشملت أمماً وشعوباً مختلفة انضوت تحت راية الإسلام بالتخلف والجهل ومعاداة كل ما هو حديث ومعاصر، وأخذت الكثرة بجريرة القلة، وعملت آلة الدعاية الغربية الهائلة على تهويل الخلاف والشقاق بين الإسلام والغرب وتعميقه، ومن ثم ترسيخه في أذهان عامة الناس بوسائل الإعلام التي تنفذ إلى عقول الناس ووجدانهم، على الرغم من منجزات الحضارة الإسلامية التي لا تنكر وكذلك علاوة على الصفحات المضيئة للعلاقة بين الاثنين.

فهذا الكتاب يتميز بالحماسة التي تقوم بشكل أو بآخر على التعميم في بعض الأحكام، فالكاتب غربي كتب كتابه للغربيين، وهو موجه إلى عقلية تجهل الموضوع وأفكاره ومصطلحاته ورجالاته وتاريخه، وغاية المؤلف هي أن يثبت بأن منجزات الغرب العقلية والفلسفية والعلمية إنما بدأت من عالم الإسلام، وهذه الفكرة بعيدة المدى، ولاسيما عندما تطرح في زمن جُرّد فيه المسلمون من كل نزعة إنسانية أو إنجاز حضاري.

وهناك ثلاث ملاحظات ينبغي للقارئ العربي أن ينتبه إليها في هذا الكتاب : الأولى أن الكاتب يؤمن بأن الحضارات تتلاقى وتتفاعل سلباً

وإيجاباً مع بعضهما بعضاً، وهي تأخذ وتعطي في الوقت نفسه. وهكذا هي مسيرة الثقافة الإنسانية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، أما الملاحظة الثانية، فهي أن الحضارة الإسلامية لم تتلقَ منجزات الإغريق والفرس والهنود تلقياً سلبياً، بل ما هو أهم من ذلك أنها تفاعلت مع تلك المنجزات وطوعتها وأغنتها وأضافت إليها الكثير، ثم سلمتها إلى الحضارة الغربية، وهنا يكمن تفرد الحضارة الإسلامية في تفاعلها مع الحضارات الأخرى، أما الثالثة فهي أن الحضارة الإسلامية كبقية الحضارات التي سبقتها أو جاءت بعدها اعتمدت على أمم وأقوام أخرى من غير جنسها تفاعلت مع الحضارة الجديدة واندمجت فيها وأغنتها واغتنت منها.

أما ترجمة هذا الكتاب فقد كانت عملاً مضنياً يقتضي معرفة هائلة بالمصادر والكتب والإشارات والسياقات الإسلامية، وهو أمر زاد من صعوبته انعدام الهوامش أو الإشارة إلى المصادر التي استقى منها مؤلفنا مصادره، وقد كان خير عون لي في هذا الصدد الزميل الدكتور محمد نور الدين المنجد الذي تمكن من التعرف على تلك المصادر والمراجع والإشارات التي أعيتني الحيلة في العثور عليها، وقام علاوة على ذلك بالتعرف على المبالغات والهنات التي وقع فيها المؤلف وهي مذكورة في الهوامش في نهاية كل فصل، أما ملاحظاتي وتصحيحاتي فقد وضعتها بين هلالين معقوفين.

وينبغي علينا أن نشير بأن الكاتب لم يرجع إلى الأصول والمصادر

العربية لعدم إجادته اللغة العربية، ومن ثم اعتمد على الكتب المترجمة، وهذا ما أوقعه في العديد من إساءة التأويل، ولكن هذه الهفوات لا تقلل من أهمية الكتاب، لأنه يقدم نظرة جديدة إلى الصراع الحضاري أو لنقل التفاعل المتبادل بين الإسلام والغرب بقلم وعقل غربيين موجهين إلى عقلية غربية.

وقد يجد القارئ غرابة في بعض تعبيرات المؤلف وطريقة صياغته للجملة أو تركيبها أو حتى في استخدامه للمجازات، وهو أمر حاولت أن أبقيه في الترجمة دون المبالغة في التقعير أو التغريب.

وانطلاقاً من إيمان مشروع «كلمة» والقائمين عليه بالحوار بين الحضارات والتفاعل مع الآخرين والالتقاء مع الثقافات المتعددة التي تشكل عالم اليوم المعاصر، فقد تبنى المشروع نقل هذا الكتاب المهم إلى العربية، وهو يقدم للقارئ العربي كتاباً أشبه ما يكون بمرآة نرى من خلالها الآخرين وكيف يروننا، وتصورهم عنا، ومن هنا ينبع نبل رسالة مشروع «كلمة» وضرورتها في عالم يتوق إلى التسامح والمحبة والمودة.

وهل هناك وسيلة أكثر فعالية وأطول عمراً وأمضى سلاحاً لمد جسور التفاهم والتلاقي بين شعوب العالم المختلفة غير الترجمة؟

أ. د. عدنان خالد عبد الله

جامعة الشارقة

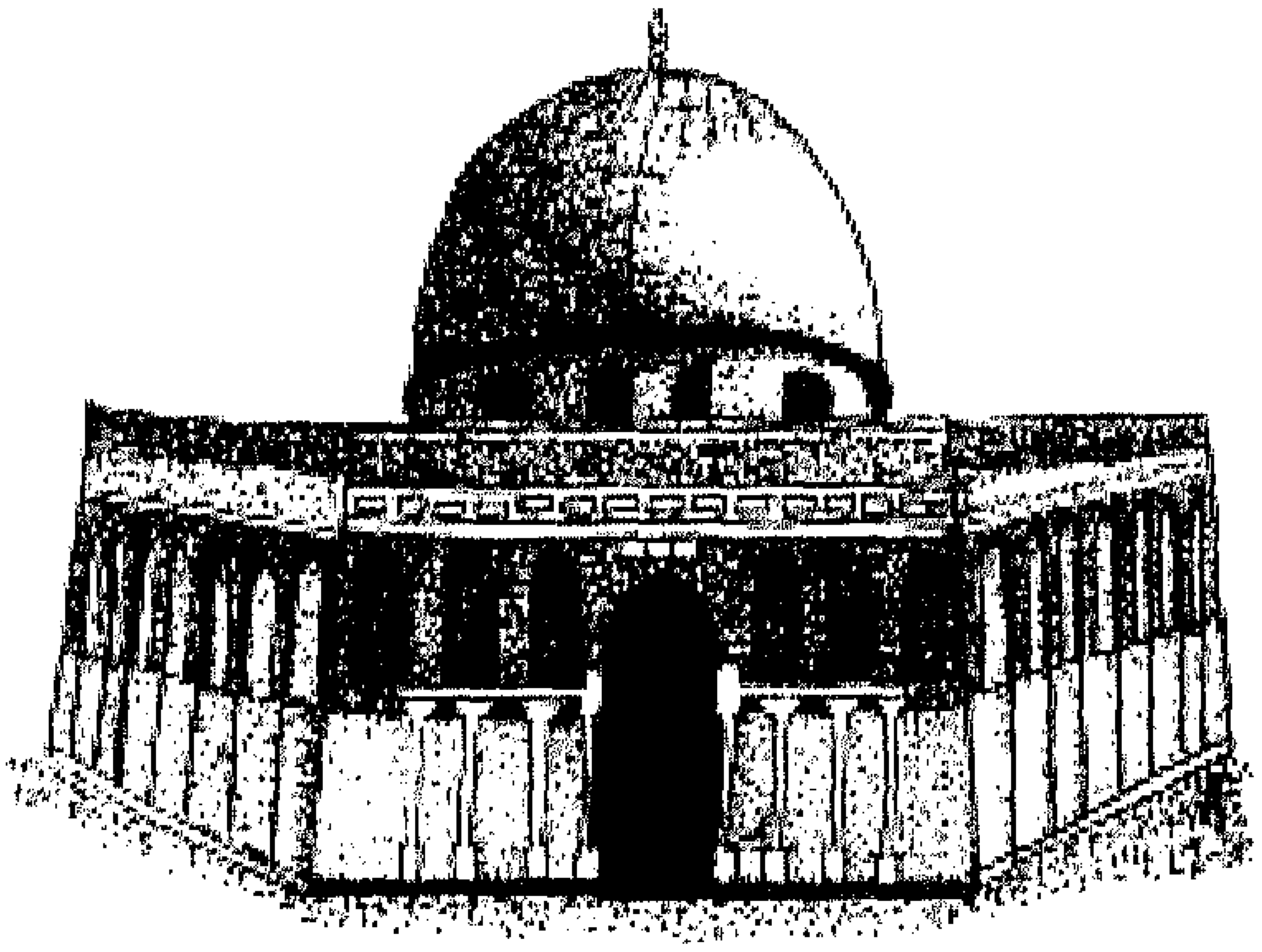

الفصل الأول: الإسلام يصبح إمبراطورية

الرسول

نعلم جميعاً متى بدأ الأمر برمته: في أواخر شهر رمضان حوالي عام 610 للميلاد، ونعلم مكان نزوله: التلال المجاورة لمركز النشاط التجاري في مكة، ومعظمنا يَعرف أول من سمع بالخبر: محمد التاجر الذي كان غالباً ما يختلي بنفسه في غار حراء للتأمل والصلاة.

وبينما كان يتعبد في الكهف سمع ذات ليلة صوتاً يهتف به «اقرأ»! اندهش الرجل الأمي من الأمر الغامض.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

وبينما كان يخرج محمد بسرعة من الكهف، رجع الصوت مرة أخرى قائلاً، يا محمد، إنك رسول الله وأنا المَلَك جبريل».

ذهب إلى البيت مذعوراً ونادى زوجته خديجة «زملوني، زملوني» ولكن الصوت لم يختف، وبمرور الوقت جاءه الوحي مرات عديدة متجسداً في جبريل، ومن خلال كلمات مباشرة من الله، رب إبراهيم وموسى وعيسى، والآن أصبح محمد «خاتم الأنبياء» وآخر المرسلين.

بالطبع لم يكن أهل مكة مسقط رأس النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) مسرورين بصورة خاصة لسماع رسالة التوحيد هذه، كانت

مكة تدين بازدهارها لمزارها وهي الكعبة، وفيها عدد لا يحصى من الآلهة التي تقبع في أرضها. ففي هذا الجو من الشمولية الدينية كان الخلاف والشقاق مرتبة ثانوية إذ الحج كان له الأولوية فيها، وأصبحت مكة محطة توقف مريحة جداً للقوافل، ولم تكن قريش، وهي القبيلة التي تحكم المدينة، مهتمة بالدين الذي من شأنه أن يقضي على مصدر دخلها.

لقد كان أتباع الدين الجديد قلة في البداية، وقد اعتنقه، كما كان الوضع وقت النبي عيسى عليه السلام، اليائسون وقليلو الحظ. إن ما جاء به القرآن الكريم من العدل والعطف على الفقراء والمنبوذين كان عندهم معجزة بحد ذاتها، إذ ظهر في وقت سادت فيه الوحشية وعدم المساواة. (انظر الملحق (1) من آيات من القرآن الكريم عن هذا الموضوع). فالأغنياء قساة القلوب، يحتقرون الفقراء ويسيؤون معاملتهم أخذوا على حين غرة، فقد اكتشف محمد (صلى الله عليه وسلم) شيئاً أكثر نفوذاً من أموالهم وكرامتهم، لقد وجد الله.

﴿قتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17)﴾
﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (19)﴾
﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (20)﴾
﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (21)﴾
القرآن الكريم (80:17—21)

فجأة أصبحت ثروة الإنسان وفخره بقبيلته لا يعنيان شيئاً، فالإسلام،

أو الخضوع لله بات أمراً مهماً عند الإنسان، وما يتوجب على المرء الخضوع له كان أمراً بسيطاً نسبياً.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ(4) وَالرجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ(6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ(7)﴾.

(القرآن الكريم 74: 7–3)

في البداية استمع أهل مكة للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وتعاليمه كأنها تسلية عابرة، وكانت هذه العبادات البسيطة وغير المؤذية، جيدة، وغير مضرة، ولكن عندما بدأ الرسول الجديد بالوعظ ضد الأصنام التي يعبدونها أثار ذلك سخطهم، وما أغضبهم في المقام الأول هو إعلانه بأن جزاء جميع عبدة الأصنام هو جهنم، كان هذا أمراً لا يمكن تحمله عند قبائل مكة، فبدؤوا يسخرون من محمد (صلى الله عليه وسلم) ويرمونه بأحشاء الأغنام بينما كان يسير في الشوارع، وفي نهاية المطاف تحولت التهديدات علنية، ورغم هذا العداء تمكن عمه من حمايته لمدة كافية لكي يستطيع محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يجند مجموعة من عدة مئات من الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام.

وعندما مات أبو طالب، الرجل الذي كان الجميع يحترمونه عام 619 للميلاد، أصبحت مكة مدينة أقل إغراء، وبعد ذلك بقليل ماتت خديجة، وهي أول امرأة دخلت الإسلام، والمرأة التي أيدت محمد (صلى الله عليه وسلم) بحبها وعطفها، هنا اشتدت حدة اضطهاد قريش للنبي وأتباعه. فكّر محمد (صلى الله عليه وسلم) في الارتحال مع جماعته إلى

مصيف الطائف الذي يبعد سبعين ميلاً من مكة. قام بالرحلة في البداية وحده، وهو يأمل أن يلقى ترحاباً من أهل الطائف له ولرسالته، وعندما وصل الطائف استقبل استقبالاً عنيفاً، طارده عبدة اللات خارج المدينة وهم يقذفونه بالحجارة ويشتمونه طوال الطريق.

رجع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى مكة وهو واهن العزيمة، وهذه المرة التقى النبي بمجموعة قوافل من يثرب التي تبعد مئتين وخمسين ميلاً شمالي مكة. دعوه مع أتباعه ثم استقبلوهم في مدينتهم، وهم يعتقدون أنه ربما يكون موسى الذي ينتظر جيرانهم من اليهود مبعثه في أية لحظة.

قَبِل النبي (صلى الله عليه وسلم) دعوتهم في الوقت المناسب، هنا قررت عشيرة معادية في مكة أن تقتل النبي (صلى الله عليه وسلم) طعناً وهو نائم. وعندما اندفع القتلة إلى داخل غرفة نومه وجدوا طعماً – ابن عمه [في الأصل: ابن أخيه] علي وهو صبي قاصر. وكان قد تسلل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه المخلص أبو بكر بهدوء خارج مكة في الليلة السابقة، بدأ المتآمرون بمطاردة النبي وصاحبه وهم غاضبون.

في هذه الأثناء كان المهاجران مختبئين في كهف في جبل ثور، بعد ذلك بقليل وصل أهل مكة الجبل وفتشوه بدقة، ووجد المقاتلون الكهف الذي يختبئ فيه النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولكنهم تراجعوا دون الدخول إليه ورجعوا إلى مدينتهم، ما الذي منعهم من قتل

محمد؟! الذي يكرهونه هناك؟

تذكر الرواية بأنه حين اختبأ الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في الكهف، نسج عنكبوت شباكه في مدخل الكهف، وعندما رأى أهل مكة نسيج العنكبوت استنتجوا بأنه لم يدخل أحد الكهف مدة طويلة، إن خيطاً هزيلاً ومجدولاً من نسيج شبكة عنكبوت أنقذ الإسلام[1].

ومنذ ذلك الحين بدأت السنة الهجرية للتقويم الإسلامي أي الهجرة من يثرب (التي سميت فيما بعد بالمدينة، مدينة الرسول) وكان التاريخ 16يوليو، 622 للميلاد.

وبعد أن استقر بأمان في المدينة بدأ محمد (صلى الله عليه وسلم) بتأليف المسلمين بحماسة في مجتمع على درجة عالية من التماسك الروحي، وما سمي «بالأمة»، هنا بدأ الكثير من الممارسات والفروض الإسلامية من ضمنها المساجد، ومؤذن الصلاة، واتجاه القبلة ونزول الكثير من سور القرآن الكريم.

وكما هي الحال مع الشخصيات العظيمة فإن أفكاره، وأعماله وعاداته أصبحت قدوة يقتدي بها أتباعه ويحافظون عليها، ونحن نعرف الكثير عن محمد (صلى الله عليه وسلم) من أقواله، ووفقاً للمهاتما غاندي فإن هذه الأقوال هي «كنوز للبشرية وليس للمسلمين فقط»، فالحديث يعبر عن وجهة نظر النبي من الايمان والعدالة الاجتماعية ولكن يكشف أيضاً تفاصيل عن حياته الخاصة وذوقه، تروي قصة محببة

(1) القصة لا أصل لها عند المحققين.

عن محمد (صلى الله عليه وسلم) كيف قطع جزءاً من كمه وهو ذاهب إلى الصلاة، واتضح أن الرسول كان يشعر بالقلق خشية تعكير صفو قطته النائمة والتي تدعى «معزة» وقد جثمت على ذراعه.

كان عطف النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) واضحاً ليس فقط على البشر ولكن على الحيوانات جميعها، ففي المثال الشهير عن قصة البغي (حديث البخاري 538، 16، 44،) التي مرت ببئر، ورأت كلباً يكاد يموت عطشاً، فخلعت حذاءها وربطته بشالها وسحبت بعض الماء من البئر للحيوان المسكين، قال محمد (صلى الله عليه وسلم) لأتباعه «إن هذا الفعل البسيط من الشفقة غفر لها الله به حياتها الفاجرة». هذا المثل شبيه بحكاية النبي عيسى عليه السلام مع السامري الصالح، الذي يعكس ليس فقط عطف النبي تجاه المنبوذين من المجتمع ولكن رسالة القرآن الكريم في التسامح والعطف.

نبغ النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في السياسة كما في الروحانيات، إن صياغة اتفاقية المدينة (صحيفة المدينة) هي واحدة من أكثر الأحداث استثنائية في ذلك الوقت، ويعدها البعض أول دستور في العالم، فهي معاهدة وميثاق المدينة المنورة بين العرب واليهود في المدينة، حيث تعهد الجميع (المسلمون واليهود والعرب من غير المسلمين)، بالعيش بانسجام وتناغم مدني يحكمهم الدستور والتشاور والتبادل، ويلزم العهد هذه الجماعات المختلفة باتفاق للدفاع المشترك، وينص على أن اليهود في المدينة هم مجتمع واحد مع المسلمين، وأن لهم الحرية

لممارسة دينهم وأداء طقوسهم وأنهم يتمتعون بكل الحقوق المعطاة للمسلمين، كانت هذه الوثيقة المذهلة ذات الآثار البعيدة المدى خطوة ثورية نحو نظام الحكم المدني، وعلى الرغم من النهاية المأسوية للتعاون بين اليهود والمسلمين في المدينة، فإن هذا المخطط للتعاون بين الأديان وتسامحها سيخدم الإسلام وأتباعه بصورة جيدة في المستقبل.

إن عزم أهل المدينة سيوضع موضع الاختبار قريباً، فبعد سنوات من الصراع والتوتر انفجر النزاع بين المسلمين وأهل مكة بشكل حرب علنية، وحصلت المواجهة الحاسمة في مارس عام 624 للميلاد، عندما عَلم الرسول أن هناك قافلة كبيرة من قريش ستمر قريباً في طريقها إلى مكة، قرر أن يواجهها ويلحق بها هزيمة مالية وعسكرية.

وسميت المعركة بغزوة بدر، فقد جلب أهل مكة دعماً مكوناً من تسعمئة وخمسين رجلاً، معظمهم من الفرسان ليحرسوا ألف بعير وحمولتها الثمينة التي تقدر بخمسين ألف دينار، من ناحية أخرى استطاع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يجمع قوة صغيرة تتكون من ثلاثمئة رجل والبعض منهم كان كبير السن، كان لدى المسلمين سبعون ناقة وفَرَسان، وكانت هزيمتهم أمراً مؤكداً.

بدأ القتال على النمط العربي الأصيل، بقتال منفرد بين قائدي كل جبهة، بعد ذلك استلت السيوف من أغمادها واشتبك الطرفان، وكان مقاتلو قريش المغرورون واثقين من إحراز النصر المؤزر.

وعلى الرغم من حماستهم الأولى اكتشف أهل مكة بأن المسلمين

لهم ميزة الأفضلية من ناحية التنظيم، وكذلك السيطرة على الآبار القريبة، فأهل مكة الآن يقاتلون من أجل الحصول على الماء وحماية بضاعتهم، أما المسلمون فقاتلوا ببسالة وبإيمان راسخ لا يتزعزع بأن الله معهم.

حين انقشع غبار المعركة وغاصت الدماء في الرمال، فَقَد المسلمون أربعة عشر شهيداً، وفقد أهل مكة سبعين رجلاً، وسبعون آخرون أصبحوا أسرى حرب. لقد حققت قوات النبي (صلى الله عليه وسلم) نصراً ساحقاً.

وقد أوحي فيما بعد للنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بأن الله أرسل ألفاً من الملائكة لتقاتل معه، لئلا يغتر المسلمون بنصرهم، في هذا الأثناء بعث الله تحذيراً شديد اللهجة إلى قريش المهزومة.

﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النّار﴾ (القرآن14:8).

انتظرت قريش عاماً كاملاً لتصفية حسابها، فجهزت ثلاثة آلاف رجل للمعركة القادمة التي ستسمى بغزوة أحد، وفي هذه الأثناء كان النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) قد زاد عدد مقاتليه إلى سبعمئة مقاتل، ولكن الاحتمالات لم تكن بجانب المسلمين على الرغم من نصرهم الأولي كما كانت الحال في غزوة بدر.

شعر بعض رماة السهام المسلمين بالانتصار، وعلى الرغم من أنهم أمروا بعدم ترك مواقعهم على قمة جبل أحد، اندفعوا بتهور إلى ساحة الوغى، لقد استطاع أهل مكة أن يرصوا صفوفهم وينظموا أنفسهم

نتيجة لتهور المقاتلين المسلمين، وفي مدة قصيرة شن الفارس المقدام خالد بن الوليد هجوماً مضاداً، وأصبح المسلمون في حالة فوضى عارمة، واشترك النبي (صلى الله عليه وسلم) في القتال مستخدماً السهام والرماح. وفي القتال سقط النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) على الأرض من جراء حجرة أصابته ثلمت شفته وحطمت أحد أسنانه، ودفعه أحد مقاتلي قريش إلى الوراء فترنح وسقط في حفرة، وبعد أن سحب إلى مكان أمين، استفاق النبي المذهول بسرعة، في هذه الأثناء نشرت إشاعة بأن النبي قد قتل، فهرب أتباعه المثبطون مذعورين.

عند انتهاء المعركة كان عدد المسلمين الذين قتلوا خمسةً وستين[1] شخصاً وعدد قتلى أهل مكة عشرون[2] لقد سحق الغزاة حقول المسلمين ودمروا حصادهم، ومن الأفعال الشنيعة التي قام بها أهل مكة عند مغادرتهم ساحة القتال تشويه وجوه قتلى المسلمين وصنعوا قلائد من أنوفهم وآذانهم، وانتزعت هند زوجة أبي سفيان كبد حمزة عم النبي (صلى الله عليه وسلم)، ومضغته ومن ثم بصقته انتقاماً لموت أبيها في معركة بدر، أقسم الجانبان على المواجهة ثانية في العام القادم.

في الواقع استغرقت المواجهة بضع سنوات وفي هذه الأثناء كانت شعبية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في أسوأ أوقاتها، فالعناية الإلهية التي ساندتهم في غزوة بدر اختفت[3]، وتساءل المسلمون عن

(1) [بل سبعون].

(2) [بل اثنان وعشرون].

(3) [غير صحيح]

السبب قائلين إذا كان الله لا يضمن النصر الأكيد، فَلِم نستمع لرسوله ونتبع تعليماته؟ في خضم هذا السخط والاستياء نزل الوحي، الذي أكد للمؤمنين بأن معركة أحد كانت اختباراً لعزيمتهم وعقاباً للذين شعروا بأنهم يستطيعون إنجاز أي شيء من دون عون من الله.

هاجم العديد من الأطراف النبي (صلى الله عليه وسلم)، ففي الوقت الذي كان أتباعه يشككون فيه، كان اليهود في المدينة يفعلون الشيء ذاته، فبعد سنوات عديدة لم يتركوا دينهم، ولم يكن لزاماً عليهم قبول محمد (صلى الله عليه وسلم) منقذاً لهم.

أصبح النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في حيرة من أمره، فبالنسبة له كان الإسلام بكل بساطة المرحلة الأخيرة من رسالات بدأت منذ القدم مع النبي إبراهيم عليه السلام، الذي هو أبو الأنبياء جميعاً والذي بنى الكعبة منذ البداية، تزوج محمد (صلى الله عليه وسلم) من يهودية، واحتفل المسلمون بالأعياد اليهودية وصاموا مع اليهود في يوم التكفير، وعلى الرغم من ذلك رفض اليهود النبي الجديد كما فعلوا قبل ستمئة سنة مضت، كانت تلك إحدى أهم خيبات الأمل الكبيرة في حياة محمد (صلى الله عليه وسلم).

عاد أهل مكة عام 627 ميلادية بجيش يتكون من عشرة آلاف رجل، ومن ضمنهم مرتزقة من البادية، وعبيد أفارقة والعديد من القبائل اليهودية، ويمكن القول بأن هذا كان تحالفاً دولياً، إن جاز التعبير، وكان لدى النبي (صلى الله عليه وسلم) ثلاثة آلاف من المقاتلين فقط.

لقد تعلم النبي درساً في غزوة أحد، وقرر الابتعاد عن القتال في ساحة مفتوحة، واستمع لنصيحة أسداها له رجل من العجم، فأمر أتباعه بحفر خندق حول المدينة، واستغرق عشرين يوماً لإكماله، استغرق حصار الغزاة مدة أطول قليلاً من ذلك، وفي خلال شهر انسحبوا من دون أن يتمكنوا من خرق دفاعات المدينة، لقد حقق النبي نصراً مؤزراً غير دموي، لقد قتل عشرون رجلاً فقط، الآن لا شيء يقف في طريق انتشار الإسلام.

لم تمض مدة طويلة على معركة أُحد، حتى تحول النبي إلى ما تبقى من يهود المدينة، الذين كان يشك في تآمرهم مع أهل مكة، كانت هناك قبيلة عربية تدعى الأوس التمست العفو من الرسول فأحال الرسول موضوعهم إلى شيخ قبيلتهم ليقرر مصيرهم، ولم تأخذه الشفقة بهم، فقد أمر بقطع أعناق الرجال وبيع النساء والأطفال ليكونوا عبيداً، ومحمد الذي كان لا يزال متألماً من رفضهم لرسالة رب العالمين، لم يعترض على العقاب.

في السنوات العديدة القادمة انتقل الإسلام إلى شعوب أهل الكتاب، أي المسيحيين، ويقول القرآن الكريم:

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)﴾ (القرآن الكريم (29: 46)

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَارَىٰ (82)﴾ (القرآن الكريم (5:82)

وتعاطف بعض المسيحيين إلى حد كبير مع الإسلام بحيث اعتنقوا الدين الجديد، ومثال على ذلك القس البيزنطي المدعو دوغتيير، والمثال الثاني هو حاكم فلسطين، وقد شُنق دوغتيير، في حين قطع رأس الحاكم ووضع على خازوق بأمر من الإمبراطور، وبالرغم من هذه الإجراءات الوحشية فإن العديد من الاتفاقيات أُبرمت مع القبائل المسيحية واليهودية.

لم يكن المسيحيون الآخرون ودودين، وعلى أية حال فقد قام حرس الحدود البيزنطي بقطع رؤوس بعثة من المسلمين دخلت إلى سوريا من ضمنهم ابن النبي (صلى الله عليه وسلم) بالتبني، كانت بداية لصداقة غير جميلة ستنتهي في عام 1453 ميلادية عندما أصبحت القسطنطينية إسطنبول.

من خلال المعاهدات والغزوات وحتى الاغتيالات أصبحت الجزيرة العربية تحت راية الإله الواحد الأحد، وفي هذه المدة التزم المسلمون بقوانين صارمة للاشتباك تحرم إيذاء النساء والأطفال والحيوانات وحتى الأشجار على الرغم من أن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) حرق بستاناً أو اثنين عند الضرورة لتحقيق استسلام، فإن أسلوبه المستنير والحضاري في القتال أصبح ركيزة أخلاقية.

في عام 630 ميلادية دخل محمد (صلى الله عليه وسلم) مكة أخيراً ومعه عشرة آلاف رجل، استسلم أبو سفيان وهو رئيس قبيلة أمية حارب في غزوتي بدر وأُحد، لقد احتل جيش النبي مكة من دون مقاومة.

وبدلاً من إعدام أعدائه اللدودين السابقين فإن النبي أطلق سراحهم، حتى هند زوجة أبي سفيان التي مزقت جسد عم الرسول وانتزعت كبده ومضغته، فقد أصبح ابنها معاوية أمين السر الجديد للرسول، لقد كانت خطوة غير مسبوقة للسلام وحركة دبلوماسية حاذقة للإسلام، ما جعل الحوار في مكة سهلاً.

لقد انصب غضب النبي (صلى الله عليه وسلم) على الأصنام فقط في الكعبة، فقد سحب الجذوع الخشبية إلى الخارج وقام المسلمون بتحطيمها الواحدة تلو الأخرى وسحقوها حتى أصبحت رماداً، وكل ما تبقى كان عبارة عن صور ورسوم للنبي عيسى ومريم العذراء التي أزيلت باحترام، والمزار الذي كان سابقاً للأوثان أفرِد للواحد الأحد، وسمع صوت أذان بلال للصلاة في أرجاء المدينة، (وهو أول مؤذن في الإسلام).

ولكن ضمر بعض العرب حقداً ضد الإسلام، أهمهم مواطنو الطائف، وهو المكان الذي رُشق فيه النبي بالحجارة وطرد منه قبل سنوات، فبعد أن أسلم الناس في اليمن، وعمان، والبحرين وبقية الجزيرة العربية، استمر أهل الطائف في تمسكهم باللات، وعندما وصل محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة مع مجموعة كبيرة هذه المرة، قدم الوثنيون تسوية– بأنهم يعتنقون الإسلام إذا ترك محمد آلهتهم ثلاث سنوات.

فصرخ محمد (صلى الله عليه وسلم) «ثلاث سنوات! لا، ولا يوم

واحد» تحطمت اللات بضربة من الفأس، وماتت معها الوثنية عند العرب، لقد ولدت عقيدة جديدة وتغير معها العالم بأكمله.

الخلفاء الراشدون

مات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك بسنتين بتاريخ 8 يونيو من عام 632 م. ودفن تحت تراب منزل زوجته المفضلة عائشة في المدينة، وخاطب أبو زوجته المخلص أبو بكر الصديق المؤمنين قائلاً:

«يا أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

لن يكون هناك نبي آخر، لقد بعث الله آخر رسالاته، وما كان على الباقين إلا نشر الخبر.

ولكن لا ينبغي للمسلمين أن يبقوا بدون حاكم، وعلى الرغم من أنه لم يكن للنبي أبناء ليحملوا الراية من بعده، أعطيت الخلافة أولاً لأبي بكر ثم لعمر، وهو زوج ابنة الرسول، إن فكرة الملكية كانت كريهة للعرب، فقد سمي هؤلاء الرجال ببساطة «خلفاء».

لقد حكم هؤلاء الخلفاء الراشدون مدة ثلاثين عاماً: واهتموا بالنواحي الروحية القدر نفسه الذي أولوه للسياسة، وكما قال أبو بكر: «أطيعوني ما دمت أطيع الله ورسوله، وإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

في هذه الأثناء كان المؤمنون يحفظون الأحاديث النبوية عن ظهر

قلب وحرفياً، وكانت أيضاً تنسخ على ورق البردي وسعف النخيل والقماش وحتى عظام الجمال، وحديثاً اكتشفت بعض نسخ القرآن التي تحتوي على اختلافات نصية، وبالنسبة للعلماء المسلمين، فإن ذلك يتعلق باللهجات العربية أكثر من علاقته بالاختلافات العقائدية، فقد أصدر أبو بكر تعليماته إلى ناسخ النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو زيد بن ثابت بعمل نسخة أصلية من كل النسخ الموجودة، ومن هنا انتقل أول قرآن إلى عمر ومن ثم أخيراً إلى عثمان بن عفان، وهو ثالث خليفة عند المسلمين الذي جمع النص النهائي، وبعكس الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين فإن القرآن جمع خلال فترة حياة هؤلاء الناس الذين سمعوه أول مرة من النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي سمعه من الوحي، وبعد أن قرأ الخليفة عثمان بن عفان القرآن لصحابة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وافقوا عليه ثم أتلف النسخ الباقية كلها.

لقد اختلف بعض الباحثين حول هذه الرواية، ويدّعون أن النسخة النهائية للقرآن الكريم لم تتخذ شكلها النهائي إلا بعد ذلك بوقت طويل، ويلفتون الانتباه إلى حقيقة أن نسخاً من القرآن الكريم من الفترات السابقة لم تعد موجودة، وفاتهم بأن يذكروا بأن الأعمال الفنية والزخرفة الموجودة في العديد من المساجد والمزارات مثل مسجد قبة الصخرة احتفظت بالكثير من السور القرآنية التي تعود إلى ذلك التاريخ، ووصف زائر إلى المسجد النبوي عام903 ميلادي كتابات على الفسيفساء هناك تتضمن السورة 1 و91 و114. ويعود تاريخ الفسيفساء

إلى 706–710 ميلادي، هكذا فإن هذه الأدلة تشير إلى أن القرآن موجود بشكله الحالي منذ وقت مبكر.

وحتى بالنسبة للذين لديهم شكوك حول ذلك، فإن مدة جمع القرآن مقارنة بمدة جمع العهد القديم والعهد الجديد كانت قصيرة جداً، واعتماداً على هذا الدليل فإن نسخة القرآن النهائية التي جاءتنا من زمن عثمان بن عفان هي نفسها التي يقرأها كل مسلم اليوم.

كان لدى قادة الإسلام أمور ملحة أخرى لتسويتها بالإضافة إلى جمع كتابهم المقدس، فالخلفاء الراشدون ربما لم يكونوا متمرسين في الحكم، ولكنهم قاموا بما يلزم للم شمل القبائل المتنافرة تحت راية الإسلام وحدها، وفي غياب القابلية الفذة التي تمتع بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) لتوحيد القبائل، رجع العرب إلى عصبيتهم القبلية، وعداواتهم، وحتى بعض الممارسات الوثنية من «عصر الجاهلية».

ومنذ اللحظة الأولى لوفاة النبي عام632هـ، لم يعد الإسلام كياناً روحياً وسياسياً موحداً، نشأت الطوائف وظهرت الفصائل كالعقارب، وتفشت المنافسات كالوباء كما هي الحال في بداية المسيحية، حيث تحزب الناس حول بيتر وبول أو بولص، لم يتغير شيء. في الواقع فإن الشقاق والانقسام تضاعف بمرور الزمن.

واليوم، على النقيض من التصور المألوف، ليس هناك شيء اسمه الإسلام، ولكن العديد من أشكال الإسلام، كما هي الحال عند اليهودية والمسيحية، أو البوذية، واليوم ارتكب الأوروبيون والأمريكان العديد

من الأخطاء الأخلاقية القاتلة وغابت عنهم العديد من الفرص لتحقيق المصالحة على مر السنين لأنهم أخفقوا في فهم الإسلام بكل فصائله المعقدة.

ومما أدى إلى انهيار الخلافة الراشدة هو التحزب، فقد كان هؤلاء الخلفاء أقرباء للرسول وحاولوا المحافظة على الفطرة السليمة نحو وحدة الهدف والخضوع لمشيئة الله التي اتسم بها المجتمع الإسلامي الأول في المدينة، ولكن من المحزن أنهم أخفقوا في تحقيق ذلك، فأصبحوا شهداء لعقيدة الإسلام أو ربما ضحايا انتصاره السياسي.

عندما توفي عمر رضي الله عنه رشح المسلمون كلاً من عثمان وعلي رضي الله عنهما، كان التصويت منقسماً ولكنهم في النهاية استقروا على عثمان، وعلى الرغم من إنجازاته العظيمة كحاكم، ومن ضمنها وضع النسخة النهائية للقرآن الكريم، فإن عثمان خلق الكثير من الأعداء له وخاصة في مصر، بعد أن بدل حاكمه ذا الشعبية الواسعة بابن عمه، فقد انتقد عثمان مجموعة من المتمردين العرب والبالغ عددهم خمسمئة رجل. في البداية وعد بتلبية حاجاتهم، ثم أخلف وعده، ووعظ ضدهم في خطبة الجمعة، غضب المتمردون بشدة واقتحموا بيته وقتلوه وهو يقرأ القرآن.

ولم تكن تلك الطريقة المثلى لعلي بأن يفوز بالخلافة، فقد كانت هناك مشكلات منذ البداية، ولم تكن عائشة زوج النبي على وئام مع علي الذي أغضبها قبل سنين عندما اتهمها أعداؤها بالزنا، ففي معركة

الجمل قادت قوات المعارضة ضده وحثت قواتها وهي مختبئة في مِحَفّة أو هودج على سنام الجمل، انتصر علي في ذلك اليوم، واجبر أرملة محمد على العزلة، إلا أنه لم يكن ناجحاً هذا النجاح مع منافس آخر أشد خطورة.

كان معاوية، وهو ابن عدو محمد (صلى الله عليه وسلم) السابق أبو سفيان الداهية، قد وصل بسرعة إلى السلطة في الولاية الإسلامية الجديدة، وهو الآن في مركز قوة باعتباره والي سوريا، ويدين بمركزه هذا إلى عثمان المقتول الذي كان من أقربائه، فقد اتهم الوالي علياً بالتآمر لقتل الحاكم الشرعي للدولة الإسلامية، وفي وقت قصير نشبت حرب عنيفة.

بعد معركة صفين غير الحاسمة عام657 م قرر علي ترك القضية للتحكيم، فكانت تلك القشة الأخيرة والحجة لمجموعة من المسلمين الذين شعروا بتدنيس المقدسات عند إخضاع كلمة الله للدبلوماسية، وسميت تلك المجموعة بالخوارج الذين حشدوا جيشاً ضد علي بعد عام، فاز علي بالمعركة ولكنه خسر الحرب، بعد ثلاث سنوات عندما كان علي يدخل المسجد، قفز أحد الخوارج المتعصبين من مخبئه وغمد خنجراً في جسد الخليفة[1] فقتله على الفور[2].

تحول ولاء أتباع علي إلى ابنه الحسن ولكن دون جدوى، وتنازل

(1) قفز أحد الخوارج المتعصبين من مخبئه فضربه بالسيف فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه (تاريخ الخلفاء).

(2) أقام علي الجمعة والسبت وتوفي ليلة الأحد (تاريخ الخلفاء).

عن الخلافة مقابل مبلغ من المال وذهب إلى المدينة فيما أصبح معاوية أول خليفة في سلسلة بني أُمية. لقد تحطمت السلالة الوثيقة من الخلفاء الراشدين– وهم أقرباء النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبعد سنوات من الحروب الدامية تحول الإسلام من أيدي المرشدين الروحيين إلى حكام دنيويين، لقد ترك مقتل الإمام علي جراحاً لن تلتئم أبداً، أدى إلى انشقاقات عنيفة ومتزايدة هزت الإسلام والعالم على حد سواء.

تعد فترة حكم الخلفاء الراشدين بالنسبة للمسلمين اليوم حقبة من الطهارة الروحية أقرب إلى عصر الرسولين عند المسيحية، ربما هو الحنين والاشتياق إلى الماضي البطولي الذي يمكن أن يتفوق على الحاضر الباهت، ولكن ثمة شيئاً واحداً مؤكداً وهو أن الأمور لم تكن أبداً نفسها بعد تولي معاوية للخلافة.

بعد أن انتقلت العاصمة الأموية من مكة إلى دمشق، فقد الإسلام مركزه الروحي والسياسي في الجزيرة العربية، ومن الآن فصاعداً، فإن القوة الدولية الجديدة أصبحت عالمية بصورة متزايدة ومتعددة الأعراق. كان الإسلام على وشك أن يصبح إمبراطورية.

الفتوحات

بعد عام من وفاة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) غزا جيش كبير من مقاتلي المسلمين الإمبراطورية الساسانية في إيران، لم يكن قائدهم خالد بن الوليد رجلاً يرغب في اللغو والمماطلة، ففي رسالة موجزة

للإيرانيين دعاهم إما أن يصبحوا مسلمين أو أن يدفعوا الجزية، وهي ضريبة فرضت على رعايا الدولة من غير المسلمين، وإذا رفضوا أياً من العرضين. أكد خالد في خطاب قائلاً: «وإن أبيتم جئناكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر».

لم يصدهم أحد، في خلال قرن واحد استطاع المسلمون أن يفعلوا ما لم تستطع فعله روما، فقد احتلوا العالم المتحضر بأكمله، كان صوت الآذان يسمع من إسبانيا إلى الهند، وفي عام 732، بالضبط بعد مئة عام من وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) اشتبك المسلمون مع الفرنجة في بواتيه.

كان خالد بن الوليد من أعظم قواد المسلمين، قاد الغزوات الأولى في الشرق الأدنى، ومن تصاريف القدر أنه كان الشخصَ نفسهَ الذي قاتل النبي في غزوة أحد، وكان على وشك أن يقتله، أما الآن وقد اعتنق الإسلام وهز عرش مملكتين عظيمتين وهي البيزنطية والساسانية الفارسية من أساسها وفتح الطريق أمام إمبراطورية جديدة، أعظم من أي إمبراطورية أخرى في العالم على الإطلاق.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تركع فيها الإمبراطوريات لغزاتها، فقد نهب روما كل من الفسكوتيين والاستروغوث والفالنداليين وأدخلت قبائل الهن والفايكنج أوروبا في دياجير الظلمات، ولكن هذه المجموعات الغازية لم تترك أثراً دائماً وحقيقياً على المجتمعات التي غزوها ونهبوها، وبدلاً من ذلك اندمجوا في الحضارة المسيحية في روما

وأصبحوا مواطنين على الفور.

كان المسلمون مختلفين، كان يسندهم وحي من الله، وهي عقيدة هزمت كل العقائد الأخرى. الهداية (اعتناق الدين الجديد) كان شغل المسلمين الشاغل، رغم أن الهداية لم تكن تنجز بالدماثة أو اللطافة، لم يكن المسلمون راغبين في الذوبان في تلك المجتمعات، منذ أن نزلت كلمة الله إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) باللغة العربية، أصبحت اللغة نفسها مقدسة، وبدلاً من أن يتعلم العرب اللغة اليونانية أو الفارسية أو اللاتينية حرصوا على أن تكون اللغة العربية لغة العالم، وهي لغة الحضارة التي استمرت ستمئة سنة قادمة.

كانت جيوش القائد خالد بن الوليد على أهبة الاستعداد وفي المكان المناسب وفي الوقت المناسب، لقد ضعفت الإمبراطورية البيزنطية والفارسية العظيمين جراء عقود من الحرب، وكما هي الحال مع كل الإمبراطوريات، فإن الشعوب المحتلة بدأت تنفض عن كاهلها قيود المستعمر، كان البيزنطيون الأرثذوكس يعدون المسيحيون اليعاقبة والأقباط كفرة، وعندما حاصر خالد بن الوليد دمشق عام 635، تآمر المسيحيون العرب من الداخل وآزروه ضد أسيادهم الارثودكسيين، وعندما دُحر البيزنطيون وطردوا، استقبلت الجماهير جيوش المسلمين بحرارة. على الرغم من كونهم مسيحيين كان للسوريين أمور كثيرة يشتركون فيها مع إخوانهم العرب أكثر بكثير من الإغريق المتعجرفين في القسطنطينية.

بعد ذلك بعام في معركة اليرموك، وهو رافد من شرق الأردن، واجهت جيوش خالد بن الوليد جيشاً بيزنطياً مكوناً من خمسين ألف[1] رجل بقيادة ثيودور وهو أخ الإمبراطور، استطاع خالد بن الوليد أن يناور الإغريق إلى منطقة ضيقة بين جدولين، هناك أصابهم العمى من الرياح الرملية التي تعصف بصورة متقطعة، كان صوت نداء «الله أكبر» أكبر حافز للمسلمين للقتال الذين ذبحوا أعداءهم وقادوهم نحو قاع الجداول، لم ينج أحد منهم، وقال الإمبراطور متفجعاً على خسارته: «وداعاً يا سوريا، ويا لها من دولة رائعة لأعدائي»[2].

في نهاية المطاف أصبح الخليفة عمر غيوراً من شعبية خالد بن الوليد ونجاحه. فاستدعاه وأعاده إلى المدينة وجرد القائد العظيم من منصبه، وتركه يموت مغموراً في عام 642 م.

إن إرث خالد بن الوليد دام أكثر من شهرته. والآن بعد أكثر من أربعة عشر قرناً من وفاته لا تزال راية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ترفرف على الأراضي التي فتحها هو وجيوشه، في حين أن المسيحية الكاثوليكية، التي كانت قوة روحية في ذلك الزمن فقدت بريقها في الكثير من البلدان الأوروبية.

(1) أزيد من مئة ألف (العبر).

(2) السلام عليك يا سوريا، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبداً إلا خائفاً حتى يولد المولود المشؤوم، ويا ليتها لا يولد!» (الكامل في التاريخ).

تفككت وحدات الجيش القبلية تحت قيادة معاوية وأعيد تنظيمها لتصبح حديثة، أي وفق النموذج البيزنطي، ولم يعد هذا الجيش يشبه مقاتلي الصحراء غير المنضبطين الذين انتصروا في غزوة بدر، فمقاتلو هذا الجيش الجديد كانوا أكثر انضباطاً، وذوي رواتب جيدة، ويتبعون تسلسل القيادة الصارم، عندما أصبح معاوية والي سوريا أسس مصانع لبناء السفن على سواحل البحر الأبيض المتوسط وسماها «دار الصناعة» وهي المفردة التي دخلت إلى اللغة الانجليزية arsenal، وعندما أدرك قيمتها الاستراتيجية أشرف بنفسه على بناء أول أسطول بحري إسلامي وأعلن نفسه «أمير البحار»، واللفظة التي صاغها تظهر لاحقاً في أوروبا حيث تتغير إلى مفردة أدميرال admiral، على الرغم من تعطش معاوية للسلطة فإن عهده شهد أطول مدة من السلام الداخلي أكثر من أي خليفة آخر، وعندما انتقد على بذخه وإنفاقه أجاب قائلاً: «إن الحرب تكلف أكثر».

إلا أن ذلك لم يمنع جيوش المسلمين من نقل رسالتهم إلى بلاد بيزنطة وشمال إفريقيا، وحاصر المسلمون في عهد معاوية مدينة القسطنطينية تسعة أعوام، وقد أخفق الحصار نتيجة لاختراع بيزنطي يسمى «بالنار الإغريقية» وهو شكل من أشكال النابالم البدائي.

وبينما صمدت العاصمة الإغريقية، كانت الممتلكات البيزنطية في شمال إفريقيا تسقط في يد المسلمين الواحدة تلو الأخرى، سقطت

مصر أولاً، حيث أسس الغزاة مدينة جديدة تسمى القاهرة، ومنها تقدموا نحو تونس إلى أن أوقف تقدمهم على يد البرابرة وهم السكان الأصليون.

بعد وفاة معاوية خلفه ابنه يزيد على زمام الحكم، لقد أصبحت الملكية رسمية الآن عند العرب وأصبح لديهم ملكٌ، ولم يرقْ هذا الواقع السياسي لكثير من الناس، فلم يكن يزيد كأبيه رجل دولة أو ضابطاً، فمحاصرته للقسطنطينية لم تكسبه أي مجد، وكان حبه للملذات الجسدية والخمر أمراً منفراً للمؤمنين، تعاظمت الانشقاقات والمعارضة حتى تم اختيار بطل ليقهر يزيد. وكان ذلك البطل هو الحسين، ابن علي وحفيد النبي محمد (صلى الله عليه وسلم).

عاش الحسين بهدوء وسكينة في المدينة، وقد جمع حوله حشداً من المؤمنين المخلصين الذين كانوا يجلونه كإمامهم وخليفتهم في المستقبل، والآن رفض مبايعة وريث معاوية وانطلق عبر الصحراء العراقية لمواجهته.

وبعد مدة قصيرة من بدء رحلته جاءه التحذير من ابن والي العراق ويدعى عبيد الله الذي كان ينتظر لسحق أي انتفاضة تمر بطريقه، وحالما سمع جنود الحسين من البدو الخبر هربوا نحو الصحراء، تاركين الحسين مع سبعين رجلاً فقط.

لم يبالِ الإمام بذلك، واستمر في رحلته وهو يتوقع ثورة شعبية عارمة عندما يصل الكوفة، لكن لم تسنح له الفرصة لاختبار نظريته،

فقد هجمت عليه قوات عبيد الله في معسكره في كربلاء، رفض الحسين ورجاله الاستسلام، وقاتلوا حتى الموت، قامت القوات الساحقة لبني أمية بذبحهم من دون رحمة، قُتل ابن أخ الحسين البالغ عشر سنوات من العمر بين ذراعيه، ثم قضوا على إخوته وأبنائه، وأخيراً سقط الحسين أيضاً.

ولم يمس جيش عبيد الله الأطفال والنساء، ولكنهم قطعوا رؤوس المقاتلين، وعندما وضعوا رأس الحسين عند قدمي الوالي صرخ أحدهم قائلاً: «هونوا عليكم، لقد رأيت شفاه رسول الله تلثم هذا الوجه!».

كانت تلك أخبار مروعة للأمة بأسرها. حاول يزيد أن يغسل يديه من دم الحسين، ولكن ذكرى المذبحة في كربلاء سوف يتردد صداها عبر القرون، خلقت شهيداً لطائفة من الإسلام تعرف بالشيعة (لمعرفة المزيد عن الشيعة انظر الفصل السابع). سرعان ما احتضنت الطائفة الجديدة العديد من المنبوذين في الإمبراطورية، ومن ضمنهم الذين ينتمون إلى أصول غير عربية كالفرس، لقد استاء الفرس من العرب المستبدين والأميين بسبب تفاخرهم بتراثهم الثقافي والسياسي العظيمين واعتنقوا التشيّع، جنباً إلى جنب مع غيرهم من العرب الساخطين، واتحدوا عام 747 م مع أحد أقارب محمد البعيدين للإطاحة ببني أمية.

الثورة العباسية

كان أبو العباس أحد أحفاد ابن عم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)

ويعرف بالسفاح، جمع أبو العباس أعداء النظام الأموي تحت رايته السوداء، بدعوى أن الأمويين علمانيون ومغتصبو الحكم، وليست لهم سلطة روحية، وتعهد بإعادة الخلافة والإسلام نفسه استناداً إلى رؤية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الأصلية.

كان الموالي، وهم غير العرب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، هم من أشد مؤيديه وقد تحدوا نظام العرب في التمييز في المساجد والأسواق مسترشدين بأقوال الرسول بأن المسلمين إخوة، وقد أجبر الفرس والسوريون والبربر والآخرون على دفع الجزية فيما عُفي العرب منها، لم يحق الزواج من العربيات، ولم يسمح لهم الخدمة في الرتب العليا في الجيش، خاصة الفرسان، تضخم عدد هذه الطبقة الدنيا وسرعان ماتفوقوا في العدد على أسيادهم العرب، وقد آن أوان التغيير.

في عام 749 م قام الحاكم المتوقع بالخطوة الأولى في العراق، أُعلن أبو العباس خليفةً على الكوفة، في الموضع الذي لقي الإمام علي فيه مصيره المؤلم، ومن هنا أرسل أبو مسلم الخراساني وهو عبد فارسي سابق، لإثارة الأمور على الحدود، وسرعان ما جمع الخراساني جيشاً أجبر الأمويين إلى التقهقر داخل العراق، بعد ذلك بعام وعلى ضفاف نهر دجلة دُحر آخر خليفة للأمويين ويدعى مروان الثاني، وجيشه المتكون من اثني عشر ألف[1] جندي. فر الخليفة إلى كنيسة[2] ولكن سرعان ما عثروا عليه

(1) بل مئة وعشرون ألف مقاتل (الفخري في الآداب السلطانية) و(الكامل في التاريخ).
(2) إلى قرية من قرى الصعيد اسمها (أبو صير).

وقطع رأسه، وأصاب بقية أفراد الأسرة الأموية مصيراً أسوأ من ذلك، فقد اقتحموا المقابر الملكية في دمشق وحرقوا الجثث حتى أصبحت رماداً.

ولكن الانتقام الأبشع لم يكن قد حان بعد، دعا عبد الله بن علي وهو عم أبي العباس ثمانين[1] رجلاً من العائلة المالكة السابقة إلى وليمة، وتكفل بسلامتهم، وفي منتصف وجبة طعامهم، قاموا بتطويقهم وضربهم بالهراوات وألقوا عليهم أغطية مصنوعة من الجلد على شكل أغطية المناضد، وقام ابن علي والقتلة الذين معه بتناول الطعام على الموتى والمحتضرين من ورثة بني أمية.

كانت السنة 750 م وقد تضرجت أيادي العباسيين بالدماء، ثم تسلموا الحكم خمسة قرون، وعلى الرغم من بدايتهم الوحشية هذه، فقد بدأ العرب والفرس على حد سواء في عاصمتهم الجديدة بغداد رحلة التجريب والابتكار والاكتشاف التي أدت إلى نهضة أوروبا.

---

(1) بل تسعين رجلاً.

الفصل الثاني: بيت الحكمة

كانت المدة هي العصور المظلمة، وكان الفايكنغ يغيرون على السواحل، والطرق التجارية في حالة سيئة، أسس السفاحون وقطاع الطرق نظام الإقطاع واندثرت حكمة الإغريق، في هذه الأثناء على ساحل بحر الشمال أنقذ الرهبان الايرلنديون الحضارة بالحفاظ على ما لديهم من النصوص الكلاسيكية القليلة، في انتظار اللحظة المناسبة لنشرها في قارة أوروبا وبدء عصر النهضة.

وبعد مدة وجيزة، أثناء الحروب الصليبية خلصت أوروبا نفسها من العصور المظلمة من خلال تحرير الأرض المقدسة من المسلمين، وعلى الرغم من أنهم لم ينجحوا في النهاية، فقد تمكن الصليبيون من جلب الكثير من الأشياء الرائعة، شذرات من التعاليم الإغريقية والرومانية التي حفظها المسلمون أو احتضنوها بأمانة في انتظار الورثة الحقيقيين لأفلاطون وأرسطو لكي يطالبوا بتراثهم المفقود، وعندما حقق المسلمون هذه المهمة النبيلة، عادوا إلى خيامهم وجمالهم ونمط حياتهم، في حين مضت أوروبا إلى عصر النهضة والهيمنة على العالم.

الخيال مقابل الواقع

هذه هي الطريقة التي لا تزال تروى بها الحكاية في الغرب بدءاً من الروضة وانتهاءً بالكلية، يذكر نهوض الإسلام لتبرير هذا العدد الكبير

من المسلمين في العالم، وبعد ذلك يتلاشى الإسلام من السجل التاريخي حتى المواجهة بين الفرنجة والمسلمين عام 1090، ويروى نجاح الحملة الصليبية الأولى بكل فخر، في حين أن الإخفاق في الأوقات اللاحقة يروى بطريقة مموهة، ومع فجر عصر النهضة يمكن أن نستنتج بأمانة بأن الأوروبيين تمكنوا من فعل ما لم يستطع المسلمون فعله، حيث حولوا الحكمة اليونانية إلى شيء مفيد.

هذه هي قصة العصور الوسطى التي يتعلمها كل طفل في المدرسة، إنها قصة كيف أن مجد اليونان وعظمة روما فُقدت مدة من الزمن، ومن ثم وجدت مرة أخرى– كيف أن أوروبا تاهت في البداية مدة أربعين عاماً (في الواقع أكثر من ستمئة أو سبعمئة عام) ولكن في النهاية أنقذت نفسها برفض النظرة الخرافية للعالم الذي تعتنقه الكنيسة الكاثوليكية وتبنت الأفكار الإنسانية للفلاسفة اليونان، ما سيفاجئ الملايين من الناس من جميع الأجيال الذين أجبروا على تعلم هذه الرواية للأحداث هو أن ذلك محض خرافة.

في النهاية ماذا يمكن أن يكون أكثر أسطورية من فكرة وجود بطل (أوروبا)، ابن الآلهة (اليونان وروما) واكتشاف حق ولادتها (الحضارة والقوة) بعد أن مرت بالبحث عن ضالتها (الحروب الصليبية) ومحاربة الوحوش المختلفة (المسلمين) الذين ادخروا كنزاً وهو الفلسفة، والعلوم، والرياضيات لقرون عديدة؟ ويمكن لنا أن نقرأ هذا في مؤلفات أو فيدو يابيلنفليد و. ج. ر تولكين ولكن إذا أردت حقاً أن تعدل من

خيالك البطولي فكل ما عليك القيام به هو قراءة كتاب منهج الدراسات الاجتماعية في المدارس.

عند الاطلاع على صفحات كتاب منهجي لمدرسة ثانوية عن الحضارة الغربية (أو ثقافات العالم أو أي تعبير لطيف آخر) يكون من الصعب عليك العثور على ذكر أي مسلم ما عدا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وربما تصادفك أسماء مثل صلاح الدين أو سليمان القانوني، باعتبارهم حكاماً أذكياء، ونعترف على مضض أنهم فعلاً دحروا الغرب من وقت لآخر، ولكن لا يُذكر أي شيء آخر غير ذلك، فلا ذكر لأي عالم أو كاتب أو فنان أو فيلسوف. وباختصار ليس ثمة أيّ إشارة إلى شخص أو أي شيء من شأنه أن يقودك إلى الاعتقاد بأنه كان لدى العالم الإسلامي في أي وقت مضى أية ثقافة تستحق الذكر.

فالحقيقة بخلاف الأسطورة في كثير من الأحيان أمرٌ لا نريد أن نسمع به، وربما كان الشيء الأكثر هرطقة هو أن نقول أن أوروبا تعلمت من الإسلام.

ولكن أوروبا في الحقيقة تعلمت وتتلمذت على يد العلماء المسلمين مدة نصف ألفية، فبالإضافة إلى كون المسلمين شعوباً حفظت العلم واحتضنته، كان المسلمون يمثلون كل تلك الأشياء التي أنكرتها عليهم تلك الكتب المنهجية، فقد كانوا فنانين وشعراء، وفلاسفة وعلماء رياضيات وكيمياء وفلك وفيزياء، باختصار كانوا متحضرين في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتمرغ في الهمجية، كانت الحضارة الإسلامية

هي العظمى من حيث الحجم والتقنية ولم يكن لها مثيل في أي مكان آخر، وبعيداً عن وجود الحضارة الإسلامية في فراغ، فإنها أثّرت بشكل مباشر في أوروبا ككيان ثقافي وقوة علمية وسياسية، وبقدر ما يستنكف البعض من الاعتراف به، فإن العالم الإسلامي هو العملاق الذي بنيت على أكتافه النهضة الأوروبية، وتبدأ القصة في مطلع القرن التاسع.

النهضة الكارولنجية

إن كان ثمة نقطة مضيئة في العصور الوسطى فقد كان ذلك في مدينة آخن، التي تقع في ألمانيا حالياً، كانت عاصمة الإمبراطورية لملك الفرنجة تشارلز العظيم المعروف باسم شارلمان، ويُشتق اسم فرنسا الحديثة من اسم هذه القبيلة علاوة على اسم أول بطل من أبطال هذه الأمة.

غزا شارلمان قبائل السكسون الوثنية في وقت مبكر من حكمه وجعلهم يعتنقون المسيحية بعد حملة وحشية استمرت ثلاث عشرة سنة، ومن هناك التفت إلى الجنوب من مملكته، والتي تقع على حدودها قوة غير مسيحية أخرى على النقيض تماماً من ولاية سكسونيا البربرية وهي الأندلس، مملكة المسلمين في إسبانيا التي حكمها أحفاد الأمويين الوحيدين الذين نجوا من براثن أبي العباس، هنا في المنفى جعلوا شبه جزيرة متخلفة مركزاً للعلم والثقافة (انظر الفصل الخامس).

وعلى غرار العديد من أسلافه كان لدى شارلمان أوهام العظمة لفرض الإنجيل على كل ركن من أركان أوروبا وخارجها، ولحسن حظ

المسلمين لم تسنح له الفرصة لتنصير قرطبة، فقد أنفق معظم وقته في إسبانيا في قتال غيره من الطوائف المسيحية، في نهاية المطاف، وبعد أن تعب من جهوده التبشيرية، عاد إلى الوطن عبر جبال البيرانيز، وهناك قَطّعَ المسيحيون الباسك جنوده في المؤخرة إلى أشلاء، فأصبحت هذه الهزيمة المهينة أساساً لملحمة عظيمة من القرون الوسطى تدعى «أنشودة رولاند».

خصص شارلمان بعض الوقت لبدايات نهضة ثقافية في آخن، وعندما كان لا يشارك في أي من حملاته العسكرية التي بلغ عددها ستين، اختار رجل دين إنجليزياً اسمه الكيون للإشراف على هذه المهمة، وأسس الراهب المغامر مدرسة للقصر حيث كان بإمكان طبقة النبلاء من الفرنجة تذوق الأصول الأولى للثقافة التقليدية، ثم جلب العلماء من أيرلندا وإيطاليا وإسبانيا المسيحية، وسرعان ما ألهمت هذه المدرسة تلاميذها بحماسة شديدة بحيث سميت آخن بـ «أثينا الثانية» أو «روما الثانية» اعتماداً على رغبة المرء في المغالاة والمبالغة.

وللأسف لم يكن هناك الكثير من الحكمة اليونانية أو الرومانية متوافرة، لم تكن الأعمال العلمية من اليونان القديمة متاحة في الترجمات اللاتينية، ولم يكن هناك أحد باستطاعته قراءة الأصول اليونانية فعلاً.

وكل ما تبقى كان أكثره من الأدب الروماني وتاريخه، وبفضل الكارولنجنيين فإن كتابات يوليوس قيصر وتاكتس وغيرهما ترجمت وخرجت إلى النور.

بعد نفض الغبار عن التراث الأوروبي الروماني بدأ الرهبان بنسخ الأعمال ونشرها، لقد كانت عملية فنية مرهقة، فبعد سلخ الحيوانات لاستخدام جلدها للكتابة، كان على الرهبان كتابة الأصل بعناية فائقة، كلمة كلمة، بالنمط الجديد للكتابة بخط اليد، وهو الخط الكارولنجي صغير الحجم، ثم تسلم المخطوطة إلى المزخرف وهو فنان يبدع رسوماً جميلة بعد أن يطلق العنان لمخيلته.

كان الكارولنجيون المسؤولين في المقام الأول عن الحفاظ على المعرفة العالمية للأدب الروماني وكذلك ابتداع طريقة جديدة لزخرفة المخطوطات، وإذا أخذنا بعين الاعتبار الزمان والمكان فإن ذلك كان إنجازاً لا يستهان به، ولكن هل كانت تلك نهضة فعلية؟ وولادة الفكر الفلسفي والعلمي؟

قبل بضع سنوات نُشر كتاب تحت عنوان «كيف أنقذ الأيرلنديون الحضارة؟»، ويزعم المؤلف بأن الأيرلنديين حافظوا على النصوص الرومانية في الوقت الذي كان فيه الفايكنغ يحرقون المكتبات في أوروبا، بعد أن استقر البرابرة عاد الأيرلنديون إلى أحضان الرهبان الكارولنجيين الذين رحبوا بهم، مشيعين أجواء البهجة والشعر الروماني، وبفضل هؤلاء الرجال الدؤوبين أعاد الغرب اكتشاف تراثه الكلاسيكي ثانية، فأصبحت الطريق ممهدة أمام ليوناردو وكوبرنيكس.

إنها قصة جميلة ولكن مع الأسف فإن التاريخ ليس بهذه البساطة، فعدد قليل من المخطوطات المزخرفة الجميلة لا تصنع حضارة، وربما

يتساءل المرء: عندما أعيدت الحضارة إلى الفرنجة لماذا لم يفعلوا شيئاً بها؟ لأن الحقيقة البسيطة هي أن أوروبا بقيت في سبات الإقطاعية لأربعمئة سنة قادمة، ثم لماذا حدثت النهضة؟ لماذا لم تكن هناك أيّ اكتشافات علمية أو رياضية في عهد شارلمان حتى القرن الخامس عشر؟ لماذا لم يستخدم الأوروبيون هذا الكنز الضخم الذي حفظه لهم الايرلنديون والكارولنجيون؟ إن الجواب ببساطة هو أن ما تعلمناه عن الحضارة الغربية هو مجرد أسطورة تهدف إلى التستر على تاريخ مخجل من الجهل والخرافات.

ومن اللافت للنظر الطريقة التي تضفي القوى العظمى دوماً شرعيتها عن طريق ربط نفسها بالتاريخ المجيد لشخص آخر أو حضارة أو ثقافة أخرى، مدعية نسباً مباشراً من الأفضل، وبهذه الطريقة تدّعي أوروبا الانتساب إلى اليونان وروما في أصولها، أما تلك العصور المظلمة فليست إلا مجرد مدة مؤقتة من فقدان الذاكرة لهذا النسب العظيم، والحمد لله تعافت من ذلك بفضل الايرلنديين والرهبان الكارولنجيين، ومن المؤكد بأن الغربيين يودون كثيراً أن يصدقوا هذه الرواية.

إلا أنها أبعد ما تكون عن الحقيقة، فإن ضوء الحكمة اليونانية، وأعمال أفلاطون وأرسطو وأرخميدس وأبقراط لم تنبع من القرون الوسطى، فإن حفظ المعارف لم يتوقف وينهار، بل استمر وتقدم بوتيرة شديدة، كانت النهضة قد حدثت والحضارة لم تكن في حاجة إلى الإنقاذ، كانت قائمة ومزدهرة، وعرف شارلمان بالضبط أين يمكن أن

يعثر عليها، إنها بغداد.

فيل شارلمان

أرسل شارلمان إلى بغداد وفداً عام 797 لإقامة علاقات دبلوماسية مع الخليفة هارون الرشيد، والمعروف لدى الفرنجة بـ « أرون، ملك الفرس». كان هارون الرشيد بلا شك سعيداً لتلقي هذه المجموعة الخسيسة من البرابرة، سيكونون ذا فائدة في مساعدته لإزعاج أكبر خصومه وهما إسبانيا الأموية والبيزنطيون، واستناداً إلى الرواية التي رواها المؤرخ الإفرنجي إينهارد التي يقول فيها إن هارون الرشيد أظهر تقديره واحترامه لشارلمان أكثر من الملوك الآخرين بأن أُغدق عليه الهدايا ببذخ وسخاء، في واقع الأمر، لم يعدهم الخليفة المهيب على الأرجح أكثر من مجموعة من الأشخاص التافهين، وبعد سلسلة من تبادل الهدايا بين الإمبراطوريتين، تلقى شارلمان كنزاً من جوائز الشرق: وهي عطور شرقية، وأقمشة من الحرير وسيوفاً معقوفة مصنوعة من الفولاذ الدمشقي، وساعة ميكانيكية رائعة يخرج منها اثنا عشر فارساً من اللوح الزجاجي الأمامي عندما تدق الساعة.

والهدية الأروع التي قدمتها السفارة العباسية إلى بلاط شارلمان عام 802، وجد مبعوثو هارون الرشيد أنفسهم في آخن، بعد أن شقوا طريقهم عبر البحر الأبيض المتوسط، إلى إيطاليا وعبر جبال الألب، حيث قدموا للإمبراطور الروماني المقدس مشهداً مهيباً ورهيباً[وهو فيل].

سمي الفيل بأبي العباس تيمناً بمؤسس السلالة الحاكمة، فقد أصبح هذا الفيل الأبيض أعجوبة في آخن، بنى له شارلمان منزلاً خاصاً وضخماً يرمز إلى مكانته الرفيعة، بل حتى أخذه معه في حملة عسكرية ضد الدنماركيين، ومن المحزن أنه عندما لقي الملك الدنمركي حتفه، كذلك نفق أبو العباس أيضاً.

لم يستمر شارلمان مدة أطول، حيث توفي عام 814 تاركاً إمبراطورية لتقسم بين أبنائه العديدين، بدؤوا بالقتال، مبشرين باقتراب عهد جديد من الفوضى الاجتماعية والجمود الفكري، ثم خمدت النهضة الكارولنجية مثل شمعة في مهب الريح، ورجعت إلى العصور المظلمة ثانية.

في الظاهر كانت الصلة الأولية بين الشرق والغرب قد أثمرت قليلاً، فالكثير من العلماء ومن ضمنهم إينهارد نظروا إلى هذا التفاعل كإشارة لمكانة شارلمان حتى في الأماكن النائية مثل «المشرق»، ولكن على الرغم من رواية إينهارد المبالغ فيها، بقيت العلاقات بين المملكتين سطحية في ذلك الوقت، وقد لاحظ العالم الإسلامي أول مرة جيرانه الأقل حظاً في الثقافة فقط عندما هاجم الفرنجة القدس بعد ذلك.

وعلى أية حال، وقبل وقت طويل من بدء الحملات الصليبية، كان المسلمون قد أثروا في تغير مسار التاريخ الأوروبي، كان تأثير هارون الرشيد قد امتد إلى أبعد من جثة الفيل والساعة المائية الفاخرة، إن أعظم هدية لجيرانه الهمجيين لم يكن زجاجة عطر، أو سيفاً دمشقياً أو قماشاً

من الحرير الصيني، بل كان ابنه المأمون، الرجل الذي سوف يرسم مسار الثورة العلمية.

عصر المعلومات

بدأ كل شيء في بغداد عام 819. فقد هزم المأمون أخاه غير الشقيق في سعيه من أجل العرش، ففي حين كان والده الخليفة العربي العظيم، كانت والدته وتدعى مراجل [البادعسية] جارية فارسية، وعندما اعتلى المأمون العرش بنى جسراً بين العالمين، وسرعان ما بدأ التراث الغني لبلاد فارس بالظهور بعدما كان كامناً زمناً طويلاً بسبب هيمنة الثقافة العربية، وسمح له بالازدهار مرة أخرى، وتدفقت التجارة البحرية، وازدهرت الصناعة، ونشأت طبقة جديدة من التجار المسلمين الجدد التي جعلت بغداد مركزاً للعالم، والمدينة نفسها، في عبارة يرويها مؤرخ قديم قائلاً « بأنها مغطاة بالحدائق والقصور والمنتزهات الجميلة والأسواق الغنية الكثيرة، والمساجد ذات البناء المتقن والحمامات، فضلاً عن العديد من كليات العلم، والمستشفيات لكلا الجنسين ومصحات للمجانين».

كانت الشوارع تكنس وتغسل، وتجاورها القصور والبيوت المفروشة بالحرير والديباج والمفروشات الصينية والحلي، وفي المرفأ كانت هناك سفن آشورية [كذا] تقف بجوار السفن الشراعية الصينية، تمخر في مياهها آلاف المراكب الصغيرة (الجندولات) تعلوها الأعلام الصغيرة المتراقصة، مثل أشعة الشمس على سطح المياه، وجلبت الهند إلى هذه

المدينة العظيمة معادنها وتوابلها، وجلب من آسيا الوسطى الياقوت ومن الصين الحرير ومن إفريقيا عاجها ومن أوروبا فراؤها، حتى إن تجارة العبيد كانت متعددة الجنسيات، وكان الأفارقة والآسيويون والأوروبيون يعملون تحت سيادة المسلمين، وفي وقت لاحق بعد قرون عديدة عندما حرقت بغداد بالكامل، برهنت الأمة التي تشكلت حديثاً من هؤلاء العبيد أنها ستكون الخلاص ليس للإسلام وحسب ولكن للغرب المسيحي أيضاً.

لم ينغمس المأمون في الملذات على العكس من غيره من الحكام على الرغم من الثروة والعز اللذين تنعم بهما، وكان خياله متأججاً بثورة العقل، وفي السنوات المبكرة من حياته كان المأمون من المبعدين من أروقة السلطة بسبب أصله الفارسي، فقد قضى سنوات تكوين شخصيته المبكرة مع والدته في بلدها مع زمرة من المربين المفسدين، وبعد أن انشغل في التشيع على سبيل الهواية وجد المأمون نفسه في مدرسة جديدة من المفكرين المتطرفين المعروفين بالمعتزلة، فقد قام هؤلاء الأشخاص الذين يتنكرون للمعتقدات والأنظمة المأثورة الجريئون على التشكيك في طبيعة القرآن الكريم ووضعها موضع التساؤل، ووفقاً لهم فإن الكتاب المقدس خلق وهو ليس كتاباً أبدياً، كما يعتقد المسلمون التقليديون، فقد برهن العلم الجديد، وهو المنطق، بأنه الله إن كان قد خلق كل شيء، فمن المؤكد أنه خلق القرآن كذلك.

لقد كان المعتزلة في حيرة من أمرهم حول الآيات القرآنية التي تصف

عقاب الله للأشرار، ويعتقد المسلمون بأن لله معرفة غير محدودة بكل ما يفعله البشر منذ بدء الخليقة، وإذا كان الأمر كذلك، حاور المعتزلة كيف يمكن أن يعاقب الله المذنبين وهو يعلم ما سيحدث قبل وقوعه، هل يصح أن يُحاسَب العباد ويُعاقَبون بإلقائهم في جهنم على أمر لم يكن لديهم نفوذ عليه؟

كان هذا الصراع الأزلي بين القضاء والقدر وبين الإرادة الحرة هو الذي أحدث انقساماً بين علماء الدين المسيحيين قروناً عديدة، وليس من المستغرب أن يكون المسيحيون النسطوريون في سوريا هم أهم من ألهم هؤلاء المتطرفين المسلمين بأن يبدؤوا بهذا التساؤل، بحث المسيحيون عن سبل للدفاع عن عقيدتهم لكونهم أقلية دينية، وكان أقوى سلاح في ترسانتهم يعرف باسم العقل.

وصلت الهيلينية (الثقافة اليونانية القديمة لمثلها العليا) مع الإسكندر الكبير إلى سوريا ولم تغادرها قط، وكما كانت فرنسا وإنجلترا جزءاً من المجال الثقافي الروماني، كذلك كان الأمر مع سوريا التي بقيت في مدار الحضارة الكلاسيكية اليونانية بصورة كاملة، كانت اللغة الإغريقية لغة الصفوة عند المسيحيين السوريين مثلما كانت اللغة اللاتينية بالنسبة إلى الغرب، وكلما اشتبك العرب المسيحيون في نقاش فكري مع العرب المسلمين، استخدموا دوماً أرسطو وأفلوطين وفلاسفة آخرين لتعزيز نقاشاتهم.

ولكن المسيحية إجمالاً لم تكن على علاقة ودية مع الحكمة اليونانية،

وفي الواقع أشعل حشد من الغوغاء المسيحيين قبل قرون عديدة النار في مكتبة الإسكندرية القيمة، وكان الملك المسيحي جستنيان هو الذي أغلق أكاديمية أفلاطون عام 529 وأرسل علماءها مع عُدَدهِم ومقتنياتهم إلى المناطق البعيدة من بلاد الفرس إلى مدرسة جنديسابور، وهؤلاء المنفيون النسطوريون الذين كرههم البيزنطيون الأرثدوكس هم الذين حافظوا على علم اليونان ونقلوه إلى إخوانهم العرب، وكانت هناك مشكلة واحدة فقط وهي أن المسلمين لم يتمكنوا من قراءة اليونانية.

وأدرك المأمون منذ البداية أهمية الفلسفة اليونانية، مَنْ من فلاسفة المعتزلة يمكنه أن يحاجج هذا العقل الغريب والمنطق الرائع ويحاوره؟ ومن منهم يستطيع أن يتصدى لمؤلفات أرسطو مثل « فن الشعر» «والميتافيزيقيا»؟

لم يُضِع الخليفة أي وقت، واستحوذ على مكتبة أبيه عام 830، وأعاد تسميتها ببيت الحكمة، وهنا جمع الخليفة العظيم جيشاً متعدد اللغات من العلماء لأداء مهمتين كبيرتين: وهما البحث عن كل أعمال الإغريق القديمة التي يمكن العثور عليها، ثم ترجمتها إلى اللغة العربية.

وعين المأمونُ المسيحيّ النسطوريّ حنين بن إسحق لقيادة المركز الفكري الجديد، وذهب ابن إسحق إلى بيزنطة، إلى بلاط الإمبراطور هناك، في سعيه الدؤوب من أجل المعرفة اليونانية، وقد وهبه الخليفة وزن كل كتاب ترجمه ذهباً، كان اهتمامه في المقام الأول ترجمة أعمال جالينوس لأنه كان طالب طب سابقاً في جند يسابور، أعظم أطباء العالم

القديم. وكان ابن إسحق أكثر بكثير من مجرد مترجم، كان ابن اسحق أول من كتب كتاباً منهجياً عن طب العيون بالإضافة إلى العديد من المؤلفات الأصلية الأخرى.

استطاع بيت الحكمة بجيشه المكون من تسعين عالماً أن يترجم مجموعة مذهلة من الكتب، ففي أقل من قرن، أثريت الحضارة الإسلامية بأشخاص مثل أرسطو وبطليموس وأفلاطون وأقليدس وجالينوس وأبقراط وأرخميدس وكثيرين غيرهم، وفجأة انتقلت الفلسفة من أيدي الحكام المسيحيين إلى يد المسلمين، وانتعش البحث العلمي والفلسفي في بغداد بشكل هائل، استخدم المسلمون المنطق اليوناني الذي اكتشف مؤخراً لخلق ثورة علمية في كل مجالات المعرفة البشرية، في علم الفلك، والرياضيات والجغرافيا والفلسفة والفيزياء والكيمياء والطب والتاريخ والأدب والزراعة والموسيقى والهندسة والملاحة، وبحلول نهاية القرن التاسع أصبح الإسلام أعظم قوة فكرية شهدها العالم.

كانت الطريقة التي انتقلت بها هذه الأفكار ثورية أيضاً، ففي حين كان الايرلنديون الذين من المفترض أنهم أنقذوا الحضارة مكتوبة على حفنة من جلود الحيوانات، استخدم المسلمون مادة لم تعرفها أوروبا إلا بعد ثلاثة قرون وأكثر، سماها العرب الورق، ولولا الورق الذي عرفه الأوروبيون من المسلمين، لكانت المطبعة التي تمثل نقطة البداية لحركة الإصلاح عاجزة عن تحقيق أي شيء.

حينما اعتقل صيني يعمل صانعاً للورق قرب سمرقند عام 751،

أدرك المسلمون بسرعة المزايا العملية لهذا الاكتشاف المذهل، ففي الوقت الذي بعث فيه هارون الرشيد فيله إلى شارلمان، كانت سجلات بلاطه كلها مكتوبة ليس على ورق البردي أو جلود الحيوانات بل على الورق، وكما استخدم الورق أيضا لكتابة الأرقام، وحتى تحديد المبلغ المستحق من طرف إلى آخر، وفي الوقت الذي كان فيه الأوروبيون يقومون بعمليات مقايضة السلع في الأسواق المحلية، كان المسلمون يكتبون السندات الورقية لشركائهم التجار في مختلف أرجاء الأرض.

وفي الوقت الذي كان الرهبان الايرلنديون يكتنزون مخطوطاتهم بحرص كان لدى سوق الوراقين في إحدى ضواحي بغداد أكثر من مئة محل لبيع الكتب والورق من مختلف الألوان والظلال، وكانت مكتبة النقيم (Nakim) المشهورة تضم أكثر من ألف كتاب مكتوبة كلها على الورق، في حين كانت أعظم الأديرة في أوروبا تفتخر بامتلاكها بضع عشرات من الكتب المكتوبة بورق البرشمان، ولم تكن هذه المكتبات مجرد مخازن بل مراكز ثقافية تشبه مقاهي الوجوديين في الخمسينات، وهنا اجتمع الفلاسفة والشعراء لتبادل الأفكار ولينعموا بشعاع حضارة لا مثيل لها.

في هذه المحلات كان الوراقون ينسخون أي كتاب متوافر مقابل أجر معلوم، ويقومون بنشر الأعمال الأصلية التي يُمليها عليهم مؤلفوها، وقبل إصدار الكتاب كان المؤلف يُمنَح الفرصة ليصحح أخطاءه، حتى إن الكتّاب كانوا يحصلون على عوائد من المحلات التجارية حيث

تباع نتاجاتهم، وعندما كان النشر الإسلامي في أوجه كان عدد العناوين الجديدة التي تنشر في العام الواحد أكثر مما ينشر في دور النشر في مدينة عصرية مثل نيويورك.

وقد وجد الورق طريقه إلى المؤسسات الأخرى أيضاً، وكان التعطش للمعرفة هائلاً بحيث أصبحت مخازن واسعة من الكتب متاحة لمواطني بغداد، ويمكن العثور على هذه المكتبات العامة في جميع المدن الإسلامية الكبرى، وإن كان أكبرها ربما مكتبة «خزائن القوصو» في القاهرة التي احتوت على ما يقرب من مليوني مخطوطة في أربعين غرفة منفصلة.

كانت القاهرة موطناً لابتكار فكري آخر، وهو جامعة الأزهر التي تأسست عام 970. كانت أول جامعة في العالم حيث ينهل الطلبة من المعارف الفلسفية واستوعبت أكبر قدر من أعمال علماء اليونان والفرس والهنود والإسلام في جميع أركان المعرفة، وبعد مرور مدة زمنية لم يلق تدريس الفلسفة في الجامعات قبولاً من لدن المدارس الدينية التقليدية، وقد أسس السُنّة المدارس في الأصل لمحاربة بدع الشيعة، والآن بدأ صراع ديني جديد، حيث أصبحت الجامعات ساحات قتال في الحرب بين العقل النقي والإيمان الخالص.

كان واضحاً جداً رؤية الجانب الذي يدعمه المأمون، ومن خلال إنشاء بيت الحكمة ومساندة المترجمين والعلماء صنع، حسب رأى الكثيرين، العصر الذهبي للإسلام، ومما يدعو للسخرية وخاصة بالنسبة

للاصوليين الإسلاميين هو إنه حينما كان الإسلام في أوج أهميته وتأثره، كان متعدد الثقافات ومجتمعاً علمانياً إلى حد بعيد ويتمتع بقدر كبير من حرية الرأي والفكر.

ولكن كانت هناك حدود لهذه الحرية، ففي الوقت الذي حاولت فيه أوروبا غرس أصولية جامدة من خلال محاكم التفتيش الكاثوليكية الإرهابية، فرض المأمون بصورة قسرية نوعاً مختلفاً جداً من السيطرة على الفكر، فأصدر مرسوماً نص فيه على أنه من الآن فصاعداً يجب أن يقبل كل المواطنين بأن القرآن مخلوق وليس أبدياً، لقد استسلم الحوار العقلاني للإكراه، ولم تكن تلك وسيلة فعالة لتغيير عقول الناس قطُّ، مهما كانت حسنة النية والقصد.

كان وقع المرسوم كبيراً على الناس، وفي وقت قصير نشأت معارضة قوية، وأحد الذين سجنوا كان أحمد بن حنبل، وهو بطل محافظ ولديه مئات الآلاف من المريدين والأتباع. واليوم تعاليمه لها تأثير كبير في الحركة الوهابية، وهي الطائفة الإسلامية المهيمنة في المملكة العربية السعودية.

على الرغم من ردود فعل المحافظين، إلا إن الثورة الفكرية للمأمون لم تكن في حاجة للتعزيز، فمنذ اللحظة التي بدأ حنين بن إسحق عمله في الترجمة بدأ علماء المسلمين القراءة والمنافسة والحوار والمجادلة، وحين استوعبوا استيعاباً دقيقاً منطق العقل عند الإغريق شرعوا في استخدام هذا المنطق بطرق جديدة ومذهلة.

تلك كانت الحضارة الإسلامية في أفضل حالاتها، وليست عالماً متخلفاً من الأصوليين الذين يقفون ضد الحداثة، بل حضارة نابضة بالحياة الفكرية التي لا تكن كراهية للأجانب أو تكون مضادة للعقلانية، وبالأحرى احتضنت كل ما نسميه بالحديث المستنير كالعلم والعقل والتعليم وحتى شكلاً أولياً من أشكال التعددية الثقافية، وعلى الرغم من أنها غضت النظر عن ممارسات غير تنويرية كالرق فإن ذلك لا يمس إنجازها الحضاري، ولو كان عكس ذلك لتوجب علينا أن نلغي إنجازات اليونان وروما بل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة أيضاً.

لم يحفظ الإسلام الحضارة اليونانية في عهد المأمون وحسب، بل تعداه إلى أمر آخر إذ استخدم المسلمون مواهب الإغريق في إبداعات واختراعات جديدة، وهذه الاختراعات بالضبط في جميع فروع الفنون والعلوم التي فتحت الآفاق لجميع الاكتشافات العظيمة التي تلت بعد كل ذلك.

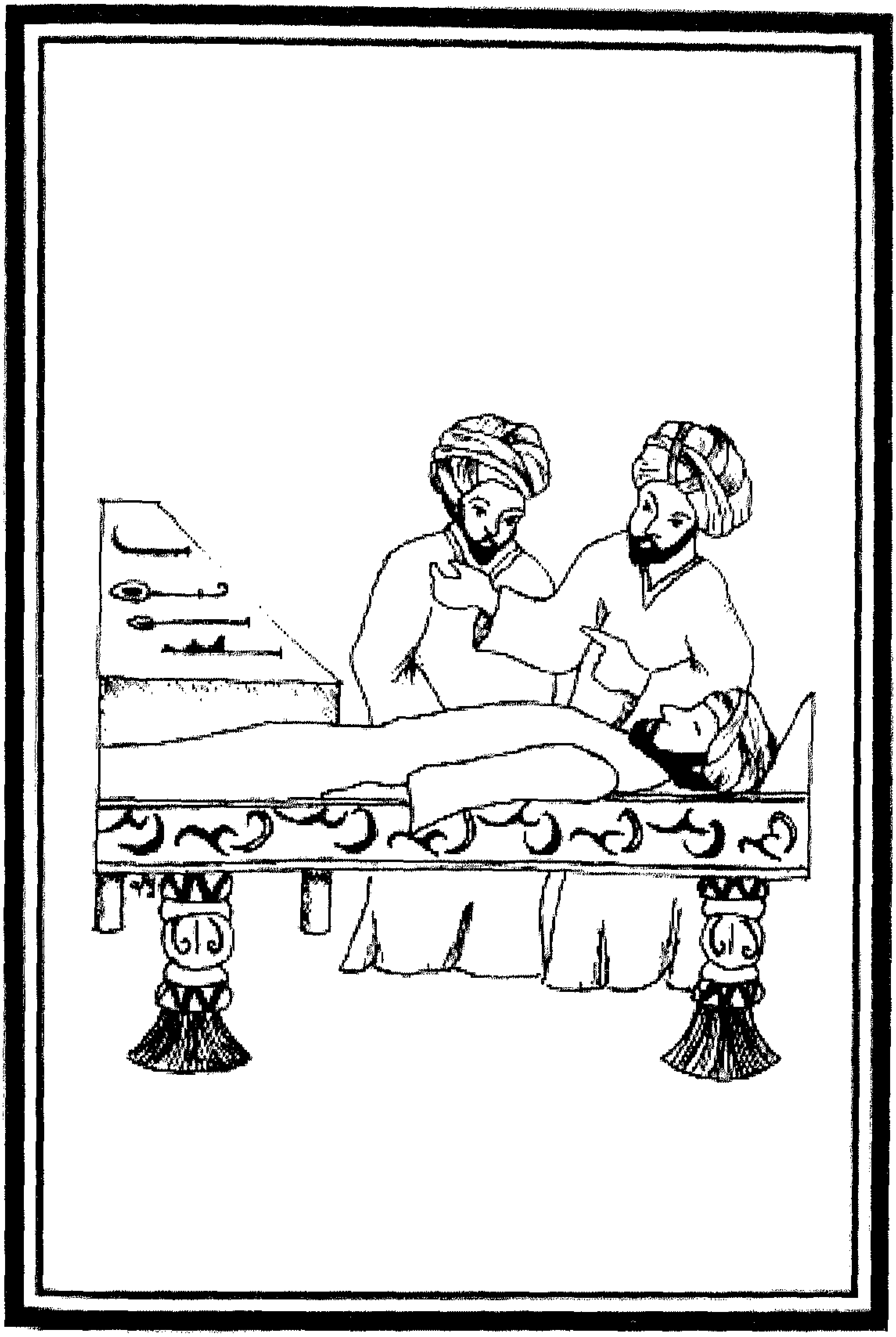

الفصل الثالث : أبقراط يرتدي العمامة

كانت المعرفة الطبية التي نجت من الحقبة الرومانية في أوروبا إبّان العصور الوسطى قد نُسيت إلى حد بعيد، لم تكن ثمة مستشفيات كما نتصورها، فإذا كنت تملك المال من الممكن أن تحصل على خدمات الحلاق (الجراح) وزجاجته المليئة بديدان العلق، وإذا كنت يائساً ومشرداً، فسينتهي بك الأمر في دير يرعاك رهبانٌ ذوو نوايا حسنة، لذلك كرست بعض الأديرة نفسها من أجل الاعتناء بضحايا الأمراض المستعصية مثل حمى القديس أنطوان أو الجذام أو العمى.

ومع ذلك، لم تكن الرعاية تعني شفاء المريض، كان الرهبان الذين يرأفون بحال المرضى مجرد ممرضين لدى الراهب الطبيب، وكانت مهمتهم الرئيسة، مثلما هي دائماً، أن يُصلّوا من أجل الآخرين، يتضرعون لله كي يمنحهم صحة أفضل، أما الجراحة، التي حرّمتها الكنيسة في القرن السابع فلم تكن خياراً متوفراً، كانت «المستشفيات» الرهبانية في الغالب أماكن مناسبة للفقراء كي يموتوا فيها بكرامة وراحة نسبية.

ربما كانت الأمور ستختلف لو أن الملوك المسيحيين استمروا في دعمهم للتعليم اليوناني والروماني، ولكن وقع حدثان مهمان يفصل بينهما مئة عام، جلبا على أوروبا لعنة الجهل الطبي لمدة نصف ألفية من الزمن، كان الحدث الأول إغلاق الإمبراطور البيزنطي زينو لمدرسة

إديسا للطب الأبقراطي في عام 489م. ثم كان الحدث الثاني إغلاق أكاديمية أثينا، التي أسسها أفلاطون بنفسه، كان أعضاء التدريس فيها من الأفلاطونيين الجدد الذين كرسوا وقتهم من أجل البحث الروحاني والفلسفي عن الحقيقة، وهو الأمر الذي مثّل تحدياً لتعاليم الكنيسة، وكان هذا البحث والتحدي تهديداً للأرثوذكسية ولم يكن ممكنا التسامح معه، لذلك قام الإمبراطور جستنيان بإغلاق الأكاديمية في عام 529 م.

مع وضع أنصار المسيحية حداً فعلياً للتعليم الغربي، توجه طلاب العلم إلى الإمبراطورية الأخرى الوحيدة المتاحة وهي بلاد فارس الساسانية، وهناك، في جنديسابور، وضع الأطباء النسطوريون المسيحيون والفلاسفة الأفلاطونيون الجدد أساس الثورة الطبية الإسلامية.

وخلافاً للمفهوم العام، لم «يُضيّع» الأوروبيون التعليم اليوناني فقط، بل استبعدوه بصورةٍ متعمدةٍ بسبب التعصب الديني، بينما رحب به المسلمون بحفاوةٍ، وطوال مئتي عام بعدها، تتلمذ العالم الإسلامي على يد آخر أتباع أفلاطون، وفي الوقت نفسه الذي أتم فيه حنين بن إسحاق ترجمة غالينوس كان المسلمون قد استحوذوا على الطب اليوناني والروماني.

أحدث المسلمون ثورة في الطب بسبب هذا التدفق للتعليم الكلاسيكي، وقبل مجيء الإسلام لم يكن الفرس قد حققوا إنجازات كبيرة في تطوير فن أبقراط وجالينيوس. أما الآن، مع امتزاج العقيدة العربية بالثقافة الفارسية، أصبح الطب أكثر من مجرد فن

وتحول إلى علم مستقل بحد ذاته.

المستشفيات والصيدليات الأولى

إذا تصورنا المستشفى مركزاً لعلاج الأمراض وشفائها في بيئة مريحة ونظيفة فإننا ندين بهذا المفهوم إلى المسلمين، فقد أسس هارون الرشيد في بغداد أول مستشفى على الطراز الحديث، «بيمارستان»، وكان ذلك سنة 805 م.

كان البيمارستان مكاناً مختلفاً تماماً عن ردهات المرضى الرهبانية في أوروبا، لم يكن المرضى يزحفون خارجين منها يائسين، ولا يتوقعون الحصول على غير الشعائر الدينية الأخيرة وعلى دفنٍ لائقٍ، كان المرضى في المستشفيات الإسلامية يتوقعون العلاج الأحدث في المجال - ليس من الله وإنما من طبيب مؤهل، ويتوقعون أن تتحسن حالتهم أيضاً، وهو أمر غير منطقي بالمعايير الأوروبية، في الوقت نفسه كان علم العقاقير علماً متطوراً تطوراً كبيراً في العالم الإسلامي، حيث افتتحت أول صيدلية رسمية في بغداد في القرن التاسع، وفي عهد المأمون، كان الصيادلة مهنيين حاصلين على تدريب عالي المستوى، ويختبرون ويعطون تراخيص للعمل، وتقوم الدولة بالتحقق من تراخيصهم، لقد استحدث الصيادلة العرب أدوية لا تحصى وقدموها للسوق العالمية، من ضمنها جوزة الطيب وعشب الراوند والزئبق والصندل، وفي القرن الثالث احتوى «كتاب الجامع في الأدوية المفردة» الذي ألفه ابن البيطار،

أكثر من ألف وأربعمئة عقار مختلف، وكان ثلاثمئة منها لم تستخدم من قبل قط.

وخلافاً لبعض الأمم الحديثة، استخدم العالم الإسلامي القنب مع إدراك كامل لخواصه المفيدة، وتعلم المسلمون أيضاً تخفيف ما يُعدونه من أدوية باستخدام مقادير صغيرة من السكر المُطعّم بنكهات الفاكهة لتحسين مذاق الأدوية، ولم تَمضِ مدةٌ قصيرةٌ حتى كان العالمُ يتناول عينات من هذه الأنواع من الشراب والمُحليات، والتي كان منشؤها كلها العالم العربي.

أثّر علم الصيدلة الإسلامي حتى في تاريخ مجال الفن الأوروبي، وصارت تجارة العقاقير بين الإسلام والجمهوريات البحرية الإيطالية المسيحية، مثل البندقية، غنية غنىً لا يُصدق، ومع الاهتمام بشراء العقاقير الأوروبية ظهر الاهتمام أيضاً بتغليفها، فقد كانت الأدوية تُشحن بكثرة في جرار خزفية تُسمى الباريلي، حيث صممت هذه الجرار الأسطوانية لتُحفظ فيها السوائل الكثيفة – خاصة المواد الحافظة المصنوعة من الفاكهة– وكانت تستخدم بشكل واسع كأدوية عشبية، كانت هذه الجرار ضيقة عند المركز، وكان الحرفيون يرسمون حول أعناقها وأسفلها تصاميم تصويرية للفاكهة، ربما يجدر بنا لفت انتباه أي شخص يُقدر الأواني الخزفية المزخرفة الإيطالية إلى أنّ تاريخ شكل هذا الفن قد بدأ في الصيدليات الإسلامية.

لم يكن البيمارستان مجرد مكان لوصف الأدوية وشفاء المرضى،

لقد كان مركزاً تعليمياً، حيث من الممكن لعامة الناس أن يذهبوا إلى البيمارستان لتحسين معرفتهم بالصحة وعلم الصحة، وحيث من الممكن لطلبة الطب أن يدرسوا المحاضرات الطبية السريرية. وكان كل مستشفى مجهزاً بطاقم يتكون من مدير مسؤول عن إعطاء فصول دراسية يومية، بينما يقوم عدد كبير من المساعدين بالتعامل مع إدارة المهام اليومية في الردهات المختلفة.

كانت المستشفيات الإسلامية تحتفظ بمكتبات شاملة كما هي الحال في جميع الجامعات الطبية، ففي بغداد ودمشق والقاهرة وجدت أكبر المكتبات الطبية في العالم، كما قام الخليفة الحكم [ابن عبد الرحمن] الثاني في الأندلس في سنة 960 م بتأسيس مكتبة تحتوي آلاف المجلدات مصنوعة من ورق لم يستخدمه الأوروبيون إلا بعد ثلاثة قرون لاحقة، وذلك لرغبته في ألّا يتفوق عليه أحد، ولم يكن الورق يُستخدم لنسخ النصوص فقط، وإنما استخدم في ذلك الوقت أيضاً في شهادات التخرج، التي تصدر فقط بعد اجتياز طلبة الطب العباسيين اختبارات تصادق عليها الدولة.

كانت المستشفيات بحد ذاتها مثالاً للراحة والفعالية، حيث اشتملت على ردهات خاصة للمرضى الجرحى، والمصابين بأمراض ماء العين وضحايا الحمى، وكان الرجال منفصلين عن النساء تبعاً للتعاليم الإسلامية، وكان يعمل فيها ممرضات وطبيبات إناث أيضاً، وخشية أن ينسى أي من وسائل الراحة الحديثة، كانت هذه المستشفيات مكيفة

الهواء بوساطة ينابيع مياه صافية.

بينما في الوقت نفسه في أوروبا، كان الشخص المصاب بقرحة في المعدة يُصلي إلى شفيع ما، آملاً أن يمر عليه الليل بسلام.

الرازي

كرّس أبو بكر الرازي جهوده في الأعوام الثلاثين الأولى من حياته لدراسة مجموعة متنوعة وواسعة من النشاطات الفكرية: الكيمياء القديمة والرياضيات والفلسفة والفيزياء والفلك، استكشف الرازي بعقله النهم كل فرع معرفي فلسفي وعلمي معروف للعالم الإسلامي، بعد ذلك، وبينما كان يُقيم في بغداد، قام بزيارة مستشفاها، وراقب المرضى والجرحى، فارتاع من آلام المرضى وكربهم، مما سبب تحولاً لديه، فقد تلاشت اهتماماته بعلوم الكونيات فجأةً بسبب إدراكه للحاجة الملحة إلى إنهاء المعاناة البشرية.

بعد عدة عقود، في عام 918 م، عيّن الرازي مديراً لمستشفى بغداد حيث التزم بدراسة الطب، وعُرف في ذلك الوقت على أنه أعظم طبيب في العالم حتى حينه.

وُلد الرازي في إيران سنة 854 م، وذهب للدراسة في جامعة جنديسابور، حيث قام باكتساب الحكمة بنهم من ثلاث ثقافات: الفارسية واليونانية والهندية، اطلع الرازي على كل المجالات والعلوم كبقية طلبة العلم في ذلك الوقت، وكان رجلاً نهضوياً حتى قبل أن

يتم ابتكار هذا المصطلح، وبعد الطب، كان شغفه الأعظم بالكيمياء القديمة، العلم السابق للكيمياء الحديثة، الذي أعطى الاسم لهذا العلم، بحثت الكيمياء القديمة في تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب لأنها كانت مزيجاً من علم المعادن والتصوف، ولكنها كانت معنية أيضاً بالتحويل الروحاني، تهمل على الأغلب الاستطلاع العلمي من أجل التفكير الباطني.

لم يكن الرازي، على الرغم من ذلك، يستخدم الروحانيات، وكان يتبع المذهب المادي بإصرار، وكانت كتاباته الفلسفية أحياناً تنكر النبوءة والوحي القرآني، حتى أن أصر في أحد كتبه، «مخاريق الأنبياء»[1]، على أنه لا وجود للمعجزات وأنّ جميع الأنبياء دجالون، وكان يدعي أن الدين مؤذٍ لأنه سبب تعصباً وأثار الحروب التي أثرت تأثيراً سلبياً في العقل البشري.

اعتقد الرازي الذي عد متطرفاً حتى بمعايير هذه الحقبة أن الناس خلقوا متساوين وكان لديهم السبب الطبيعي لإنشاء مجتمع متكامل من دون دين، لذلك، بالنسبة له فإن رعاية الفلسفة أهم من الدين وإنّ الأبقراطيين والإقليديسيين لديهم ما يستحق الاستماع له أكثر من محمد

---

(1) يقول ابن أبي اصيبعة في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)

«كتاب فيما يرومه من إظهار ما يدّعي من عيوب الأولياء، أقول: وهذا الكتاب إن كان قد ألف والله أعلم، فربما أن بعض الأشرار المعادين للرازي قد ألفه ونسبه إليه، ليسيء من يرى ذلك الكتاب أو يسمع به الظن بالرازي وإلا فالرازي اجّل من أن يحاول هذا الأمر وأن يصنف في هذا المعنى، وحتى إن بعض من يذم الرازي بل يكفّره كعلي بن رضوان المصري وغيره يسمون ذلك الكتاب (كتاب الرازي في مخاريق الأنبياء)».

(صلى الله عليه وسلم) والمسيح، وكمنادٍ بالمذهب الذري، اعتقد الرازي أن الكون يتكون من جزيئات خفية خالدة - وهي فكرة كانت مخالفة لما كان يُعلمه القرآن (والإنجيل). ادعى أنه من هذه الذرات جاءت العناصر التي أنجبت الحياة. ، كان الرازي معاصراً سابقاً لعصره من خلال شغفه بما هو علمي أكثر مما هو لاهوتي.

ولم يسلم زملاؤه من العلماء والفلاسفة من تدقيقه، فكان يرى أنه يجب أن توازن أفكارهم مع الأفكار الأخرى، وعلى الرغم من أن بعضهم اعتبر أرسطو هو صاحب الكلمة الأخيرة في فروع العلم جميعها، إلا أنّ الرازي شعر بحرية مكّنتْه من انتقاد الفيلسوف العظيم عندما لم تطابق ملاحظاته نظريات أرسطو، وكانت كتابات غالينوس أيضاً موضع شك عنده إذا ما تعارضت مع البيانات التي يلاحظها.

لذلك فقدت كيمياء الرازي فحواها الروحاني وأصبحت علم الكيمياء الحديثة، بذلك، وبتجريد تجاربه الكيميائية من أي محتوى رمزي، أصبح الرازي عالماً تجريبياً قبل الثورة العلمية، وخلافاً لليونانيين، كان أقل اهتماماً بالنظريات وأكثر اهتماماً بالملاحظة، وهي سمة العلم الحديث، وبذلك لم يكن هنالك شيء أكثر وضوحاً من مقاربته الثورية في الطب.

طُلب من الرازي أثناء إقامته في بغداد أن يختار موقعاً لمستشفى جديد، وكان السكان متحيرين من رؤيته يقوم بتعليق قطع من اللحم في مواضع مختلفة، فقام خلال عدة أيام بمراقبة تعفن اللحم، وأخيراً

اختار المنطقة التي كان التعفن فيها أقل، كان الرازي قد بنى معرفته على تجارب مثل هذه، وليس على كتابات المراجع القديمة.

ويلاحظ أنّ تحليله المنهجي البديع للبيانات الطبية السريرية، قد ساعده على إيجاد تحفة فنية في علم الطب ألا وهو كتاب «الجدري والحصبة»، الذي أُعيدت طباعته أربعين مرة منذ عام 1498 إلى عام 1866 م، وذلك بعد ترجمته الأولى إلى اللاتينية، إضافة إلى ترجمات كثيرة أخرى بلغات حديثة منها الإنجليزية في عام 1848. لقد كان مرجعاً في الجامعات الطبية بشكل واسع حتى القرن الثامن عشر، وذلك بعد ألف عام تقريباً من كتابته، وظل كتاب «الجدري والحصبة» هو الدراسة الطبية السريرية الدقيقة الأولى للأمراض المعدية، حيث قدم فيه الرازي أمراً لم يطرح من قبل، وهو التمييز بين الجدري والحصبة، وتفاصيل أعراض كل منهما، ووصف العلاج، وصولاً إلى تجنب تشكل الندوب، وكانت المسائل التجميلية أيضاً على قدر من الأهمية بالنسبة له تعادل أهمية المسائل العلاجية.

وقد عرف الرازي قوة علم النفس في التأثير على العلاج، ففي إحدى المرات بينما كان يُعالج أميراً طريح الفراش، وضعه الرازي عارياً في مغطس ماء ومن ثم وقف إلى جانبه وأهانه، لم يستغرق الأمر طويلاً حتى قام الأمير العليل واقفاً من الماء، مهدداً بقتله، خرج الرازي مسرعاً، وحالما صفا ذهن الأمير أدرك أن السخرية المهينة سببت له صدمة أعادت له صحته، قام الأمير الذي غمرته الفرحة بإرسال مبلغ من المال مقداره

ألفا دينار ذهبية و«مائتا حمل حمار من الذرة» إلى الطبيب.

ناقش الرازي هذه الأمراض الروحانية والذهنية المزمنة في كتابه «الطب الروحاني» وأعطانا ما يمكن اعتباره أول وصف طبي سريري لتأثيرات التسمم بالكحول في الفصل الرابع عشر، يصف الرازي التأثير النفسي المدمر الذي يعقب الإدمان منتقلاً إلى ما وراء التأثير الجسدي: إن الانغماس المستمر ودوام المتعة يُضعف استمتاعنا بها، وتصبح ضرورة من ضرورات الحياة لا يمكن الاستغناء عنها.

وهذا وصف صحيح للإدمان اليوم كما كان حينها.

عالج الطبيب العظيم أمراض المعدة كما فعل مع الرأس، فقد كان الرازي أحد الأوائل الذين أوصوا بحمية صحية وأكدها أكثر من استخدام العقاقير، وكذلك أكد الاستحمام مع التغذية الجيدة – وهي ليست وصفة صعبة على المسلمين الذين يُطالبهم دينهم بالنظافة. بينما كان الاغتسال عند الأوروبيين محرماً كنسياً، ولم يصبح معروفاً حتى حلول النهضة الأوروبية، عندما اخترقت القيم الإسلامية هذه المجتمعات بقوة.

ومع أن المعرفة الجراحية كانت محدودة في الإسلام بسبب المحظورات القرآنية، إلا أن الرازي تدبر أموره ليخترع طرقاً جديدة لخياطة الجروح، من ضمنها استخدام أمعاء الحيوانات كخيوط جراحية. تتضمن بعض اختراعاته الأخرى الوصف الأول للعصب الحلقي المرتد والراجبة المنفوخة (أو الشوكة المنتفخة «spina ventosa») (مرض في

العظام لدى ضحايا السل)، وأيضاً أدرك أن التورم الذي تتسبب به الديدان كان بسبب طفيليات، نُسب إليه الاستخدام الأول للكحول كمطهر والزئبق كمسهل، والذي أسماه أوروبيو العصور الوسطى «ألبوم الرازي» من باب التشريف له، وكتاباته الأساسية حول أمراض الأطفال جعلته أبا طب الأطفال.

وعلى الرغم من اختراعاته وملاحظاته واكتشافاته المذهلة، إلا أنّ نتاجاته الأدبية هي أساساً ما رسخ سمعة الرازي في أوروبا قرناً تلو الآخر، وقد ألف الرازي أكثر من مئتي كتاب، وكانت أشهر مساهماته في الطب الأوروبي هو كتابه «الحاوي» (الكتاب الشامل). الذي نشر باسمه اللاتيني «Liber Continens»، أصبح كتاب الرازي نصاً أساسيا حينما ترجمه الأطباء اليهود في مملكة صقلية النورمانية في عام 1279. كانت قراءته إلزامية في مدارس الطب الأوروبية خلال الخمسمئة عام اللاحقة، وخلال القرن الرابع عشر، امتلكت كلية باريس تسعة كتب فقط. كان أحدها «كتاب الحاوي»، الذي عدَ كتاباً قيماً للغاية بحيث عندما طلب الملك لويس الحادي عشر استعارته في عام 1371 م، أجبرته الكلية على دفع مبلغ تأمين ضخم!

كان الحاوي هو العمل الأكبر حجماً من بين ما كتب بالعربية، ممثلاً الحاصل الكلي للمعرفة الطبية برمتها، اعتمد في البداية على كتابات أبقراط وجالينوس وبول أيجي وثيودوسيوز البيزنطي وآرون الكاهن وماسارجاوايهي وثابت بن قرة وسوسروتا الهندوسي وعلي الطبري،

أستاذ الرازي. ، كان الحاوي باعتباره خلاصة للطب اليوناني والفارسي والهندوسي عبارة عن وصف لتجارب الرازي وملاحظاته، ومن ضمنها الأقوال المأثورة التي أصبحت شهيرة في أوروبا:

«الحقيقة في الطب غاية لا تدرك، والعلاج بما تنصه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر».

في هذا التصريح الحيوي، يرفض الاعتقاد الأعمى بالمراجع القديمة مفضلاً عليها النزعة الكلاسيكية الجديدة القائمة على الملاحظة والتجربة، ولقد وُلدت هنا، مع الرازي، النزعة الإنسانية العلمية التي ستغير المجتمع الأوروبي للأبد.

بقي الرازي حتى في شيخوخته ضد ما ألِفه الناس واعتادوا عليه، لقد قيل إنه عند نهاية حياته، باع كل ممتلكاته وأعطى المال لأفقر مرضاه، لقد مات مغموراً فقيراً، ولكن في الجهة الأخرى من العالم في الكلية الطبية في جامعة باريس ثمة وجه منحوت من الحجر عند مدخلها. وهي صورة رازيس، وهو الاسم اللاتيني للرازي الذي يُعد أعظم طبيب، في الطب الحديث.

ابن سينا

اسمه أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، عرفه الغرب باسم أفيسينا «Avicenna». كان ابن سينا «أمير الأطباء» أعظم مفكر في عصره ومؤلفاً لأكثر الكتب الدراسية الطبية تأثيراً ونفوذاً.

وُلد ابن سينا في بخارى في عام 980، بدأ حياته الفكرية في سن مبكرة، بعد تعلم علم الحساب من بقال، وأمسك بأي طالب علم مرتحل يمر من البلد، نافذاً إلى كل معرفة يمتلكونها، عندما كان بعمر عشر سنوات كان يتلو القرآن كاملاً من ذاكرته، في أواخر سني مراهقته قرأ كتاب أرسطو «الميتافيزيقيا» (ما بعد الطبيعة) أربعين مرة، حتى حفظ كل كلمة في ذلك العمل العظيم، وعندما تمكن من الوصول إلى مكتبة سلطان بخارى، قرأ ابن سينا أعمال المؤلفين القدامى الذين لم يسمع بهم أحد، وعندما بلغ الثامنة عشر، كان الولد العبقري قد برع في الطب، وكان يقول «إن علم الطب ليس من العلوم الصعبة».

بعد أربع سنوات توفي والده وبدأ ابن سينا مهنته كمحاضرٍ في علم الفلك والمنطق في (جورجور)، قاده اهتمامه في الفلك إلى كتابة «سلامان وأبسال»، وهي على الأغلب أول قصة خيال علمي أصلية، وفي هذه الحكاية، المحفوظة في تعليق للطوسي (أنظر الفصل الرابع)، يقوم البطل برحلة إلى القمر والنجوم ويواجه مجموعة من الحضارات الغريبة[1].

(1) جاء في كتاب «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» لأدورد فنديك في ترجمة حنين بن إسحاق ألعبادي النصراني الطبيب:

«له–أي لحنين– قصة (سلامان وإبسال) ترجمها من اليونانية إلى العربية، طبعت عام 1298 هـ في القسطنطينية مع تسع رسائل لأبن سينا في الحكمة والطبيعيات. أما قصة (سلامان وإبسال) فترجمها إلى الفارسية الشاعر جامي، وجعلها نظماً، وهي رواية عن ملك من ملوك اليونان كان له ابن سماه سلامان، ربته عذراء اسمها ابسال، ولما بلغ سلامان الحلم عشقته، فعاشا سوية يتمتعان بالمنادمة سنة، فأرسل الملك أبوه حكيماً

لم تقتصر كتابات ابن سينا على الفنتازيا، فقد بدأ خلال إقامته في (جورجور) بكتابة « القانون في الطب»، كان هدف كتاب « القانون في الطب» مثله مثل كتاب الرازي « الحاوي»، جمع كل المعرفة الطبية الموجودة، ولكن مثلما أبرز كتاب الرازي عبقريته الطبية السريرية، تميّز «القانون في الطب» بنمط كتابة وتنظيم أكثر شفافية ووضوحاً.

لم يحترم ابن سينا آراء الرازي كثيراً، قائلاً إنه كان يجب عليه أن يلتزم «باختبارات البراز والبول»، لم يكن ابن سينا طبيباً سريرياً عظيماً خلافاً لسلفه، ولم يكن مهتماً بتحدي نظريات جالينوس وأبقراط، كانت الحقيقة المطلقة للتعاليم، سواءً في الطب أو اللاهوت، مريحة أكثر من الحقيقة المبنية على الملاحظة والتجربة الفردية، وكانت أساسيات طب الرازي متطرفة جداً وخاصة بالنسبة للعالم الغربي، والذي كان ما يزال في قبضة الخرافات والجهل، وبذلك أصبح كتاب « القانون في الطب» لابن سينا هو الكتاب المنهجي الطبي الأساسي في أوروبا حتى القرن

لينصحهما وينذرهما، فغادر سلامان وطنه آخذاً أبسال معه، ولما وصلا إلى جزيرة نضرة أقاما فيها مدة. ثم عادا إلى الوطن، وأخيراً عمدا إلى قتل نفسيهما، فأضرما ناراً، ودخلا فيها، فاحترقت أبسال وسلم سلامان، وما زال يندبها إلى أن عرّفه ذلك الحكيم بحورية بديعة الجمال اسمها زهرة فعشقها، وسلي أبسال. والمقصود من هذه القصة المقابلة بين الأفراح الدنيوية وسرورها وغبطة الحياة الآخرة وحبورها، وفضل هذه على تلك، فهي موعظة مع تصوف».

فالقصة كما ترى ليست لابن سينا أصلاً، وإنما طُبعت مع رسائل لابن سينا—وهي لا تتحدث عن الخيال العلمي ولا النجوم ولا القمر. وللأمانة فقد جاء في أبجد العلوم في ترجمة ابن سينا (ورسائله بديعة منها:«رسالة حي بن يقظان» و« رسالة سلامان» و«إبسال) فكأنه جعلهما بالأقواس رسالتين.

السادس عشر وكان يُقرأ في بعض أجزاء من العالم حتى 1800.

ينقسم كتاب «القانون في الطب» إلى ما مجموعه خمسة مجلدات، يُعنى المجد الأول والثاني بعلم الوظائف وعلم الصحة، ويُعنى المجلدان الثالث والرابع بعلاج أمراض مختلفة والخامس هو كتاب الحشائش (أو كتاب الحشائش والأدوية «Materia Medica») والصيدلة، كان مجلده الخامس حول العقاقير ذا أهمية خاصة لمهنة الطب الأوروبية الفتية بإدراجه سبعمئة وستين عقاراً، بعضها موصوف للمرة الأولى، يقترح ابن سينا أن أية أدوية يجب أن تُختبر على الحيوانات والبشر للتأكد من فعاليتها وتحديد آثارها الجانبية الضارة.

كانت لدى ابن سينا ثروته الخاصة من البيانات الطبية السريرية على الرغم من ولائه المطلق للمصادر اليونانية وإيمانه بها، وكان الغرض من الحصول على هذه المعلومات واضحاً عنده:

> لما كان الطب ينظر في بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة والعلم بكل شيء إنما يحصل ويتم إذا كان له أسباب يعلم أسبابه فيجب أن يعرف في الطب أسباب الصحة والمرض. والصحة والمرض وأسبابهما قد يكونان ظاهرين وقد يكونان خفيين لا ينالان بالحس بل بالاستدلال من العوارض فيجب أيضا أن تعرف في الطب العوارض التي تعرض في الصحة والمرض. [من كتاب «القانون في الطب»]

الرسالة واضحة: إن الاعتماد الكامل على المراجع القديمة لم يعد مقبولاً، لقد وصلت الرؤية العالمية العلمية، لقد آمن ابن سينا بفكرة الأخلاط الأربعة ذات المنشأ اليوناني، أي أن عدم التوازن في أربعة سوائل جسدية هو السبب الأساس للمرض - فقد افترض ابن سينا أيضاً نظرية تقول إن الطعام والمياه الملوثة و«الآثار» التي يتركها المرضى في الهواء يمكن أن تؤدي أيضاً إلى العدوى، لقد فهم وظيفة قنوات الدمع والتشخيص الهام لتوسع بؤبؤ العين وتقلصه، وقد أشار ابن سينا أيضاً إلى حقيقة أنه أثناء انتشار الطاعون، كانت الجرذان والفئران تخرج فجأة من جحورها لتموت بأعداد ضخمة، إنها معلومة جزئية كان بوسعها إنقاذ الكثير من الناس بعد بضع مئات من السنوات، في عام 1348 م [عندما انتشر الطاعون في أوروبا].

ترجم «القانون في الطب» أول مرة جيرارد الكريموني وخرج بثلاثين طبعة لاتينية بعد أن صادقت عليه الكنيسة مصادقة رسمية، ومن القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر، كان «القانون» هو المرجع الطبي في جميع أوروبا المسيحية.

والغريب، لم يكن القول المأثور «أيها الطبيب: اشف نفسك!» ينطبق على أحد انطباقاً أفضل من ابن سينا، الذي كان يقضي وقته في الحفلات الماجنة، وقد أملى ابن سينا قسماً كبيراً من كتابه « القانون في الطب» على طلابه أثناء معاقرته الخمر طوال الليل في المواخير المحلية، وعندما

كان يُعاني من صعوبات في الكتابة، كان ابن سينا يلوذ بقارورة الشراب قائلاً: «في الليل، عندما أكون واهناً أو نعساً، أقويّ نفسي بكأس من النبيذ»، على الرغم من أن القرآن حرم شرب الخمر، إلا أن ذلك لم يُزعج ابن سينا أدنى إزعاج.

و في عام 1037، في عمر 57 سنة، كانت ملذاته الجسدية ومعاقرته للخمر قد نالتا من جسده، حيث قام بعض عبيده، بعد أن أدركوا أنه مريض، بإعطائه جرعة من الأفيون وفروا هاربين بماله، بعد وقت قصير من ذلك انهار، فقد أنهك إدمان الخمر جسده بالكامل [1].

---

(1) هذا ما عثرنا عليه في المصادر العربية عن الأيام الأخيرة من حياة ابن سينا

وكان ابن سينا كما أخبر عن نفسه قال:

أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد ولا رب خالق ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى وكان هؤلاء زنادقة يتسترون بالرفض ويبطنون الإلحاد المحض وينتسبون إلى أهل بيت الرسول وهو وأهل بيته براء منهم نسباً وديناً. (إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان)

ولما اضطربت أمور الدولة الساسانية خرج أبو علي من بخارى إلى كركانج، وهي قصبة خوارزم. (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)

ضعف جداً وأشرفت قوته على السقوط، فأهمل المداواة وقال: المدبر الذي في بدني قد عجز عن تدبيره فلا تنفعني المعالجة، ثم اغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء، ورد المظالم على من عرفه وأعتق مماليكه وجعل يختم في كل ثلاثة أيام ختمة، ثم مات في التاريخ الذي يأتي في آخر ترجمته إن شاء الله تعالى. (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)

وذكره تاج الدين محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتاب الملل والنحل لما سرد أسامي فلاسفة الإسلام فقال: وعلامة القوم أبو علي ابن سينا، كان طريقته أدق، ونظره في الحقائق أغوص، وكل الصيد في جوف الفرا.

وقال ابن أبي الحموي الفقيه الشافعي شارح الوسيط في كتابه الملل والنحل:

لم يقم أحد من هؤلاء –يعني فلاسفة الإسلام– مقام أبي نصر الفارابي وأبي علي ابن سينا، وكان أبو علي أقوم الرجلين وأعلمهم إلى أن قال:

كانت شخصية ابن سينا المشاكسة والمتبجحة تختلف اختلافاً عظيماً عن شخصية الرازي المفكر النبيل، ومع ذلك، فقد جعل كلاهما الطب أعظم هدية قدمها الإسلام إلى العالم الغربي.

صورة خاصة للأبقراطين

في أواخر القرن الرابع عشر، قام رولاند من بارما بنشر كتابه «الجراحة»، والذي يُوثق الوعي المتنامي لعلم الطب في الجزء الجنوبي من إيطاليا، وأكثر ما يميز هذا الكتاب ليس النص فحسب بل صورة واحدة من صوره المفصلة الكثيرة.

تُبين هذه الصورة بعينها مجموعة متنوعة من الإجراءات: اختبار البول وتحضير الأدوات والكي، الخ. وفي بعض اللوحات، كان أبقراط نفسه، الأب اليوناني للطب، هو الموجود في العمل. كيف اختار الفنان المسيحي الايطالي أن يُصور أبقراط، أعظم «الأطباء» الغربيين، والطبيب

وقد اتفق العلماء على أن ابن سينا كان يقول بقدم العالم ونفي المعاد الجسماني ولا ينكر المعاد النفساني، ونقل عنه أنه قال: إن الله لا يعلم الجزئيات بعلم جزئي، بل بعلم كلي. فقطع علماء زمانه ومن بعدهم من الأئمة ممن يعتبر قولهم أصولاً وفروعاً– بكفره وبكفر أبي نصر الفارابي من أجل اعتقاد هذه المسائل وأنها خلاف اعتقاد المسلمين.

ثم قال أبو عبيد الجوزجاني في آخر الجزء الذي جمعه في أخبار ابن سينا:

وكان يعتمد على قوة مزاجه حتى صار أمره إلى أن أخذه القولنج حتى حقن نفسه في يوم ثمان مرات، فظهر به سحج ثم صرع، فنقل إلى أصبهان، واشتد ضعفه، ثم اغتسل وتاب وتصدق، ورد كثيراً من المظالم، ولازم التلاوة، ومات بهمدان في يوم الجمعة في رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمئة وله ثمان وخمسون سنة. (لسان الميزان)

الذي ما زال الأطباء يؤدون قسمه، في رداء عربي، مع عمامة؟

الفصل الرابع: العمل العظيم

العلم، كبقية الأشياء الأخرى في التاريخ الأوروبي، يصبح ذا أهمية فقط عندما يبدأ الأوروبيون بممارسته، وإلا فإنه يعد غير موجود، وأود أن اكشف باكراً حقيقة محرجة وهي أن الأوروبيين كانوا يعرفون القليل عن العلم باستثناء ما علمهم إياه المسلمون.

كان الرهبان عادة يعيدون استخدام جلود الحيوانات للكتابة عليها في العصور الوسطى، وكان أثر الحبر القديم يبقى عادة بعد مسحه. ويسمى هذا بالرق، كان الرق الإسلامي أكثر تميزاً في تاريخ العلم الغربي، ولا تزال تلك التسمية ظاهرة في الأعداد التي نستخدمها والنجوم التي نراها في السماء، ويعزى الفضل إلى المسلمين في ذلك بغضاضة في معظم الكتب التي تبحث في تاريخ العلم.

أدرك هؤلاء العلماء العرب والفرس بسرعة الحكمة اليونانية واستخداماتها العملية التي ورثوها، وقاموا بأكثر من مجرد نسخ هذه النصوص وحفظها، وعن طريق دمجها بمناهج من الهند وبلاد الفرس، رسخوا منهجاً حديثاً وضع أسساً جديدة للعلوم، فابتكارات العلوم الإسلامية مذهلة بحق: وتشمل العدسات المكبرة وهندسة الفراغ، ومن البندول (رقاص الساعة) إلى مصحات المجانين. ولكن أهمّ من ذلك كله إنما هو الرجل الذي علمنا كيف نعد.

ظلت الأرقام الرومانية تستخدم طوال العصور الوسطى في أوروبا، واستند الرومان على الحروف في النظام العددي، مثل الإغريق من قبلهم، الذي كان عبارة عن مجموعة صغيرة نسبياً من الرموز، ويبلغ عددها سبعة رموز، وهي: I, V, X, L, C, D, M وتمثل: 1، 5، 10، 50، 100، 500 and 1000. وبقيت بعض المشكلات على الرغم من بساطتها. فكتابة أعداد كبيرة قد يكون مرهقاً، على سبيل المثال 1938 هو MCMXXXVIII. أما عملية الضرب فكانت أسوأ من ذلك: فإذا ضربنا 57 x 38= 2166 فالنتيجة تصبح: LVII by XXXVIII = MMCLXVI فهذا النظام غير العملي جعل عملية حساب أعداد كبيرة مرهقةً وتستغرق الكثير من الوقت، ترك الحساب بعهدة قلة من المتخصصين الذين كان لديهم الوقت الكافي ليتفرغوا لهذا العلم.

وكانت الحال على هذه الشاكلة حتى انضم محمد بن موسى الخوارزمي إلى بيت الحكمة في أوائل القرن التاسع، وهو عالم فلك عظيم اخترع في وقت مبكر جدولاً لخطوط الطول والعرض لأكثر من ألفي مدينة، ويعد الخوارزمي حتى يومنا هذا واحداً من أكثر العلماء تأثيراً في علم الحساب على الإطلاق، وغيّر كتاب الخوارزمي المهم «حساب التكامل والمعادلات» الرياضيات إلى الأبد.

وإذا كنت تتساءل عن الطريقة، فالسر يكمن في العنوان العربي للكتاب وهو «حساب الجبر والمقابلة»، وما عليك إلا أن تنظر بعين

فاحصة لتجد كلمة إنجليزية مختبئة هناك، وهي كلمة «الجبر» أو ما يسمى بالإنجليزية «الجبرا».

قد لا يكون الخوارزمي مخترع الجبر بالمعنى الحديث، فالفضل في ذلك يعود للهنود الذين كانوا أول من استخدام هذا الفن الحسابي، ولكن الخوارزمي هو الذي قدم الجبر للغرب، كان أسلوبه واضحاً وموثوقاً به حتى أن كتابه أصبح المنهاج الأساسي للرياضيات في أوروبا لمدة أربعمئة سنة.

وسمي الكتاب عندما ترجم إلى اللاتينية بعد ثلاثمئة سنة « Liber Algorisimi»، وجعلت من اسم الخوارزمي اللاتيني كلمة معروفة ومرادفة لعلم الحساب، وكلمتنا الانجليزية «الخوارزمية» (اللوغاريتم) هي تعبير عن تقديرنا لأعظم الرياضيين المسلمين قاطبة.

انبهر الخوارزمي بالرياضيات الهندية، وعندما نظر في قدراتهم الهائلة في النظم الرقمية والعشرية، كتب العديد من الأعمال التي أدخلت الرياضيات الهندية إلى الإسلام، كانت الأعداد سهلة الاستخدام حتى إنها سرعان ما أصبحت شائعة في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وعندما نشر كتابه Liber Algorismi في أوروبا أصبحت الأرقام الهندية تعرف بالأرقام العربية، كهدية من العالم الإسلامي إلى العالم المسيحي.

وأكثر عدد مذهل أظهره العرب لم يكن عدداً على الإطلاق، وهو الصفر. وقام علماء الرياضيات المسلمون بالتعبير عن هذا النقص من الأعداد بنقطة أو دائرة صغيرة، وسموه بـ «السفت»، أي الشيء

الفارغ، كانت هذه الكلمة هي مصدر الكلمة الانجليزية «زيرو» zero وكذلك «الصفر» cipher. وقد حل الصفر الكثير من المشكلات في الرياضيات، كالتعبير عن الفرق بين كميتين متساويتين، علاوة على التدوين المركزي positional notation، وهو نظام لكتابة الأرقام بحيث يكتسب الرقم قيمته من موقعه وقيمته، وأدت هذه الخطوة الجريئة والجديدة في التجريد إلى سمو علم الرياضيات في عصر النهضة.

جوهرة الرياضيات

وكانت أول مساهمة كبرى من المسلمين في العلم هو تطوير الإسطرلاب، وبالاعتماد على معلومات من المصادر اليونانية استكمل العلماء المسلمون الأداة التي أصبحت الآلة الملاحية الرئيسة للقرون السبعة القادمة.

كان الإسطرلاب خريطة معدنية على شكل نجمة، لقياس بعد الشمس والقمر والنجوم وسماها المسلمون «جوهرة الرياضيات». كانت النتيجة النهائية مذهلة وفعالة طوال الوقت، فهو جهاز لتحديد المواقع العالمية، وحساب خطوط العرض بدقة متناهية. وقد أدرك معظم علماء الفلك المسلمين أن الأرض ليست مسطحة واتفقوا على أنها كروية الشكل، وعن طريق تحديد ميلان درجة الأرض ساعد الإسطرلاب علماء الفلك على حساب محيط الأرض وقطرها، وسرعان ما ثبت أن الإسطرلاب أداة لا غنى عنها في مجال علم الفلك والملاحة والمساحة.

عرفت أوروبا عن الإسطرلاب بعد قرابة مئة عام، واكتشف الراهب غيربيرت (الذي أصبح فيما بعد البابا سيلفستر الثاني) عندما كان يدرس في قرطبة الإسلامية منجم الذهب الذي هو علم المسلمين، وبعد عودته للعالم المسيحي كتب «كتاب الإسطرلاب» وجعل جوهرة الرياضيات موضوعاً فكرياً شائعاً.

وأصبح الإسطرلاب رمزاً لتقنية العلوم الحديثة لبضعة قرون، وظهر ما لا يقل عن خمسين أو أربعين عملاً عن الإسطرلاب قبل نهاية القرن السادس عشر، وحتى أن بيتر ابيلارد وهو مفكر بارز سمى ابنه «إسطرلاب» في عام 1118. وظل استخدامه شائعاً بعد مئتي سنة عندما كتب جيفري تشوسر مؤلف كتاب «حكايات كانتربري» أطروحته عن الإسطرلاب، وحتى في وقت متأخر في عام 1492 م استخدم أحد بحارة كولومبوس الإسطرلاب عندما أبحر في المحيط الأزرق ليرسم مسارهم التاريخي.

علم الفلك من الألف إلى الياء

كان المسلمون في العصور الوسطى شأنهم شأن أي شعب في أي وقت مفتونين بالنجوم، وورثوا الأرض التي ولد فيها علم الفلك وقطنوا في منطقة الهلال الخصيب، وأمرهم دينهم بأن يواجهوا مكة المكرمة في صلاتهم، مما شجعهم على الاهتمام بدراسة السماء، كان المسلمون تجاراً، واستعانوا بالنجوم كدليل ليعبروا آمنين الصحارى

القاحلة بقوافلهم والبحار الهائجة بسفنهم.

لم يكن علم الفلك ترفاً فكرياً وحسب، بل كان ضرورة اقتصادية أيضاً.

وبدأت نهضة جديدة لعلم الفلك مع بناء المرصد عام 830 م في بيت الحكمة، وسرعان ما قام المترجمون بالانتهاء من النسخة العربية لما سموه بـ «العمل العظيم» أو «المجسطي» لبطليموس، وهو من أعظم علماء الفلك الإغريق، وعند تلقي الغرب هذا الكتاب بعد مئات السنين عرفوه باسمه العربي «المجسطي».

كان المجسطي بمنزلة الكتاب المقدس في علم الفلك، فقد احتوى على أدق التفاصيل (في ذلك الوقت) في ما يتعلق بحركة النجوم، ومن وقت كتابات بطليموس حتى عصر كوبرنيكوس أصبح نظامه السماوي مسلماً به كالإنجيل، كانت الأرض استناداً إليه في مركز الكون وتدور حولها جميع الأجرام السماوية، كان هناك تمايز بسيط بين الأقمار والكواكب أو النجوم ما عدا التسمية، كانت مجرد أجسام سماوية، بعضها أقرب أو أبعد عن الأرض حسب فصول السنة، ولجهله الواضح بالفراغ الموجود في الفضاء الخارجي، تصور بطليموس بأن الأجرام السماوية مرتبطة بثمانية مجالات عملاقة تدور حول الأرض الثابتة، وعلى الرغم من أن نظرية بطليموس تبدو غريبة بعض الشيء في يومنا هذا، لكنها كانت خطوة كبرى بعيداً عن الاعتقاد بأن النجوم كانت آلهة، فقد انكب المسلمون على عمل بطليموس وسرعان ما بدأوا بكتابة

تعليقاتهم التي تضمنت ملاحظاتهم الخاصة.

وتزامن وصول السندهاتا مع اكتشاف بطليموس، وهي خرائط فلكية جلبها إلى بغداد علماء هنود متنقلون، وعن طريق دمج الحكمة اليونانية والهندية وتأليف الزيج أو جداول لحركة النجوم والكواكب، بدأ المسلمون ينشئون علم الفلك الخاص بهم، كان المسلمون عمليين للغاية، فلم يكونوا مهتمين بنقد نظام بطليموس قدر اهتمامهم بإتقان مخططات للتجار ليستخدموها في حساب المسافة والوقت والمكان، واستمد الغرب من هذه الزيج مفهوم بداية اليوم عند منتصف الليل بدلا من الظهر.

ولكن هذا لا يعني بأن علماء المسلمين أهملوا النظرية الفلكية، في الواقع لم يستغرقوا الكثير من الوقت ليكشفوا عن ثغرات في المجسطي، وأشار أبو عبد الله البتاني إلى أخطاء بطليموس في وصف حركة الكواكب، وعلى عكس اليونانيين، أصر على احتمال حدوث الكسوف الحَلَقي، حيث يبدو الجزء الشمسي المحيط بالقمر مرئياً، وأظهر أيضاً ان الذروة الشمسية (نقطة في الفضاء تبدو ابعد ما يكون عن الأرض) ليست ثابتة كما كان يظن بطليموس، وأدى هذا إلى اكتشاف النقطة القبوية للطاقة الشمسية apsides، هذه النقاط في مدار الأرض حينما تكون الأقرب والأبعد عن الشمس.

كانت كتابات البتاني عن حركة النجوم والكواكب والقمر والشمس قيمة جداً، بحيث اقتبس ونقل عنه بعد ستمئة سنة علماء من

وزن كوبرنيكوس وغاليليو. وكانت الترجمة اللاتينية لكتاباته المهمة Descientia stellarum بمنزلة قراءة إجبارية لكل علماء الفلك الأوروبيين حتى عصر النهضة، واستخدمت كتاباته عن الكسوف والخسوف حتى نهايات القرن الثامن عشر في دراسة حركة القمر.

وتوصل علماء فلك آخرون إلى اكتشافات أخرى مهمة ورائعة، كان عمر الخيام، وهو الأكثر شهرة في الغرب بسبب رباعياته الفلسفية، أول عالم رياضيات يحل المعادلات الرياضية مع الجذور المكعبة، وأول عالم فلك حَسَب طول السنة الشمسية إلى العشرية السادسة (365.242198 يوماً). وكان مخطط البيروني عن محيط الأرض خاطئاً بخمسين ميلاً فقط، وناقش دوران الأرض حول محورها قبل الأوروبيين بقرون، وقاس الجاذبية النوعية لبعض المعادن بشكل صحيح حتى العشرية الثالثة، كما ألف كتاباً عن تاريخ الهند وصمم تقويماً ميكانيكياً.

كوبرنيكوس وعلماء الفلك المسلمين

يروق لمؤرخي الغرب أن ينظروا إلى العلم الحديث على أنه بدأ على يدي كوبرنيكوس وغاليليو، وقد غير هذان الرجلان نظرة أوروبا إلى الكون، قرر كوبرنيكوس وهو رجل دين بولندي أن الأرض ليست ثابتة ولكنها تتحرك حول الشمس بالاعتماد على ما يشار إليه عادة بـ «إعادة اكتشاف العلوم اليونانية»، دعم غاليليو نظرياته بشكل مقنع للغاية حتى إنه وقع في صراع مع الكنيسة الكاثوليكية، التي اعتنقت

فكرة بطليموس القديمة عن الكون، وبدأ صراع العلم مع الدين بشكل جدي، وسرعان ما انتصر العلم، فقد انتصر التقدم على الخرافة! وكانت ثورة كوبرنيكوس مجرد واحدة من المعجزات التي أصبحت ممكنة بسبب احياء علوم الاغريق والرومان.

ولكن هل كان الأمر كله مجرد إعادة للمعرفة الإغريقية والرومانية؟ إن الأمر يبدو كأنه أسطورة من الأساطير مرة أخرى: الصبي ثيسوس، الذي يجهل نسبه، يرفع الصخرة ليكتشف سيف والده ودرعه وصندله. وحين التم شمله بأهله أصبح ثيسوس مستعداً لمحاربة قوى الشر وجلب النور إلى الظلمات، وبالمثل حالما اكتشف كوبرنيكوس جذوره العلمية في أعمال الإغريق، تمكن العلم الغربي من تنشيط نفسه وبدء حركة التنوير.

المشكلة الوحيدة في هذه القصة هو تركها لعضو معين من شجرة العائلة خارج الصورة. [و هذا العضو هو الطوسي].

اسمه نصير الدين الطوسي (1201–1274م). ربما كان أكثر فلكي تأثيراً في القرون الوسطى، كان الطوسي يعمل في البداية مع الحشاشين في قلعة «آلموت»، وعندما دحرها المغول انحاز الطوسي فجأة إليهم، واقنع أرباب عمله الجدد بتمويل بناء مرصد مراغة (الآن في أذربيجان)، وهو أول معهد للبحوث العلمية الحديثة احتوى على مجموعة من الفلكيين العالميين، وأمين مكتبة للإشراف على مجموعة ضخمة من الكتب، ومجموعة من المكائن والآلات عدت آنذاك متقدمة تكنولوجياً.

كان الطوسي رجلاً موسوعياً بحق، موهوباً في الفلسفة واللاهوت والرياضيات والعلوم، والمسؤول عن إحياء أعمال ابن سينا في العالم الإسلامي، ولنفهم دوره في الثورة التي أحدثها كوبرنيكوس يجب أن نلقي نظرة أولاً على ما يسمى بمشكلة خط الاعتدال اللامتمركز.

كان نظام بطليموس أفضل تفسير في ذلك الوقت لما كان يحدث في السماء، وقال إن الكون يعمل بموجب نواميس منطقية– وبسيطة، وجميلة وكاملة، مثل الإغريق من قبله، وتجاهل أسلافه أي ملاحظة تشذ عن هذه القواعد المفترضة، لأنه لا يمكن أن يكون الكون معقداً أو غير كامل، أو ما هو أسوأ من ذلك أن يكون غير عقلاني.

ومع ذلك لم يتجاهل بطليموس تناقضات معينة مثل المدارات غير المنتظمة للكواكب أو حقيقة أن عدد أيام فصلي الخريف والشتاء أقل من فصلي الصيف والربيع، ولو أن الأجسام السماوية تتدحرج مثل عجلة آلة كبيرة، فكيف نفسر شذوذها أو انحرافها إذن؟

وهذا ما توصل إليه: تدور الكواكب في دوائر صغيرة تسمى فلك التدوير، وأفلاك التدوير هذه تدور حول نقاط معينة في دائرة أكبر تحيط بالأرض تسمى القوس، وفي بعض الأحيان يمكن للكواكب أن تدور في نقاط خارج القوس على دائرة تسمى القرص اللامتمركز، وإن لم تستطع هذه أن تفسر حركة الأرض، يمكن للكواكب أن تدور حول القوس، وهي نقطة فرضية في الكون حيث نستطيع أن نرى حركة منتظمة. ولكن هذا يعني ان الأرض لا يمكن أن تكون في منتصف

الكون تماماً بعد ذلك.

وبعد قرون عديدة أدرك علماء الفلك المسلمون في العصور الوسطى أن القوس لا يقدم حلاً لتلك المعضلة، إذن كيف نفسر حركة الكواكب غير المنتظمة؟ استغرق الغربيون حوالي ألف سنة ليكتشفوا ذلك، وبعد تفكير عميق قرر كوبرنيكوس بأن المركز الجديد هو الشمس.

والمدهش بأن كوبرنيكوس لم يكن أول من افترض أن الكون له مركز شمسي، فقد زعم بعض الفلكيين الإغريق بأن الشمس هي المركز ولكن لم يتمكنوا أن يدعموا نظرياتهم بالرياضيات، واستطاع كوبرنيكوس أن يعزز نظرياته بالاستناد إلى رياضيات فلكية معدلة في العصور اللاحقة لبطليموس.

ويرجعنا هذا إلى الطوسي، وإذا عدنا إلى كتب التاريخ التي ترصد الثورة الكوبرنيكوسية، نرى إنهم يعزون فضل اكتشاف الحكمة الإغريقية إلى كوبرنيكوس، استخدم كوبرنيكوس عدة نظريات رياضية كانت غير معروفة عند الإغريق القدماء لأحياء ثورة الفلك، وابتكر أحدها الطوسي قبل ثلاثمئة عام، وفسر كيف أن الحركة الدائرية تولد حركة خطية.

وإذا تحركت دائرة داخل قطر دائرة أخرى بضعف النصف القطري، إذن أي نقطة على الدائرة الأولى تنشأ خطاً مستقيماً (قطر دائرة ثابتة).

وكانت هذه النظرية هي التي فسرت كيف تبدو الكواكب غير

منتظمة بطريقة رياضية (وبذلك فسرت انحراف القوس اللامتمركز) ولكن الكواكب في الحقيقة هي منظومة حول محور يمر في مركزها. وكما يبدو فإن قلب هذا المحور هو الشمس، ولم يستطع كوبرنيكوس إعادة كتابة الفلك من دون النظرية التي عرفت باسم «مزدوجة الطوسي».

وكتب ديك تيريسي حول اكتشاف مخطوطة باللغة العربية تعود إلى ما قبل عام 1350 م وتحفظ عمل الطوسي، والغريب في الأمر أن الرموز الهندسية التي استخدمها الطوسي تطابق الرموز التي استخدمها كوبرنيكوس عند شرحه للنظرية نفسها.

وفي بدايات القرن السادس عشر أصبحت المدينة الايطالية بادوا مركزاً للمعرفة، توفر أعمالاً عربية مترجمة بالإضافة إلى المخطوطات الأصلية أيضاً، وبمحض المصادفة درس نيكولاس كوبرنيكوس في بادوا في الوقت نفسه الذي جلبت فيه بعض الكتابات العربية الفلكية في أوروبا.

وفي الوقت نفسه بدا أن كوبرنيكوس يتعرف على كتابات فلكي مسلم آخر ألا وهو ابن الشاطر (1304–1375). والذي كان أحد سكان دمشق وألف كتاب «نهاية السول في تصحيح الأصول»، حيث خلص النظام البطليموسي من فكرة الاعتدال اللامتمركز العقيمة وأوجد أشكالاً كونية لـحركات الكواكب في خطوط الطول والعرض وكل الخصائص التي يمكن مشاهدتها في حركتها، وعلى الرغم من اعتقاده

بنظرية ميكانيكية سديدة لحركة الأجرام السماوية، فإن الرياضيات التي اعتمد عليها، مثله كمثل الطوسي، كانت الأساس لاستبدال علم يقوم على المركز الشمسي بعلم الفلك القديم ومفاهيم هذا العلم الجديد عن حركة الكواكب والقمر تكاد تكون متطابقة مع مفاهيم كوبرنيكوس.

وحينما نقول إن كوبرنيكوس استخدم رياضيات المسلمين، فإن ذلك لا يعني إنكار انجازاته العظيمة. ولكن منحه الفضل وحده للنهضة «الكوبرنيكوسية» أمر مضلل، فقد كان للقس المسيحي بضعة شركاء مسلمين ساعدوه طوال الطريق.

ابن الهيثم واكتشاف علم البصريات

لا أحد يعرف التاريخ المحدد لاختراع النظارات الطبية، وتدعي معظم الكتب التاريخية أنه حدث في مكان ما في ايطاليا بين 1300 و1350 م. ويعزى الفضل عادة لمخترعين مجهولين من بيزا أو البندقية. ولكن المكان الأكثر منطقية للبحث عن مخترع النظارات هو مصر الفاطمية، التي كانت الشريك التجاري لبيزا والبندقية، وهناك ولد علم البصريات.

ولد أبو علي الحسن بن الهيثم في البصرة عام 965 م. وانتقل الهيثم إلى القاهرة عندما كانت الفاطمية في أوج عزها وقوتها، وأصبح أحد رجال الحاشية في قصر الخليفة، وأمل العالم الشاب بأن يحدث انطباعاً كبيراً فتفاخر أمام الخليفة بأنه سيفعل ما لم يفعله المصريون القدماء – بأن

يروض نهر النيل ويسيطر على فيضانه الذي كان جزءاً من حياة المصريين لآلاف السنين قائلاً [«لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص»]. وقد أعجب الخليفة بطموح الشاب وقدراته الإبداعية وموّل المشروع، متلهفاً لرؤية النتائج.

ثم سافر ابن الهيثم إلى أعلى النهر ورأى الأهرامات، وارتعب لاستخفافه ببراعة هندسة المصريين القدماء، وأدرك أن العباقرة الذين شيدوا الأهرامات لو استطاعوا السيطرة على فيضان النيل لفعلوا، فأصابه الإحباط وتخلى عن المشروع.

ولكن كان هناك مشكلة واحدة، فقد أخذ مبلغاً كبيراً من المال من الخليفة وبدده في مغامرة غير مجدية، لم يكن الخليفة راضياً، ورجع ابن الهيثم إلى القاهرة وهو يخشى على حياته، وكان يعرف ما ينتظره، فقد كان الخليفة الحاكم معروفاً بوحشيته، بل وربما كان مجنوناً (انظر الفصل السابع).

وكانت ثمة طريقة واحدة للهرب من موت شبه مؤكد، فقرر ابن الهيثم التظاهر بالجنون لينجو بجلده، وهكذا كان، وبعد طرده من البلاط، عاش في فقر مدقع يكسب قوت يومه من استنساخ النصوص الرياضية، وبعد عقود لاحقة مات الخليفة وكان الهيثم في الخمسينات من عمره.

خسر ابن الهيثم شبابه ولكن طموحاته الفكرية بقيت معه، وكتب قائلاً بأن الحقيقة تسعى لذاتها، ويمكن إيجادها فقط في مبادئ محسوسة

ذات أشكال منطقية، بينما كان ابن الهيثم يعيش في الظل، وضع نظرية تشبه إلى حد كبير العلم الحديث:قائلاً بأنه يجب على الإنسان الذي يدرس العلم بغية معرفة الحقيقة أن يحول نفسه إلى ناقد معادٍ لكل شيء يدرسه. . . ويجب عليه أن ينقدها من كل النواحي والجوانب، وفي غمرة انهماكه بالنقد فيجب أن يشك في نفسه أيضاً.

وقضى ابن الهيثم كل هذه السنين الضائعة بقراءة كتابات أرسطو وبطليموس بالإضافة إلى الأطروحات العلمية والرياضية التي كان يتلقى أجراً على نسخها إلى علماء أكثر حظاً منه، وكتب الهيثم في كتابه « كتاب المناظر » شكوكه على بطليموس، رافضاً نظرية مركز الأرض في الدوران الكوكبي، وصرح أن بطليموس «افترض ترتيباً لا يمكن وجوده»، وهكذا جعل الملاحظة التي تدركها الحواس تطابق نموذجه «المستحيل»، ولم يكن ابن الهيثم يحاول استيعاب الحكمة الإغريقية فقط، بل كان يتمثلها ويدمجها مع الملاحظات التي تدركها الحواس لإبداع معرفة جديدة، وبالإضافة إلى ذلك أنشأ فرعاً جديداً من العلوم مخصصاً لأسرار البصر.

كان ابن الهيثم مذهولاً بالضوء منذ زمن بعيد، ما الضوء؟ ما البصر؟ هل نشأ الضوء في العين كما ادعى الإغريق؟ رفض ابن الهيثم قبول نظريات القدامى، وعوضاً عن ذلك استند على التجريب، ثم استنتج أن نظرية الإغريق منافية للعقل.

كانت نظريته مختلفة جذرياً، ومما لاحظه ان الضوء ينبعث من الأشياء

القادرة على الإضاءة، وأطلق عليها «الانبعاثات الأولية»، واخترع مفهوماً جديداً هو أن الضوء يتحرك في مسارات مستقيمة أو على هيئة أشعة، وتتحرك أشعة الضوء «على هيئة كرة»، أو بمعنى آخر في كل الاتجاهات.

والأجسام التي تكون في طريق الانبعاثات الأولية للضوء تصدر هي نفسها ضوءاً مثل جزيئات الغبار، والتي أطلق عليها ابن الهيثم «الانبعاثات الثانوية»، والضوء المنبعث من هذه الأجسام يكون أضعف لكونها صدرت من الانبعاثات الأولية، وهذا المفهوم هو المويجات الثانوية الذي «اكتشفه» عالم هولندي اسمه كريستيان هوجينز بعد ستمئة عام. وقد آمن ابن الهيثم بأن الألوان هي نتيجة أجسام ملونة تبعث الضوء، إذن فإن الألوان ليست منفصلة عن الضوء ولا يمكن رؤيتها من دونه، وهي حقيقة أثبتها العلم الحديث.

وكانت طريقة إدراك الضوء موضوعاً آخر، واكتشف ابن الهيثم بأن العين لا تبعث أشعة الضوء بل تعكسها، بل انه ناقش أيضاً فكرة العصب البصري وصلته بالدماغ، وليدعم نظريته قام ابن الهيثم بتجارب لا تعد ولا تحصى، ومن ضمنها انكسار الضوء وطبيعة الظلال والحركة المستقيمة للضوء، وأول دراسة رياضية لمفهوم الحجرة المظلمة في البصريات، وكان الهيثم أول من شرح السبب في ظهور الأجسام السماوية أكبر كلما كانت أقرب إلى الأفق، وقياس انكسار الضوء الجوي، واكتشف نظرية القصور الذاتي قبل إسحاق نيوتن بعدة قرون،

وحاول أن يحسب سرعة الضوء.

وبنى ابن الهيثم مخرطة خاصة لإنشاء عدة عدسات ومرايا منحنية ومقوسة، وذلك من أجل أن يقوم بتجاربه، وعرف الغرب العدسة، وهي اختراع إسلامي عن طريق كتاب «المناظير» لابن الهيثم أو «موسوعة البصريات» كما عرف في عصر النهضة، وسرق هذا العمل أشخاص معروفين مثل دافينشي وكيبلر وكان مرجعاً أساسياً لهذا الموضوع لخمسمئة عام، ولولا العدسات وتجارب ابن الهيثم لما وجد المجهر أو العدسات المكبرة أو المناظير، وناقش عالم البصريات المسلم العظيم هذا طريقة استخدام هذه العدسات لقراءة النصوص بوضوح أكبر.

ومن الممكن أن الإيطاليين اخترعوا النسخة الأصغر وهي النظارة، وعلى الأرجح أن النظارات مثلها كمثل الاختراعات العديدة المفترض أنها أوروبية، تعود في الواقع إلى العلم الإسلامي الذي أنتج عباقرة مثل ابن الهيثم، مخترع علم البصريات.

الحفاظ والاختراع

يزعم العديد من الباحثين أن العلم الإسلامي لم يأت بشيء جديد، فقد استعاروه من الإغريق الذين استعاروه من الهنود، وبدأت الأشياء تحدث بسرعة في أوروبا فقط عندما تسلم الأوروبيون زمام هذه العلوم.

ولكن أن نقول بأن المسلمين «حافظوا على» أو «علقوا» على المعرفة الرياضية والعلمية أو «شرحوها» وحسب، فإننا نرتكب أعظم خطأ

في التاريخ، ألا وهو إخفاء الحقيقة. فقد أنكر الكثيرون على الحضارة الإسلامية أية عبقرية أو أصالة أو أي فكرة فتحت آفاقاً جديدة، وعلى الرغم من ذلك، فما علينا إلا النظر إلى عمل البتاني أو ابن الهيثم أو الكثيرين غيرهم لنكتشف خداع الذات الذي يغلف إحساسنا بمركزية عرقنا وأهميته.

وينظر إلى المسلمين على أنهم أوصياء بالمصادفة على الحكمة الإغريقية ومنحوا هذا الكنز الذي لا يقدر بثمن لورثته الحقيقيين - الأوروبيين - عندما حان الوقت، ولا يمكن للحقيقة أن تكون أكثر تحريفاً من ذلك. وكان المسلمون مسؤولين أكثر من المسيحيين، في الحفاظ على العلم الإغريقي، لا بل قاموا بتحسينه وتعزيزه أيضاً، حيث تجرؤوا على نقد أرسطو وتجاوزوه، كان اختراعهم هو العلم الحديث، وهو أعظم هدية قدمها الإسلام للغرب.

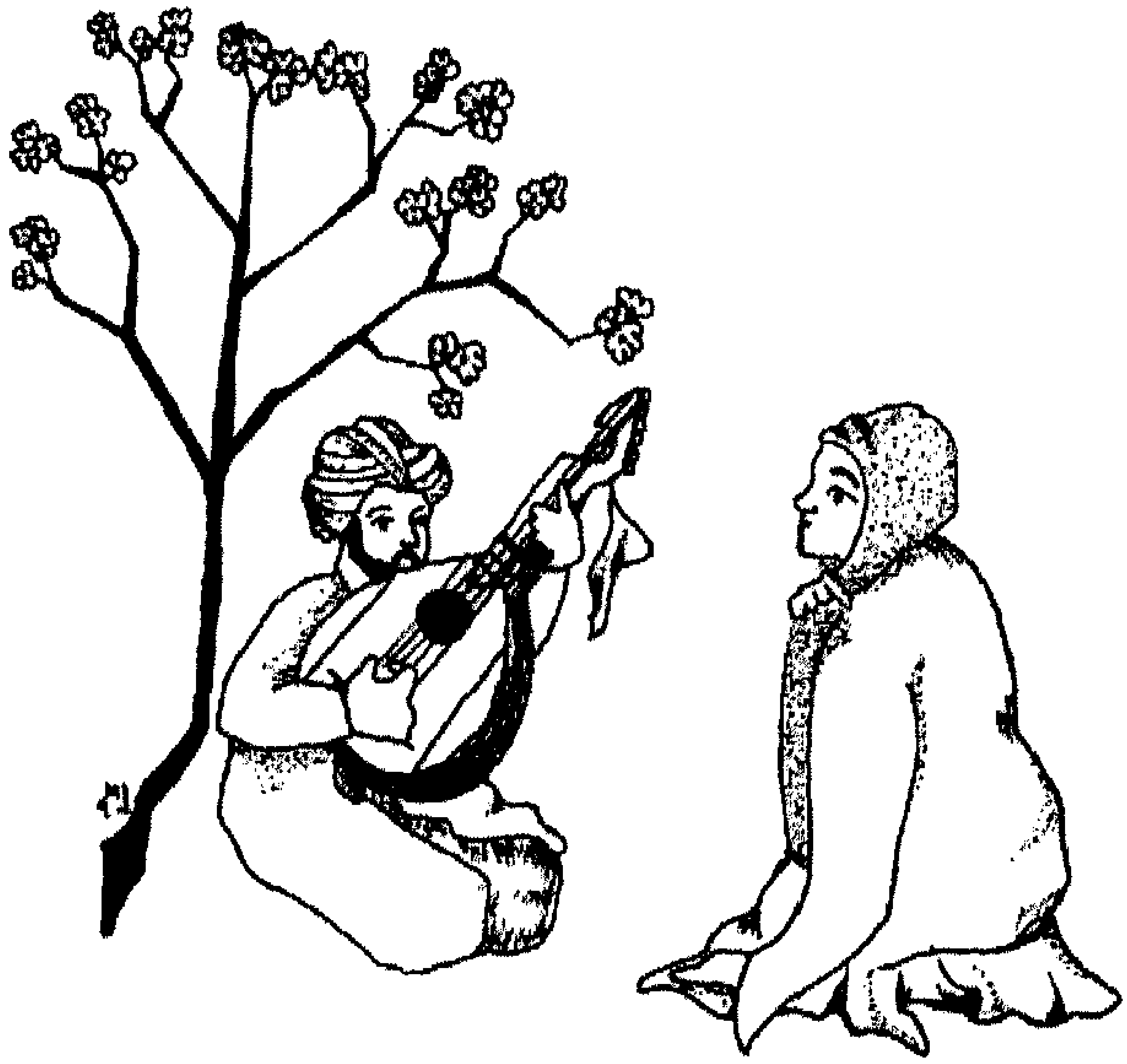

اهتم الأوروبيون في القرن التاسع عشر بكل ما يتعلق بالشرق، فقد وجد فان كوخ إلهامه في الفن الياباني، في حين أن روديارد كبلنغ أنشأ صناعة منزلية من حكايات الهند، ولفترة من الزمن لم يكن هناك مكان أكثر إغراءً من العالم الإسلامي لنطاق واسع من الفنانين والكتاب.

كان هذا مكاناً رائعاً وغريباً أشبه ما يكون بالقصص الخرافية، عاش في مدنه الرائعة ذات المآذن والقبب التي تشبه شكل البصل حكماء وعقلاء غامضون مع عفاريتهم، يمتطي علاء الدين بساط الريح، متمايلاً على الكثبان الرملية التي تغتسل في ضوء القمر الصافي، هناك حريم محجبات بحجاب رقيق، ونساء شهوانيات يتسكعن بطريقة إيحائية، وفي أماكن أخرى، هناك محاربون معممون ووحشيون يشحذون سيوفهم المعقوفة أو يلوحون ببنادقهم وهم يمتطون جمالهم.

إنها أرض الشهوات الحسية، ذات المشاعر القوية والعنيفة، حيث يعيش الرجال والنساء ويموتون على الإيقاعات القديمة، فهو عالم وحشي وجنسي وتهديدي وجذاب: هذا هو عالم « ألف ليلة وليلة» و«الرباعيات».

هو أيضاً بالأساس عالم الملكة فيكتوريا التي عاشت في القرن التاسع عشر الذي يعتمد على التمني وتحقيق الأمنيات، فألف ليلة وليلة ليست وصفاً دقيقاً لمكان أو زمان معينين، بل هي إسقاط لما كان يحلم به

الإمبريالي الأوروبي من إشباع لنزواته الجنسية العنيفة والمنفلتة وغير المقيدة بالقيم والتقاليد الاجتماعية، كان العالم الإسلامي غريباً تماماً عندهم، وأبعد ما يكون عن عالم لندن في عهد الملكة فيكتوريا أو باريس.

وللأسف فإن هذه المظاهر المبهرجة للخيال الأوروبي استمرت بالتغلغل في ثقافتنا، وفي المخيلة الشعبية، ولا يزالُ ينظر إلى العالم الإسلامي على أنه مختلف جوهرياً عن أوروبا وأمريكا، وفنه الموجود كمارد في زجاجة، مغلق ومنحصر في نفسه.

هذه الرؤيا المشوهة لثقافة منيعة وراكدة لمدة قرون تكشف عن واقع أكثر تعقيداً، فالفن الإسلامي بكل أنواعه ليس غريباً على الإطلاق، ولكنه جزء من التراث الثقافي للغرب.

جعل موسيقا «الروك والرول ممكنة»

تعدّ موسيقا الروك واحدة من أكبر الصادرات الثقافية الغربية، ومشهد الموسيقار جيمي هندريكس عندما يشعل النار في غيتاره الكهربائي ويحطمه على المسرح يلخص الإفراط المبالغ والعظيم لموسيقا أصبحت لغة مشتركة للمراهقين، شئنا أم أبينا، لقد أصبح الغيتار رمزاً أمريكياً.

وهو أيضاً اختراع عربي، والكلمة نفسها في اللغة العربية – قيثارة، قدمت إلى أوروبا عن طريق الأندلس، وهي المملكة الإسلامية في إسبانيا،

ولم تكن عاصمتها قرطبة أكثر المدن ترفاً وفخامة في جميع أرجاء أوروبا في العصور الوسطى فقط، بل أيضاً شكلت المحور الثقافي، وكانت بمنزلة «باريس» أو «نيويورك» في وقتها.

كان لدى الأوروبيين آلتان وتريتان فقط قبل قدوم المسلمين، وهما الروتة والقيثارة، ومع قدوم الأمويين المنفيين الذين أسسوا الأندلس، قدم الموسيقيون عدداً من الآلات الموسيقية الجديدة، كان أهمها العود والقيثارة والدف.

وكان العود الذي ارتبط بصوت الموسيقى الأوروبية خلال فترة الملكة إليزابيث الأولى ثورياً في أكثر من طريقة، وعلاوة على الصوت الغريب الذي يصدره العود، كان مزوداً باختراع عربي فارسي غَير طريقة عزف الآلات الموسيقية الوترية وضبطها وهو العَتَب، أو الطوق حول عنق آلة العود، الذي مَكّن العازف من ضبط السلم الموسيقي الفيثاغورسي دون الاعتماد على أذنه كليا، وفتح العود الآفاق لقفزة ثورية أخرى في الموسيقا الأوروبية حيث اخترع المسلمون النوتة الموسيقية التي لا تزال تستخدم حتى يومنا هذا.

كان الإيقاع العربي مختلفاً على نحو جريء مثله مثل العود، طرب الأوروبيون عندما كان المغني المسلم يغني بإيقاع بينما يصاحبه عازف العود بإيقاع آخر، أما التقنية التي برع فيها المسلمون وأحرزوا فيها قصب السبق فكانت تتلخص في أن الصف النغمي يقلده صف لحني ثانٍ يبدأ بعد الأول، وسرعان ما أعجب المسيحيون به وتبنوه.

افتتن الأوروبيون بهذه الموسيقا الجديدة حتى أنهم كانوا يجلبون موسيقيين مسلمين للتسلية في قصورهم، كان لدى عازفي العود والمغنين هؤلاء لباس خاص بهم، يشمل ملابس مبهرجة ووجوه مصبوغة وشعور طويلة، والكلمة الإسبانية «ماسكارا» مشتقة من الكلمة العربية «مسخرة»، ولولا الموسيقيون المسلمون في القرون الوسطى لما وُجِدت الفرق الغنائية الموسيقية الأوروبية.

طائر أسود يغني في جنح الليل

كانت الأندلس لا تزال مملكة متخلفة في عام 820 م، تحكمها سلالة حاكمة من الأمويين الذين فروا من التطهير الدموي في العصر العباسي. ومع ذلك، في غضون قرن، لم تصبح إسبانيا المركز الثقافي لأوروبا وحسب، بل منافسة للخلافة في بغداد. وبدأت عملية التغيير والتحسين مع وصول أبي الحسن علي بن نافع.

ولد علي بن نافع في العصر العباسي في العراق عام 789، وأصبح معروفاً بـ «زرياب» أو «الشحرور»، بسبب بشرته الداكنة أو صوته الرخيم حسب الرواية التي يقرأها المرء، ولا يعرف إن كان أصله إفريقياً أو عربياً أو كردياً، ولكن من المعروف أنه كان موسيقياً في بلاط هارون الرشيد وتلميذ إسحاق الموصلي الذي يعد أشهر موسيقار في بغداد.

بقي زرياب مدة في ظل أستاذه حتى حصل على انطلاقته الكبيرة: استدعاه الخليفة ليعزف له، اصطحب إسحاق تلميذه إلى حضرة الخليفة،

متوقعاً منه عزفاً جيداً يظهر فيه عظمة المعلم لا عظمة تلميذه.

ولم يكن المعلم يعرف بأن زرياب قد أتقن تقنيات أستاذه وتآليفاته. وعلاوة على ذلك، أضاف بعض الابتكارات الخاصة به، رفض زرياب استخدام عود معلمه لأنه كان قد صنع عوداً خاصاً به يتضمن أوتاراً من أمعاء شبل الأسد، بالإضافة إلى وتر خامس جهير من ابتكاره الخاص، وكانت الأصوات التي أنتجها أكثر روعةً، نتيجة لاختياره مخلب أو ريشة نسرٍ بدلاً من الريشة الخشبية التقليدية.

ولو لم يكن زرياب مغنياً وعازفاً مبدعاً لما عنت هذه الابتكارات شيئاً كبيراً، وبدأ يعزف معزوفة من تأليفه، ولا شك بأنها دمجت أسلوب معلمه ثم انطلقت مراحل عدة إلى ما بعد ذلك، طرب الخليفة أيما طرب، وعرض دعمه للشاب الموسيقي الرائع بسخاء.

غضب إسحاق حين رأى أن زرياب سيحل مكانه دون شك في تلقي نعم الخليفة في المستقبل القريب، وأخبر زرياب بأن يغادر بغداد، وإلا فإنه. . .

فهم زرياب تهديد معلمه، وفرّ مع عائلته إلى شمال إفريقيا، متخلياً عن أعظم مدينة في العالم متجهاً إلى منفى بائس أكيد.

وتجدر الإشارة هنا إلى إن هذه الأسطورة الرومانسية قد تكررت كثيراً، وقد يكون أكثر تفسير تاريخي معقول لسفر زرياب من بغداد، هو أن سفره كان له علاقة بصداقته مع الخليفة الأمين ابن هارون الرشيد، وعادة ما تعد هذه الوظيفة أمراً مرغوباً فيه، ولكن في عام 819 م انقلب

المأمون على أخيه الأمين، وبعد الانقلاب، صرح الخليفة الجديد (وهو نفسه الذي أنشأ بيت الحكمة) بأن زرياب والبقية المقربين من الأمين لم يعودوا موضع ترحيب، ومع ذلك فقد كان لزرياب موهبة نادرة في التقرب من الرجال المتنفذين، فقام بإرسال طلب من المغرب إلى حاكم الأندلس. ومن ثم حزم أمتعته ورحل، آملاً بأن تكون حظوظه هناك أفضل.

ولكن فور وصوله علم بموت الخليفة، واستعد بائساً للعودة إلى المحافظين في شمال إفريقيا عندما تدخل القدر، أُعجب موسيقي يهودي بموهبة زرياب في البلاط الملكي، وامتدحه عند الخليفة الجديد، عبد الرحمن الثاني وانبهر الخليفة بهذا الشخص المنفي والمتحضر القادم من بغداد، حتى إنه عرض عليه راتباً سنوياً يبلغ آلاف القطع الذهبية وقصراً، بالإضافة إلى بعض البيوت الريفية.

وعلاوة على ذلك، عرض عليه مكافأة سخية في كل من العيدين وعيد نيروز، وبعد مدة تفكير لم تطل، قبل زرياب العرض وبدأ بضبط عوده.

لقد أصاب زرياب منجماً من الذهب، ولكن لماذا كان الخليفة كريماً جداً؟ لقد اتضح أن آخر الأمويين كان يطمح ببناء إمبراطورية، ومثل العديد من ملوك الطبقة الثانية، كان عبد الرحمن يبحث عن جذب مواهب من الدرجة الأولى ليضفي شهرة على نفسه وعلى بلاطه، وكانت الثقافة والتجارة عاملين ضروريين في خطته لمنافسة العباسيين

في الإخلاص للإسلام.

وسرعان ما أسر زرياب جمهوره الذي سحره بألحانه الجميلة والمعقدة، بعزفه للعود عزفاً كأنما لم يسمعوا عوداً يعزف من قبل قط، وادعت بعض المصادر بأن زرياب حفظ عشرة آلاف أغنية عن ظهر قلب، وفي حين أن هذه مبالغة لا شك فيها، ولكن يبقى واضحاً أن ذخيرته وموسيقاه كانتا استثنائيتين، بل يقولون ربما كانت ملهمة من وحي خارق، وحسب ما قال المقري:

«وذكر أن زرياباً ادّعى أن الجنّ كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، كان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فتأخذان عودهما، ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته، ويكتب الشعر، ثم يعود عجلاً إلى مضجعه».

ومع افتتاح مدرسته الموسيقية الخاصة للفقراء والأغنياء على حد سواء، أصبح زرياب مؤسس التقاليد الموسيقية في الأندلس، ولا تزال تسمع آثار أسلوبه في موسيقا الفلامنكو والمعلوف، وهي الموسيقا الكلاسيكية لشمال إفريقيا الإسلامية، وحصّل الشاب الخليفة أكثر مما توقعه من مساومة زرياب عندما عيّنه، ولم يحصل على عازف عود رائع فقط، بل على شخص شديد النشاط واجتماعي وثقافي، ومبتكر ومتألق أبدع أسلوباً جديداً ودقيقاً لنخبة قرطبة.

عرف زرياب أهمية تشكيل صورة حسنة للعامة، ولهذا قرر إصلاح إنشاء دار الأزياء عند الأمويين المتخلفين وضخ دماء جديدة من بغداد، وفي البداية قدم الأزياء الموسمية، ولم يعد اللباس الكئيب ينطبق على مدار السنة، وأصبح الأبيض اللون الوحيد المقبول في فصل الصيف، في مجموعة متنوعة من الأقمشة، ارتدى رجال الحاشية عباءات من صوف في فصلي الشتاء والخريف طلباً للدفء. وفي فصل الربيع، جلبت حرائر بألوان قوس قزح للاحتفال بذوبان الجليد.

كان الشَعْر هدفه التالي، أعلن زرياب أنّ الضفائر أو الجدائل التقليدية ممنوعة رسمياً، وما أدخله كان التسريحة الأساسية في القرون الوسطى التي تدعى قصة الغلمان، أطلق العنان لمخيلتك محاولاً أن تتصور الأمير الشجاع في أي أسلوب آخر.

عَلّمَ زرياب النساء المتلهفات فن نتف شعر الحواجب وإزالة هذه الشعيرات المحرجة التي تنمو في أماكن غير مناسبة، وقدم مزيلات لرائحة العرق تحت الإبط، وحسن منظفات غسيل الملابس، وحتى إن الشحرور أسس أول مدرسة للتجميل بالقرب من قصر عبد الرحمن، لينشر أفكاره في جميع أنحاء الأندلس.

وأصلح زرياب المطبخ الأندلسي عندما لم يكن مشغولاً في عزف العود أو تصميم الأزياء، وقبل وصول زرياب كانت الوجبات تتكون من عدد كبير من الصحون تلقى جميعها على طاولة خشبية عارية، أما الآن قرر زرياب أن تكون الطاولات مغطاة بقطعة قماش

من الجلد المزخرف، التي كان يسهل غسلها، وتقدم عليها أطعمة لذيذة ومبتكرة جديدة مثل كرات اللحم علاوة على عشبة حوّلها زرياب إلى خضرة للذواقة– وهي الهليون، ولم تعد وجبات الطعام فوضى من أطباق مختلفة تقدم في آنٍ واحد، وبدلاً من ذلك، اختار نظاماً لتقديم الطعام: يبدأ أولاً بالحساء والصلصات وبعدها اللحوم وأخيراً الحلويات، وهذا الوجبة متعددة المراحل أصبحت المعيار في العالم الغربي كله وليس في إسبانيا الإسلامية فقط، وابتعد زرياب عن استخدام الكؤوس الذهبية والفضية للتباهي، وبدأ في الاتجاه إلى عادة الشرب في كؤوس البلور، فَكّرْ في زرياب لاحقاً عندما تغرف آخر ملعقة من المقبلات قبل أن تحتسي المشروب الممزوج (الكوكتيل) في كأس زجاجي طويلة ورفيعة.

وكان من الطبيعي الاسترخاء قليلاً بعد وجبة صحية تتكون من ثلاث مراحل، أو ربما ممارسة لعبة تتطلب مهارة، وعلم زرياب عبد الرحمن وحاشيته تسلية هندية كانت متفشية في جميع أنحاء بغداد، وأصبحت تعرف في أوروبا بـ «الشطرنج».

ومن وقت وفاته في عام 857، أحدث زرياب ثورة موسيقية في الأندلس، وأنشأ ثقافة الرجل الذي يسعى لحياة الترف التي من شأنها أن تكون واحدة من أعظم الصادرات الإسلامية لأوروبا الغربية المتعطشة للرفاهية، ولم تُعلِم الثقافة الإسلامية الغرب الفلسفة والعلوم فقط، بل أيضاً علمته طريقة العيش ببهجة وأناقة. وإن كان ثمة قديس راعٍ للحياة المترفة

في العالم المتحضر، فسيكون زرياب أو شحرور قرطبة وهو ذلك القديس.

غزل البلاط

يتعرف معظم الناس على القرون الوسطى من قراءة قصص الملك آرثر، فهذه القصص الأسطورية تحدد جوهر القرون الوسطى، وحتى يومنا هذا نوظفها لتأويل أحداث في عصرنا الراهن، فمثلاً نقول بأن أمريكا تحت قيادة جون كينيدي هي «كاميليوت»، ويسمى فاعل الخير غالاهاد، وتتشوق النسوة لفارسهن الذي «يرتدي درعه اللامع» لينقذهن من حياتهن الوحيدة والرتيبة.

والقصة الرئيسة لأساطير آرثر هو مثلث الحب بين الملك آرثر والملكة جنيفر والسير لانسلوت، وحبكتها المأساوية تكمن في أن أعز أصدقاء آرثر خاض علاقة عاطفية مع زوجته، والتي أدت إلى تدميرهما سوية، وكما هي الحال الآن وفي العصور الوسطى، كانت هذه القصة نموذجاً «لغزل البلاط»، وهو تصور جديد وجريء من العلاقات بين الجنسين التي شاعت بأوروبا في القرن الثاني عشر.

أعاد غزل البلاط صنع ما يسمى باليونانية إيروس (إله الحب)، أو الرغبة الجامحة للجنس، وهو الشيء الذي جعل الرهبان والقساوسة يرتعشون هلعاً في أديرتهم، وكثيراً ما كانت هذه العاطفة زنى ومحرمة دوما ولأنها تمارس خارج نطاق الزواج، دخل المثل الأعلى الجديد في صراع مع المذاهب المتبعة في الكنيسة، حيث يعد الزواج رباطاً

مقدساً، ومع ذلك كان الزواج عند معظم النبلاء من الرجال والنساء أمراً يكتم الأنفاس ويكبت الأفراد، لاعتماده على طموحات يحكمها الآباء والأمهات بدلاً من المحبة المتبادلة بين أطفالهم، وكان الكثير منهم يقع في علاقات خالية من الحب وتمنعهم الكنيسة من إنهائها أو حلها، وأصبحت حكايات غزل البلاط، حيث يعبد فرسان نبلاء صغار ملكاتهم من بعد (وأحياناً ليس بعيداً كثيراً)، صمام هروب من واقع محزن للنساء في القرون الوسطى، وكانت بمثابة نوع جديد من الحب، حب يستند إلى القلب عوضاً عن الحب الكَنَسي أو حب المال.

يعتقد الكثير من الباحثين أن ظهور غزل البلاط في أوروبا أدى إلى ثورة اجتماعية وجنسية، وقال فريديرك نيتشه أن ذلك الغزل أثبت أن «الحب العاطفي هو تخصصنا الأوروبي. . . اخترعه شعراء الفرسان من بروفنس. . . الذين تدين لهم أوروبا بالكثير». ويرى كتاب آخرون بأن غزل البلاط كان بداية للعادات الأوروبية الحميدة، واحترام معاملة النساء، ويدعي جوزيف كامبل المعلم الروحي لعلم الأساطير، إن غزل البلاط هو الذي حرر أوروبا من الاضطهاد المسيحي الخانق في العصور الوسطى وبدأ بعملية انتقاد الكنيسة، ولم يؤدِ إلى الإصلاح فقط بل إلى ثورة علمية أيضاً!

إذن من أين ظهر غزل البلاط؟ الجواب المعتاد هو بروفانس، بدأ وليام الأكوتيني (الجد الأكبر لرتشارد قلب الأسد) في جنوب فرنسا بكتابة أبيات شعرية يعتبرها الكثيرون بداية الشعر الأوروبي.

كتب وليام باللغة العامية التي بدأت بالانتشار، في حين كتب الشعر باللاتينية قبل هذا الوقت، وهي لغة الكنيسة، ويميل شكل القصيدة إلى التقاليد الكلاسيكية الصارمة، وإذا كتب المرء باللغة الفرنسية العامة، فإنه كان يخرق احتكار الكنيسة للأدب، ولم يكن غريباً إن أول أبيات كتبت باللغة الفرنسية كانت عن إيروس (إله الحب) والمشاعر المعذبة للعشاق، وليست عن الحب الروحي للمسيح، وأصبح الحب المحرم هو السر المقدس الجديد في دين علماني عبد نساءً بعيدات المنال.

وسمي الشعراء الذين بدؤوا هذه التقاليد بشعراء التروبادور، كان البعض منهم من النبلاء مثل وليام، وهو الذي شرّع اللهجة العامية في الشعر وعممها، والآخرون كانوا مجرد منشدين متجولين، يتنقلون من بلاط إلى آخر بين جبال الألب والبيرنيز، وغنوا عن النساء صافيات القلوب اللواتي ينبغي أن يحببن عن بعد، وكان من المفروض أن يكون للنساء النبيلات تأثيرهن على معجبيهن، وعادة ما يكونوا رجالاً قساة لا يتمتعون إلا بالحد الأدنى من الكياسة الاجتماعية، ومن هذه العواطف ولدت الفروسية.

بدأ شعر التروبادور يكشف عن نمطية مكررة على الرغم من ثوريته وجدته، فقد كانت النساء شقراوات وبيضاوات دائماً، وكان الرجال لا يشعرون بالبرد أو الحر أو الجوع أو الألم، ويعيشون للحب فقط، وكانت النساء متزوجات دوماً وهن من أسرٍ أرستقراطية، ومع ذلك فإن الأفكار أو الصيغ المبتذلة لم تكن أبداً عائقاً أمام أي فن أدبي شعبي.

وانتشر غزل البلاط في فرنسا وجميع أرجاء أوروبا، وفتن الجمهور بقصص العاطفة المحرمة والجنس.

وكان رد فعل الكنيسة هو ابتكار نزعة الإعجاب بمريم العذراء إعجاباً يقارب العبادة، لم لا تعبدون أم الله بعيدة المنال عن بعد؟ وفي الوقت نفسه، شنت فرنسا حملة صليبية لا ترحم في فرنسا وقضت على اللبيجانيين قضاءً مبرماً، وهم الزنادقة الذين لم يبشروا بالحب فقط بل مارسوه أيضاً، وعلى الرغم من كل جهود البابا لم يستطع وإتباعه صد تلك الموجة، وراج الحب في أوروبا مرة أخرى وأصبحت قصص العلاقات الجنسية اللطيفة شائعة جداً حتى إن ميجيل سيرفانتيس سخر منها بعد عدة قرون في روايته «دون كيشوت».

ولكن يبقى سؤال واحد من دون إجابة، من أين أتت فكرة غزل البلاط؟ لم تطور في ذلك الوقت؟ والأهم، هل يعد نشوؤه في بروفنس دليلاً على أن الفرنسيين عشاق أفضل منا جميعاً؟

إن الكتاب المنهجي الجامعي القديم الذي درسته وهو «أوروبا الغربية إلى العصور المظلمة» تأليف تايرني وبيترز يضع الإجابة النمطية التالية «إن أصول هذا الشعر غير معروفة».

وإذا اخترنا أن نهمل شعر الأندلس فإن أصول شعر غزل البلاط ستكون مجهولة فعلاً.

الحب على الطريقة الإسلامية

كان الشعر العربي طوال عهود التاريخ الإسلامي مرتبطاً بأسلوب الشعر العربي القديم، وكان الشعر في بداياته طريفاً وأصيلاً، ومع ذلك ففي وقت الخلافة الغربية في قرطبة، أصبح الشعر الكلاسيكي مبتذلاً وتقليدياً، وهو عبارة عن لغة جامدة تعبر عن صيغ نمطية مكررة، وكانت تعد الابتسامات لآلئ دائماً، والورود مجوهرات، والبرق في المطر مثل الحب المشتعل في الدموع، وهلم جراً.

واستمر الشعر على هذا المنوال حتى وقع تحت تأثير الحضارة الأندلسية المفعمة بالحياة والحيوية، وهناك قرر شاعر أعمى اسمه (مقدم بن معافى القبري الضرير) أن يخرق قوانين الشعر المألوفة، وبتمزيقه لهيكل القصيدة العربية المعقدة قطعة بعد قطعة، طور القبري وآخرون غيره شكلاً جديداً للقصيدة بأسطر مختصرة وقافية جديدة، والأكثر غرابة من كل ذلك هو إنهاء القصيدة بدبويت بلغة عامة الناس، أما بالعبرية أو الموزاربية، وهي اللغة العربية الشائعة بين المسيحيين في الأندلس.

وسمي هذا بالموشحة، وهي مفردة مشتقة من الكلمة العربية «وشاح» أو «زنار»، وربطت هذه القصائد من خلال تركيبها الجديد والمعقد حكايات الرومانس بالشعر العربي عن طريق تسلسل مذهل من الإيقاع الذي امتد من مقطع شعري إلى آخر، وبلغ ذروته في المقطع الشعري الأخير، وكان بالعامية.

ولكن عمّ كانت هذه القصائد تدور؟ فكّرْ في الأغاني الشعبية الحالية

وستجد الجواب، الحب على الطريقة الإسلامية والحب المحرم، والحب الضائع والحب الجامح، وبين هذا وذاك، يعب الشاعر جرعات من الخمر المنافية للعادات الإسلامية، وهذا مثال كتبه محمد بن حسن بن علي بن عثمان النواجي[1] :

وهذه نماذج من شعره[2] :

من شذرات الذهب: 7/ 297

عسى شربة من ماء ريقك تنطفي بها كبدي الحرى وُتبرى من الظما
فحتام لا أحظى بها وإلى متى أقضّي زماني في عسى ولعلما

من نظم العقيان:

بعد صباح الوجه عيشي مضى فيا رعى الله زمان الصباح
وبت أرعى النجم لكنني أهفو إذا هب نسيم الصباح

بينما كانت إسبانيا الإسلامية لم تزل أبعد ما تكون عن مجتمع متحرر، إلا أنها أعطت المرأة خيارات أكثر من أي مكان آخر في أوروبا، وكالعادة كان المنزل مجال نشاطهن المألوف، ولم يكن تعليم النساء أمراً غير معروف، حتى إنهن كن يلقين محاضرات عن القانون وعلم

(1) من أهل مصر، مولده ووفاته في القاهرة نسبته إلى نواج (من غربية مصر) بالقرب من المحلة (توفي في عام 1455م).
(2) لم نعثر على الأبيات التي استشهد بها المؤلف.

الدين، وتباهت الأندلس بالكثير من مدارسها المختلطة، حيث تستطيع الزوجات الحضور مع أزواجهن أو البنات مع آبائهن، وحصلت على الشهادات كالرجال تماماً مما خولهن حق التدريس أو حتى افتتاح مدارسهن الخاصة، حتى إن أحد الأمراء تزوج جارية إفريقية لإعجابه بإنجازاتها الفكرية.

وعملت الكثير من النساء كناسخات للكتب، حيث كن ينسخن القرآن بخط اليد لعامة الناس الذين يشترون الكتب، وافتخرت قرطبة في إحدى المرات بمئتي امرأة من الناسخات، وكانت الكثير منهن يُعلْنَ عائلاتهن من هذا الدخل، وإن مجرد فكرة عامة النساء يمكنهن القراءة كانت صاعقة للمسيحيين في الشمال – وكذا الأمر مع الشعر البذيء للنساء النبيلات مثل شعر ولادة التي ألفت قصائد لعاشقاتها، بينما فتحت صالوناً أدبياً رعى جيلاً كاملاً من مؤلفي القصائد الأندلسيين، ومع الحرية النسبية التي تمتعت بها إسبانيا المسلمة، فليس غريباً أن نجد موضوع الحب يتمتع بانفتاح لا يمكن تصوره في عالم مفرط بالاحتشام مثل عالم النصرانية.

ولكن العواطف الحسية لم تكن الموضوع الوحيد في الشعر الأندلسي، كان تأثير الصوفية على إسبانيا المسلمة قد بدأ قبل جيل أو جيلين من بدء الشعراء الفرنسيين المتجولين بالنقر على أوتار القيثارة، وركز هذا الفرع الباطني للإسلام، وهو مستمد من بلاد فارس، على الاتحاد المباشر مع الله عن طريق النشوة الدينية، وتحاول الروح عن طريق

الصوفية أن تندمج في الحضور الشاسع لموضوع الحب المطلق، ألا وهو الله نفسه.

وتعلق الشاعر محمد بن داود الأصفهاني بالتصوف[1] ، ولد في المشرق العربي في النصف الثاني من القرن التاسع. وقع في شبابه في حب صبي في مدرسته، وتعذب بسبب عاطفته التي حَرّمَها القران، وجد ابن داود السلوى في مفهوم الحب العذري المكتشف حديثاً. وأصبح مؤلف ابن داود «كتاب الزهرة» المنهاج الأساسي لشعر غزل البلاط في أوروبا.

في السنوات الأخيرة من الخلافة في قرطبة، تغلغلت فلسفة ابن داود في قصيدة الحب الأندلسية، ووجدت أعظم تعبير لها في كتاب ابن حزم «طوق الحمامة». وعند ولادته في القرن الحادي عشر، كانت الخلافة في قرطبة قد بدأت تفقد زخمها، وبسبب سلسلة من الحروب الداخلية، ستنقسم إسبانيا المسلمة إلى دول تتكون من مجرد مدن معروفة بالطوائف، وفي ثقافة الطوائف كتب ابن حزم أعظم أعماله.

وبما أن ابن حزم نشأ في قصر للحريم، فإنه اكتسب حساسية أرشدته عبر الكثير من الصراعات المثالية لإعادة الخلافة، وأخيراً تقاعد ابن حزم من الحياة العامة، وكرس نفسه للكتابة بعد أن سجن ونفي مراراً وتكراراً وفقد كل ثروته، ويعرفه معظم المسلمين بأنه رجل دين، لا بل

(1) محمد بن داود بن علي بن خلف الأصفهاني الظاهري، كان عالما أديبا فصيحاً فقيهاً، لم يرد أنه كان متصوفاً، توفي في شهر رمضان سنه 297 هـ، وعمره اثنان وأربعون سنة.

مؤسس الديانات المقارنة، ولكن الذي أكسبه أكبر جمهور عند الغرب إنما هو كتابه عن المشاعر الإنسانية.

ونرى في كتاب «طوق الحمامة»، عالم بلاط قرطبة المختفي وقد دبت في الحياة، وهناك تقاسي الغواني الجميلات (وعادة شقراوات وهن ما يفضل ابن حزم) مع عشاقهن الشجعان في متاهات الحب. وقد بسط ابن حزم في شعره ونثره دورة الحب، ابتداءً من أول لقاء في الأحلام والواقع، ووصولاً إلى نقل المشاعر عن طريق النظرات وإشارات السرية وأيضاً إلى المساعدين الذين يحملون الرسائل ولأولئك الذين يحاولون منع وقوع المحتوم، وشرح ابن حزم الوصل بين الاثنين بأنه أفضل من أي شيء في العالم، وبلغته المؤثرة يقول « فما للدنو من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد العدم ولا الأوبة بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف».

كان يعرف ابن حزم عما يتكلم، ولقد مر بكل هذه المشاعر بالإضافة إلى أسوأ مأساة وهي موت جارية كانت حب حياته، ولم ينسَ ذكراها قط.

ثم يختتم ابن حزم الفصل «بالتعفف»، وهو الحب من بعد، والحب الوحيد المتاح له الآن بعد وفاة الجارية واختفاء المملكة، وكان التقاء الأرواح يمثل أعلى درجة من درجات الحب وأنقاها، وبعد أن يختار نماذج عديدة من الحب الأفلاطوني (العذري) والحب الذي يخلب اللب من الأندلس يتفق ابن حزم مع ابن داود، فالحب الأفلاطوني

أو الروحي سيصبح المثال الجديد، وأعلن ابن حزم ربما تعويضاً عن خسائره الفادحة التي مني بها أن من يعاني من لوعة الحب سيكافأ أعظم مكافأة: «فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضا وطوى كشحه على أحد من السيف»، وروح العذرية هذه التي ولدت من قصائد ابن داود عن العاطفة المحرمة، أصبحت قصص الحب الجديدة في أوروبا، ومن أشهر أتباع ابن حازم هو آندريس كابيلانوس، وهو مؤلف كتاب «فن حب البلاط»، ويعود للقرن الثاني عشر وألف على غرار العمل الإسلامي السابق.

وعبر الشعراء والمغنون من الطوائف إلى جبل البرنيز بعد جيل واحد من موت ابن حزم، وكان الكثير منهم غنائم حرب، وبعد أن ضعفت الأندلس بسبب صراعاتها الداخلية قويت شوكة المسيحيين، وفي معركة برباسترو عام 1604، أخذت الآف النساء أسيرات ونقلن إلى جنوب فرنسا، وكان العديد من هؤلاء النساء قيّان، وهن مغنيات محترفات كسبن رزقهن من الموشحات.

فتحت حرب برباسترو وحروب أخرى مثلها باباً ثقافياً بين فرنسا وإسبانيا، سمحت لنور الحضارة الإسلامية أن تضيء النصرانية، وليس من باب المصادفة أن يكون «وليم أوف أكويتن» وهو أبو الشعر البروفنسالي ابن الرجل الذي فاز في حرب برباسترو، وكان يسمع شعر العالم الضائع في بلاط والده، وبالتالي أدى ذلك إلى ولادة أدب جديد ونوع آخر من الحب.

يُعدّ كتاب «الكوميديا الإلهية» لدانتي أليغيري (1265–1321) تحفة رائعة من تحف أدب الغرب، فقد جعل دانتي الحياة بعد الموت شيئاً ملموساً في الكتب الثلاثة المسماة بالجحيم والمطهر والجنة، ورسم تفاصيل أهوالها ولذاتها بطريقة قصصية واقعية وروحانية بشكل لا يوصف، وكان كتاب «الكوميديا الإلهية» التعبير الأسمى للأمل المسيحي والإيمان به، وكان المكان الروحي والمقدس للكاتب والقارئ، كما تعد «الكوميديا الإلهية» كنزاً وطنياً وبياناً بالعقيدة الكاثوليكية الأرثوذكسية، ولخصت كل شيء دافع عنه المجتمع الغربي في العصور الوسطى.

ويكاد المرء يدنس المقدسات إن قال بأن «حبكة الكوميديا الإلهية مقتبسة إلى حد كبير من الأدب الإسلامي، بالإضافة إلى الشخصيات والأحداث والأوصاف والفلسفات»، إن هذه التحفة الغربية الرائعة هي في جوهرها تقليد، ومحاكاة لعمل آخر وهي بمنزلة قصيدة إسلامية ولكن برداء مسيحي.

ومرجعها القرآن في سورة (الإسراء) 17:1 ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها رحلة إسراء محمد (صلى الله عليه وسلم) أو الرحلة الليلية الصوفية، وهي تجربة بصرية حيث

رحل الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بلاد العرب إلى القدس في ليلة واحدة، ومن هناك عرج إلى السماء من بقايا معبد اليهود، ويعرف هذا الحدث بـ «المعراج»، وترمز قبة الصخرة في القدس حالياً إلى المكان الذي عرج منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى العالم الآخر. وعلى مدى قرون تطورت مجموعة من المعارف والاعتقادات حول هذا التقليد، وساعدت هذه الكتابات دانتي في تخطيط عمله وإلهامه.

وقدّم ميجيل آسين بلاسيوس في كتابه «الإسلام والكوميديا الآلهية» قائمة طويلة للتشابهات بين الكوميديا الالهية لدانتي ورواية المسلمين عن الإسراء والمعراج، وخاصةً للشاعر القرطبي محيي الدين أبي بكر محمد بن العربي (1165–1240) في كتابه «الفتوحات المكية»، ويقدم عمل ابن العربي فيضاً من التفاصيل والموضوعات التي سيستخدمها مؤلف «الكوميديا الآلهية»، رغم أن «الفتوحات» كتبت قبل أن يولد دانتي بخمس وعشرين سنة، والشيء المثير للدهشة هو أن ابن العربي خرج عن نطاق التقاليد ووضع نفسه في مكان محمد (صلى الله عليه وسلم). وكما في رواية دانتي اللاحقة، فإن الشخص الذي يقوم بالرحلة الصوفية هو مجرد فرد آثم وليس شخصية دينية مهمة.

وتبدأ كلا الروايتين ليلاً عندما يستيقظ الراوي فجأة على صوت المرشد الروحي، ويتوجهان سوية إلى بوابة جهنم التي يحرسها أسد وذئب (ويضيف دانتي الفهد)، وعند دخولهما، يكتشفان أن جهنم على شكل قمع وفيها طوابق متحدة المراكز ويشغلها أسوأ الآثمين، من

الزناة إلى اللوطيين إلى الكفار والخونة، وفي هذا العالم الكابوسي تتجول الأرواح مقطوعة الرأس، حاملة رؤوسها المتكلمة في أيديها، وأمعاؤها بارزة، وهي تعاني من عطش شديد وتنخسها الشياطين بشوكات في بحور من القطران المغلي أو النيران.

وللمخلدين في النار عقوبة تناسب جرائمهم، حيث تتقاذف المذنبين الشهوانيين زوابع عظيمة ترمز إلى شبقهم، ويغلي القتلة في الدماء التي سفكوها، وتزداد الآثام والعقوبات كلما توغلنا في الداخل: أفاعٍ معذِبة، وبطون متورمة، وقروح الجذام التي تحك باستمرار وتتساقط قطع الجلد منها، والشياطين القتلة التي تقطع الجثث إلى قطع ثم تعود كاملة كرة أخرى. ويلتقي الراويان في الطريق بمفكرين عظماء وأناس مشهورين كل حسب تخصصه، ويتبادلان النقاشات العلمية معهم، وفي قعر جنهم ينغمس إبليس في بحيرة من الثلج.

وعندما يخرج الزائران من جهنم يغسلان جسديهما ثلاث مرات في الماء الذي يفصل جهنم من المطهر (حاجز بين الجنة وجهنم)، والمسلمون يؤمنون بالحياة بعد الموت مثل المسيحيين، حيث يكون البعض ملعوناً للأبد، والبعض منهم لوقت قصير حتى يُطهر، وآخرون ينالون نعمة الذهاب إلى الجنة مباشرةً، ومن هنا يتسلق الزائران أو الحاجان جبلاً شاهقاً، ويواجهان ساحرة تحاول أن توقف تقدمهم، ولكن بمساعدة المرشد يصلان إلى أبواب الجنة حيث يلتقيان بحورية جميلة.

والجدير بالملاحظة أن حورية دانتي هي بياتريس، حب حياته العذري

العظيم والتي خلدها في كتابه «الحياة الجديدة». وليس من المدهش أن ابن العربي كتب قصائد حب عذرية عن «نظام»، وهي فتاة جميلة قابلها في مكة، وفي كتابه «ترجمان الأشواق» تناول موضوع الحب الضائع وحوله إلى حكاية رمزية صوفية عن الجمال الآلهي وبحث الروح عن الله- وهذا ما فعله دانتي تماماً بعد نصف قرن.

وفي المرحلة الأخيرة من رحلتهما السماوية، يصف كلا الكاتبين الفردوس بسلسلة من تسع جنات تصنف حسب الفضائل، ويزداد ضوء عظيم إشعاعاً كلما تسلقا أكثر. ويتجمع الأبطال والشهداء من الدينين كليهما، ويتحدثون عن موضوعات علمية أو يروون قصة حياتهم ببساطة. وتتكلم امرأتان معروفتان شخصياً للشاعرين عن مشكلاتهما في الحياة الزوجية، بينما يقف الزائران مذهولين بجمالهما.

وعندما يصلان إلى آخر مرحلة من الصعود، يغادر المرشدان، وفجأة يؤخذان بسرعة إلى السماوات العلى حيث يقابلان مخلوقاً سماوياً على هيئة طائر، يرفرف بجناحيه ويدعو جميع المخلوقات إلى الصلاة، ويشاهدان بعد ذلك سلماً حيث تطلع أو تنزل عليه الأرواح المباركة.

ومن هنا ينظر التائهون إلى الأسفل وينبهرون عندما يرون بأن العالم صغير جداً مقارنة بالجنة الكونية، ويدور حول عرش الله ملائكة من نار وثلج، وفي البداية يصاب الزائران بالعمى من حضور رب العالمين المهيب ويدركان أن الملائكة تطوف حول العرش مثل الأجسام السماوية في الفضاء، ومن بعيد يشاهدان المشهد العظيم، وعندما يقتربان ينغمران

بالضياء الشامل للوجود الإلهي.

وهذه القصائد ليست قصص رعب أو عجائب لمجرد التسلية، بل هي كتب هداية لتجديد الروح مفصلة تفصيلاً ينبض بالحياة، ويقر الشاعر الصوفي ابن العربي وكذلك دانتي، أنه لا يمكن إيجاد الحقيقة الأبدية عن طريق المنطق الإنساني، بل عن طريق قبس من نور الله.

وهذه مسألة شعر دانتي بأنه ينبغي عليه أن يذكرها، فهذا المدافع المتحمس عن الكنيسة رأى أن أساس الإيمان في العصور الوسطى بدأ بالتصدع من جذوره، وسبب ذلك واضح، فقد قوض الإسلام كل ما تؤمن به الكنيسة، وانتهت الحملة الصليبية بانتصار المسلمين، وشغف الأوروبيون في ذلك الوقت شغفاً عظيماً للبضائع الترفيهية من مصر وبلاد العرب كالأواني والسجاد والملابس والكتب والسيراميك، ومما زاد في الطين بلة أن الرهبان جميعاً والأساتذة والآخرين بدؤوا يتعلمون اللغة العربية وصرحوا أن الفلسفة الإسلامية أعلى مقاماً من الفكر المسيحي، شكلت الفلسفة «المستعربة» أكبر خطر للمعتقدات المقدسة لدانتي لأن قيمها متجذرة في العلوم والطبيعية والمنطق الإنساني.

ومن المحتمل أن دانتي اكتسب معرفته عن الإسلام وبالذات عن ابن العربي عن طريق معلمه برونيتو لاتيني، في عام 1260 أصبح لاتيني السفير الفلورنسي لإسبانيا، ومن المؤكد أنه تعرف في العاصمة طليطلة على المكتبات العربية الهائلة بمخطوطاتها وترجماتها، وعندما عاد إلى فلورنسا، ألف لاتيني عدة كتب اعتمدت على كتّاب مسلمين

واستشهدت بأفكارهم، ومن الممتع أن نعلم بأن دانتي يضع روح هذا العالم المتفتح الذهن وأستاذه وصديقه في جهنم.

وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع دانتي أن يهرب من تأثير الفكر الإسلامي، وعادة ما يقتبس في أعماله من ابن سينا وابن رشد، ويضعهما في الأعراف حيث العظماء من قدماء الإغريق والرومان، ولكن إعجابه لا يذهب أبعد من ذلك.

وفي كتابة الموسوم بـ «الجحيم» يصل دانتي إلى الدرك الأسفل من الجحيم، وهناك يلتقي برجل قد اندلقت أمعاؤه، وهو مشطور إلى نصفين، ويرى دانتي الجسد المشوه والمثير للشفقة ويكشف عن جروحه في مشهد دامٍ، ويمشي أمامه جسد آخر مشوه بالطريقة نفسها، وقد انشطر وجهه من الذقن إلى الناصية (شعر مقدمة الرأس).

ومما لا شك فيه أن المسلمين سيشعرون بالاشمئزاز من هذا الوصف المشين للرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلي، المشطورين إلى شطرين انتقاماً لتمزيقهما العالم المسيحي، وهذه الصورة تعبر عن الكراهية والحقد اللذين شعر بهما الأوروبيون وكذلك دانتي تجاه ذلك الشعب الذي هزمهم شر هزيمة على الجبهات السياسية والاقتصادية والحضارية والفلسفية جميعاً، ووفقاً للباحثة ماريا روسا مينوكال، أن هذا السبب بالذات هو ما دفع دانتي لكتابة الكوميديا اللاآلهية، وربما كانت هذه الملحمة ليست إلا طعنة يائسة أخيرة للإسلام، وهي صورة سيئة لتقاليدها الدينية التي يمكن أن تردّ تأثير العربية وتعيدَ احتكار الكنيسة للفكر،

وإذا كان هذا هو هدف دانتي، فقد أخفق إخفاقاً ذريعاً، كما أخفق من قبله كل العلماء المسيحيين في العصور الوسطى، فالإنجازات العلمية والحضارية للمسلمين ستعيد بناء أوروبا بشكلها الحديث المعاصر.

ومع هذا سينسى تأثيرهم عبر العصور، فقد كانت عملية بدأت هنا بوعي كامل وتتضح في إعادة صياغة دانتي للإسراء والمعراج، عندما وضع قناعاً مسيحياً على الرواية المسلمة القديمة بدأ ببطء يمحو آثار خصومه اللّدودين، ومع مرور الوقت، وبمساعدة كتاب النهضة اللاحقين، بدأ الأوروبيون يشعرون بعبقريتهم بثقة، من دون أن يعترفوا بأنها نشأت من قلب العدو الذي ما زالوا يحقدون عليه ويهابونه، وليس من مجرد فراغ أو من إعادة اكتشاف الإغريق القدماء.

هل يعد عمل دانتي قطعة فنية؟ بالطبع، فهو يجمع الكثير من العناصر الأساسية من رواية ابن العربي، وأضاف كما يضيف العديد من الفنانين على تقاليد وجدت من قبل، وبذلك أبدع صورة حيوية للمجتمع الايطالي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وعلى الرغم من ذلك فإن الدليل واضح، لقد أثر علم الديانة الإسلامية والأدب الإسلامي– في أعظم قصيدة أوروبية من حيث الحبكة والشخوص والمغزى، وحقيقة أن الأغلبية لا تزال تجهل الفضل العظيم لابن العربي والآخرين ما هو إلا دليل إثبات على المحاباة والتحيز للبحث العلمي الغربي المستمر.

الفصل السادس: سلاح الإسلام السري

لم تنظر العصور الوسطى إلى التشكيك بالسلطة بعين الرضا، ولاسيّما عندما تكون السلطة هي الكنيسة، وقد احتكرت الكنيسة المقدسة حق مناقشة الموضوعات الفكرية، وحظرت أي شيء لا يتفق مع العقيدة الكاثوليكية، وأي شخص يتحدى هذا الحظر يكون عرضة للحبس أو الطرد الكنسي أو الموت، وأصبح الاحتفال الديني بالحرق العلني مشهداً مألوفاً وشائعاً في العصور الوسطى في أوروبا، وتعني الهرطقة (أو الزندقة) أي شخص تبلغ به الحماقة حداً بحيث يشكك في الكنيسة الكاثوليكية.

وقررت الكنيسة أيا من الكتب يمكن قراءتها، وقررت أيضا أيّاً من العقائد صحيحة وأيّاً منها خاطئة، حتى إنها قررت في أي لغة يمكن أن يقرأ الإنجيل أو يستنسخ، وكل من يتجرأ على ترجمة الإنجيل قد يعدم علناً لبث الرعب في شعب جاهل مؤمن بالخرافات.

وليس هناك مجال للشك بأن رجال الدين ظنوا بأنهم كانوا يفعلون الشيء الصحيح، وكان على الكنيسة البقاء بأي ثمن كان، وفي هذا العالم المليء بالخطيئة والإغراء مارس الشيطان قوة مخيفة كان يتوجب مجابهتها بثبات شديد، من الطبيعي أن النضال من أجل الكنيسة كان يعني النضال من أجل خدمة مصالحها لحماية ممتلكاتها من الأراضي الشاسعة وعبيد النظام الإقطاعي وثرواتها الهائلة، وكان باستطاعة البابا

أن يذل الملوك بتهديدهم بالحرمان الكنسي، واحتفظ البابا بالجيوش وجمع الأموال الطائلة من الأغنياء والفقراء على حد سواء، وامتلكت الغالبية العظمى من شبه الجزيرة الإيطالية الشاسعة، وكانت الكنيسة من أكبر ملاك الأراضي في أوروبا برمتها.

مع هذا كله على المحك لم تكن روما لتسمح بأي تحدٍّ لسلطتها الروحية، التي كانت السبب الرئيس في غناها الفاحش، ولو بدأت بعض هذه الأفكار تترسخ في عقول العامة فلن يمر وقت طويل قبل أن يفقد الناس إيمانهم وتخسر الكنيسة كل أراضيها ودخلها، وبطبيعة الحال كانت مخاوف الكنيسة مسوّغة.

ولم تكن النتائج فورية، ولا حتى بعد أن كتب لوثر أطروحاته الخمس والتسعين، ولكن بحلول العصر الحديث خسرت الكنيسة الكاثوليكية احتكارها الروحي واضطرت إلى البدء ببرنامج تبشيري طموح للحصول على أعضاء جدد من أراض غريبة وغير معروفة، ففي أوروبا وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الكنيسة خسرت معركتها أمام الثورة العلمية التي دفعت بالأوروبيين إلى الحداثة وشكلت أكبر تهديد فلسفي لوجود الايمان ذاته، والتاريخ مليء بالمفارقات، ومن أعظمها العالم الإسلامي، الذي عملت الكنيسة فيه على زعزعة استقراره وافقاره فكرياً ومادياً، ولكنه بعد كل ذلك سيوجه إلى تلك الكنيسة ضربة موجعة تكاد تكون قاتلة بعرض سلاح سري ألا وهو أرسطو.

التراث اليوناني في الإسلام

من البديهيات الشائعة في العلم الغربي أن المسلمين حافظوا على النصوص اليونانية، ثم سلموها بعد قرون إلى ورثتها الشرعيين، ألا وهم المسيحيون الأوروبيون، وهذا يُثير السؤال: ماذا فعل المسلمون بكل تلك الفلسفة مدة خمسة قرون؟

أولاً لنستخدم مصطلحاً آخر غير «الحفاظ»، ولنستخدم مصطلح «الرعاية» أو «الإنقاذ» أو ربما «الاختراع»، فلم يكن المسلمون مجرد متلقين سلبيين لهذه الحكمة الأجنبية، فهم ورثوا المركز الفكري اليوناني في الإسكندرية عام 641، واعتمدوا على علمائها لتزويدهم بكتابات أفلاطون وكل ما تبقى لدينا من كتابات أرسطو، وهرب علماء أكاديمية أفلاطون إلى بلاد الفرس عندما أغلقها الإمبراطور المسيحي جاستينيان في نوبة ورع ساخط، وفي الوقت نفسه تشرب المسيحيون النسطوريون المتحدثون باللغة السريانية الذين يسكنون في الشرق الأوسط بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة، بالاعتماد على أفلوطين وآخرين ممن تمثلوا الفلسفة اليونانية بمسحة من التصوف.

ولم يقف المسلمون بدهشة داخل المكتبة السرية التي تحتوي على المؤلفات الكلاسيكية اليونانية وهم يحدقون فيها ويحكون رؤوسهم خمسة قرون، فبعد غزو أراضي اليونان وبلاد الفرس بدأ العلماء المسلمون على الفور بحثاً منهجياً عن ا لمخطوطات الفلسفية وعملوا على دمجها بعاداتهم الدينية، أي جعلوا الفلسفة اليونانية ملكاً لهم،

وكان هذا أعظم عمل لعلماء المسلمين وأعظم فكرة في القرون القليلة قبل نهاية الألفية الأولى.

وكان أكثر شخصين نفوذاً في الفلسفة اليونانية هما أفلاطون (427–347 ق. م) وتلميذه اللامع أرسطو (322–384 ق. م)، واعتقد أفلاطون أن الأشياء الحقيقة في الكون هي فقط المثل العليا أو الأفكار مثل الخير والحقيقة والجمال هي جوهر كل شيء مادي، وما ينطبق على الخير والحقيقة والجمال في عالمنا المادي هو مجرد انعكاس، أو ظل للمثل السامية الكاملة، ويوضح أفلاطون هذه النظرية في «استعارة الكهف» الشهيرة، وفي هذه القصة يسكن الناس في كهف مكبلين بالسلاسل بصخرة، وتوقد نار خلفهم بحيث لا يستطيعون لف رؤوسهم لرؤيتها، وعندما يمر شيء أمام النار، يظنون أن الظل المطروح على الجدار أمامهم شيء حقيقي، وسيرون الواقع الحقيقي عندما تحرر الأرواح من السلاسل فقط، وهي الأفكار التي تطرح ظلهما على الأشياء المادية في عالمنا، والحياة عند أفلاطون رحلة من الذكريات والسعي لإعادة الاتصال بالأشكال الأبدية ومن ثم الاتصال بالأبدية التي تكمن بداخلنا.

وإذا كانت لدى أفلاطون الأفكار أو المثل العليا، فلدى أرسطو المقولات [أسماها الفلاسفة العرب القدامى بالقاطغوريات] (التصنيفات). فعلى سبيل المثال، يمكن أن يصنف الناس جميعاً على الرغم من اختلافهم كلياً كأفراد تحت فئة «شخص»، ولكن في عالم أرسطو لم يكن الإنسان مجرد ظل للشخص« السامي»، والشكل لا

يسمو على المادة قط، بل كان مرتبطاً بها، ويقدم للمادة هدفاً للنمو، وتتحرك المادة من الاحتمالية إلى الكينونة، لأن أقصى ما تروم إليه هو أن تحقق مثلها الأعلى الذي يكمن في داخلها.

إذاً المثل العليا ليست في مكان خارجي بعيداً عن حواسنا بل من الممكن ملاحظتها في العالم المادي وفي الأنماط الكونية التي تحكم أجساماً معينة، وإن لم يُلاحظ العالم الطبيعي فلن تكتشف أية معرفة فعلية، لأن المثل العليا الكامنة مرتبطة جوهرياً بالواقع المادي.

ومع ذلك فإن أرسطو لم يكن مادياً بحتاً، وكما أن المواد تملك بداخلها مثلاً عليا تدفعها للكمال، فكذلك الكون يمتلك مثلاً عليا بداخله ومنه يستمد وجوده، وسمى أرسطو هذا الوجود بالفكر الإلهي الذي نشأ منه الفكر الإنساني، فهذا الفكر الإلهي مكّن البشر من رؤية الأنماط والأهداف الأساسية للكون، بينما ستختفي عند الموت روح الإنسان، المرتبطة بالجسد، فهي تنتمي إلى الفكر الإلهي وستعود إلى مصدرها الأبدي.

و لا يمكن لهاتين الفلسفتين أن تكونا أكثر اختلافا وتباعداً مما هما عليه: فأفلاطون يرتاب من الحواس، في حين يعتمد أرسطو عليها، ويرى أفلاطون الحقيقة بحق أنها خارج عالمنا المادي، في حين يرى أرسطو الحقيقة داخل عالمنا، والروح الأفلاطونية خالدة في حين تكون الروح عند أرسطو فانية والشرارة اللاشخصية والأبدية للفكر الإلهي هي الوحيدة التي ستنجو من الموت.

وليس من المستغرب أن يكون منهج أفلاطون الباطني أكثر شيوعاً بين المسيحيين، وخصوصاً في الغرب. فأفلاطون كان معروفاً جداً في أوروبا في العصور الوسطى. ومن جهة أخرى، كان أرسطو أقل شهرة ولا يتوافر كثير من أعماله باللغة اللاتينية، ومع ذلك، تمكن علماء العالم الإسلامي من الوصول إلى ما تبقى من أعماله الكاملة، وأصبح أرسطو معروفاً لدى المسلمين «بالفيلسوف»، لا بل أعظمهم جميعاً، وكانت فلسفته مثيرة للقلق حيث أشعلت نار الجدل منذ لحظة ترجمتها للعربية.

وفيما يتعلق بالمسلمين والمسيحيين كانت هناك حقائق أساسية معينة آمن بها الجميع عن طريق الإيمان، فعرفوا بأن هناك الله وهو الذي خلق العالم من العدم في وقت معين من الزمن، وعند موت الناس يبعثون جسدياً إلى الجنة أو العذاب، ولا يمكن إثبات أي من هذه الأشياء علمياً، ولكن هذا لم يكن معضلة عند معظم المسلمين، فقد كانت هناك حكمة إنسانية يمكن أن يدركها البشر— ومن ثم كانت حكمة الله، وكان القرآن وحي من عند الله، ولم تكن هناك حاجة للبرهنة على وجوده من عدمه، ومع ذلك وفقاً لأرسطو، يمكن للبشر الفاني فهم قوانين المنطق التي تهيمن على الكون كله وإدراكها، وبدا أن هذه القوانين دخلت في صراع مباشر مع الوحي الإسلامي.

رغم أن هذه الفكرة تبدو مجرد قمة جبل جليدي، فإن آثارها كانت مدمرة، وفجأة أصبحت فكرة أن الله خلق العالم من عدم غير

منطقية، وعند أرسطو ليس للكون بداية ولا نهاية، أين المنطق في هذا؟ وكيف يولد الوجود من العدم؟ (غياب الوجود بحكم التعريف)، ولو أن الكون يعمل بأنماط وقوانين ملحوظة ومعينة، لكانت المعجزات مناقضة للمنطق أيضاً، ولو أن روح الإنسان مرتبطة بالجسم المادي، لكانت الروح غير خالدة، وأسوأ ما في ذلك السؤال الآتي: من يحتاج إلى القرآن إذا كانت الحقيقة تعرف بالفكر النشط الموروث والتصور الحسي للعالم الطبيعي؟

وكان من الواضح أن هناك حاجة لفعل شيء ما، وكان من الممكن للعلماء أن يحرموا قراءة أرسطو، كما فعلت الكنيسة الكاثوليكية في أوائل عام 1200، ولكن رأى المسلمون المنافع المذهلة لنظام أرسطو — فقد فسح لهم المجال للتفكير والاستكشاف والقيام بأشياء عديدة، وهكذا نجح المنطق وكذلك الأمر مع العقل البشري عندما استند في نتائجه إلى ملاحظة العالم الطبيعي، وسرعان ما استخدم العلماء فلسفة أرسطو لإعادة اختراع العلم ذاته، ولم يلتفتوا كثيراً لما كان أرسطو يعني لإيمانهم، وعلموا بكل بساطة أنهم حصلوا على نتائج باهرة عن طريقه.

وأصبح الأمر منوطاً بعلماء الدين والفلاسفة لكي يصارعوا النتائج الروحية لهذه النظريات المدوية.

الفيلسوف العربي الأول

كان أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (795–866) أول فيلسوف إسلامي حقيقي، وهو مفكر عربي أبدع وجهة نظر عالمية جديدة (كما فعل القديس توماس الأكويني بعده بقرون لاحقه) وفقت بين تقاليد دينه والإغريق. وأظهر الكندي أن الإيمان والمنطق لا يتناقضان، وذلك عن طريق نتاجه الفكري المذهل—الذي بلغ مجموعه ثلاثمئة وواحداً وستين عملاً، وقد زعم في الواقع أن الحقيقة التي كشف عنها محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت مدعومة بالمنطق، ويجب على علماء الدين ألا يتنكروا لها بل يستخدموها كأداة روحانية، وينال الأنبياء والفلاسفة العلم بطرق مختلفة، ولكن الحقيقة التي يعرضونها هي ذاتها، وعلى الفلاسفة أن يبرهنوا على حقائقهم، أما الأنبياء فلا.

وقد يقول الكندي إن أرسطو كان على صواب لأننا نستطيع أن نرى النتائج في العالم، وأيضاً القرآن، لأننا نستطيع أن نرى النتائج في قلوبنا، ولكن كيف تأتّى له أن يوفق بين الاثنين مع ما بينهما من فرق شاسع؟

و قد سأله أحد طلابه مرة عن المغزى في الآية ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (من سورة الرحمن: الآية 6)و لا يبدو أن الأشجار والنجوم قادرة على هذا الشيء! أجاب الكندي بتمعن في معنى ﴿يَسْجُدَانِ﴾ وقال إن فعل السجود يعني نمو النبات كما أمرها الله، وأضاف إن غرض العبادة يعني ببساطة أن الأشجار والنجوم تطيع الله كما أمرها،

وهذه تتوافق كلياً مع مفهوم أرسطو بأن الكون يطيع قوانين معلومة ونواميس ثابتة.

فعل الكندي ما لم يتجرأ على فعله إلا قله من قبله وهو أنه استخدم الفلسفة ليحرر القرآن من العقول الحرفية الجامدة، وكانت خطوة كبيرة في اتجاه روحانية متنورة نحو عالم أكثر تعقيداً، وكانت طريقة لجعل الدين يعني شيئاً مفهوماً لأولئك الذين حل المنطق والعقل عندهم محل الإتباع الأعمى.

الطبيب والفيلسوف

أنكر بعض الفلاسفة المتطرفين مثل الرازي الوحي، وبدا الآخرون ينجذبون نحو فلسفة من نوع أكثر تصوفاً، وكان نصيرها الأول ابن سينا، وهو طبيب ومفكر لامع، يعلو في سماء التاريخ الإسلامي، بحيث أن إيران ودولاً أخرى تدعي بأنه أحد أبنائها– على الرغم من أنه ولد.بما يعرف اليوم بأوزبكستان.

أصبح ابن سينا مهتماً بالفلسفة في شبابه بينما كان يستمع إلى نقاشات أبيه وأخيه في أحدث البدع ألا وهي الفيثاغورسية الجديدة، ويعرف طلاب المدارس فيثاغورس بأنه مَن أوجد النظرية المعروفة أ(2)+ب(2)= س(2). ولكنه فعل أكثر من مجرد التفكير في المثلثات. ففي الواقع كان القائد لطائفة دينية تعبد الأرقام، باعتبارها مبادئ إلهية تعكس طبيعة الواقع، وكل هذا الكلام الباطني فتح شهية ابن سينا

لفلسفة استلهمها من نظرية فيثاغورس في القرن الثالث الميلادي، التي كانت مشهورة لعدة قرون.

وعرفت هذه بالأفلاطونية المحدثة، التي كانت في الأساس تعتمد على فلسفة أفلوطين وهو أحد أتباع أفلاطون الذي سعى إلى جمع الفلسفة اليونانية ودمجها مع التراث الصوفي للشرق، وكما فعل أفلاطون، سعى أفلوطين إلى دمج الأفكار السامية، وكلها ضمن خانة «الواحد»، وبدأ الخلق عن طريق عملية تعرف بـ «الانبثاق» أو «الفيض»، وانبثق من الواحد الفكر، ومن ثم الروح، ووفقاً لأفلوطين، كان هذا الفيض كالنور من الشمعة التي تخفت تدريجياً. ونحن في الجهة المظلمة، بعيدين عن المصدر ولكننا جزءٌ منه، وبالاعتراف بهذه العملية الأبدية للبعث والعودة، يمكن للعقل البشري أن يتحرر من العالم المادي والعودة إلى الواحد، حيث الموضوع والهدف هما الشيء نفسه.

أخذ ابن سينا هذه الفلسفة الحديثة وحاول أن يوافق بينها وبين الإسلام، ففي بادئ الأمر وضع الله مكان الواحد، وكان الله هو من يقوم بعملية الفيض في دورة لا نهائية، ثم حاول أن يبرهن على وجود الله منطقياً، كما فعل أرسطو من قبله.

وكان برهان أرسطو على وجود الله هو كالتالي: ما يميز الكون هو التغيير، من كائن محتمل إلى كائن واقعي، والحركة كانت وراء كل أنواع التغيير، وكل ما يتحرك لا بد من سبب يدفعه للحركة، وإذا أخذنا هذه النظرية إلى المستوى الكوني، فيبدو أن الكون نفسه في حاجة إلى شيء

يجعله يتغير ويتطور من الاحتمال إلى الواقع، وهذا كان المحرك الذي لا يتحرك.

والمحرك الذي لا يتحرك، على عكس الكون كله، كان واقعاً نقياً، وأبدياً وغير قابل للتغير ومنفصلاً عن العالم المادي المتغير، وهذا يشبه مفهوم أفلاطون للمثل العليا ولكن ثمة فرقاً جوهرياً: لم يرَ أرسطو العالم المادي وكأنه مجرد ظل للمحّرك الذي لا يتحرك، بل كان ذلك العالم انعكاساً أو شاهداً على السببية الإلهية التي كانت هي نتيجتها، وبدراسة الطبيعة نستطيع أن نرى أثر هذا المصدر الكوني.

ولاحظ ابن سينا بعض المشكلات في نظرة أرسطو للكونيات، خاصةً من وجهة نظر إسلامية، فلو كان الله معزولاً بطريقة ما عن الخلق المادي، فهذا يعني أن المعجزات مستحيلة، ولأن الله لم يوقف أو يعلّق القوانين الفيزيائية لأنه من المستحيل وجوده هنا، في هذا الكون المادي، ناهيك عن حقيقة أنه إذا كان الكون أبدياً والله ابدياً، إذاً كيف قام الله بعملية الخلق؟

وربما يمكن حل كل شيء بالقول إن الله لم يكن المحرك الذي لا يتحرك بل الوجود الضرورة، وعوضاً عن التركيز على الحركة والتغيير، استخدم ابن سينا مبادئ الذات والوجود، والعلة والمعلول ليصل إلى برهانه، والذات هو الذي يحدد كنه الأشياء، بينما الوجود هو الكينونة أو احتمالاتها، فإذاً ما العلة وما المعلول؟ إن هذا شبيه بمسألة، «من جاء أولاً، الدجاجة أم البيضة»؟

وعاجلاً أم آجلاً، وبارتداد لا متناه، ستصل إلى الخالق الذي يكون تعريفه هو وجوده. وهذا هو الله. وهو موجود لأن كلا المقولتين ينبغي أن تبدآ من مكان ما، إذن عند ابن سينا، إن الله ضروري وهو سبب كل شيء، وكل شيء في الكون مشروط - ويعتمد تأثيره على شيء آخر - ويكون جزءاً من دورة جوهر الوجود والعودة إليها.

ومن ثمة توجب عليه معالجة مشكلة الروح، اعتقد ابن سينا كأرسطو أن الروح تحتوي على جزء من الفكر الإلهي، لكن في حالة ابن سينا فإن الفكر الإلهي هو الله، وقادته هذه الفكرة إلى الافتراق عن أرسطو، الذي كانت الروح عنده مادية، وإذا كانت الروح تحتوي على جزء من الله في جوهرها، لذا يجب أن تكون خالدة، فكيف يمكن لجزءٍ من الله ألا يكون خالداً؟

ومع ذلك تركت فكرة البعث الجسدي، واتفق مع أفلوطين وأرسطو بأن الكون أبدي، وإذا كانت هذه الحالة فلن تكون هناك «نهاية للزمن» حيث يحدث البعث كما ذكر القرآن، هل يلمح بذلك إلى أن القرآن كان على خطأ؟

رد ابن سينا، لا، لم يكن خاطئاً على الإطلاق، فقد كيّف الأنبياء مثل محمد وعيسى رؤياهم لتلائم حاجات مستمعيهم، وكانت هناك معان حرفية لبطيئي التفكير وقليلي الروحانية، وهناك لغة مجازية للموهوبين عقلياً. وإذا ذكر محمد (صلى الله عليه وسلم) بعث الجسد، فذلك لأن عامة الناس [أو العوام] لا تستطيع فهم هذه التعقيدات الروحية لما

يحاول قوله، أما النخبة الفكرية[أو الخواص] فلا تواجه أي من هذه المشكلات، وفي الوقت الذي أكد فيه ابن سينا البعث الجسدي في أعماله الموجهة إلى العوام، إلا أنه رفضه رفضاً باتاً في أعماله الموجهة إلى الخواص.

حاول ابن سينا ومثله فعل الكندي التوفيق بين الرؤيتين العالميتين المتباينتين، وهما الوحي والمنطق، كان من الواضح أنه انحاز لأرسطو أكثر من انحيازه لمحمد (صلى الله عليه وسلم). وكان ابن سينا أقل نزوعاً للحلول الوسط من الكندي، لذا تبع ابن سينا التسلسل الطبيعي للتفكير الفلسفي الذي بدا كأنه على خلاف مع أقسى العقائد في الدين الإسلامي، وهي معرفة الله غير المحدودة، وطبيعة العالم المحدود، وبعث الجسد، وكان هذا تحدياً لا يمكن السكوت عنه.

الوحي والمنطق

أنيطت المسؤولية بأبي حامد محمد الغزالي لمواجهة هذا التحدي. وهناك أشخاص قلائل في التاريخ الإسلامي أثاروا الاحتقار أو الإعجاب لشخصهم مثل الغزالي، فعند البعض يُعدّ الغزالي أعظم المفكرين الإسلاميين، فهو عالم ديني، نرى تأثيره القوي حتى يومنا هذا، أي بعد ما يقارب من ألف عام بعد مماته. أما البعض الآخر فيعدونه «جلاد» الفلسفة ومتطرفاً دينياً، أسهمت كتاباته في تدمير العقلانية في الإسلام، وقادته إلى العصور المظلمة من التعصب الديني.

ولد الغزالي في بلاد الفرس في عام 1058، وفي عمر الثالثة والثلاثين كان يدرس علم الدين في جامعة بغداد، كان معلماً ماهراً وباحثاً مشهوراً جداً، يدرس في كل مرة صفاً يتكون من ثلاثمئة طالب، وبعد قضائه في التعليم مدة أربعة أعوام، مر بأزمة اجتاحت قلبه وروحه، وعانى من انهيار عصبي وروحاني، وطرح جانباً كل ما كان يؤمن به، وترك عالم الجامعة الأكاديمي وعلم الكتب وراءه، وانتقل إلى الصوفية.

ولمدة من الزمن شكك الغزالي في كل شيء، في علم الدين، والقانون والفلسفة والعقيدة والتقاليد، وكان ما يسمو إليه هو الحقيقة، لا بل أكثر من ذلك، كان يريد معرفة حقيقة كل شيء، وبدلاً من أن يتبع الطريقة اليونانية، وهي البحث عن التعاريف والنواميس التي تدل على الحقيقة المطلقة، قرر الغزالي أن يحاول إيجاد المعنى الحقيقي للمعرفة، ولم يكن السؤال «ما هي الحقيقة؟» كما قال اليونانيون، بل « كيف أعرف ماهية الحقيقة؟»

لم يكن الغزالي ليقتنع بالاحتمالات البسيطة، كان يروم اليقين المطلق، وكلما فكر بما يعلمه أدرك أنها غير حتمية جميعاً، وسأل نفسه إذا كان الإدراك الحسي يؤدي إلى الحقيقة، فقرر أنه يفضي إلى الحقيقة، لأنه يمكن خداع الحواس، كما يحدث عندما تدرك العين بأن الظل الذي تلقيه الساعة الشمسية ثابت ولكنه في الحقيقة متحرك، إذاً، هل تؤدي الحقائق الفكرية إلى الحتميات؟ لا، مرة أخرى، ألا تبدو الأحلام كالعالم المادي بينما هي في الحقيقة مجرد أحلام؟ هل يستطيع التمييز بينهما؟

«ربما» وأضاف « الحياة في هذا العالم كالحلم».

وما كان لافتاً للنظر هو أن معظم طلاب الفلسفة الغربية سمعوا هذه الحجج من قبل، وكانت مطابقة لتأملات رينيه ديكارت الذي يعده الكثيرون أول فيلسوف حديث، وتمجد الكتب المدرسية المنهجية قرار ديكارت الحاسم بالانتقال من دراسة الكونيات، ودراسة الكون، إلى دراسة المعرفة، وتعجبوا من تأملاته في كيفية معرفته بكل ما كان يعلمه، وما هو مؤكد، وهل المعرفة ممكنة أم لا؟ ويعدّ الغزالي عند الكثيرين الرجل الذي بشر العالم جميعاً بالتنوير أو النظرة الجديدة للعالم الحديث، وهاهو الغزالي الملقب بـ«جلاد» الفلسفة، يقول الأشياء نفسها ولكن قبل خمسمئة وخمسين عاماً.

إذاً لماذا انتقد العقلانيون الغزالي بشدة؟ لأنه في نهاية المطاف لم يقرر بأنه الشيء المؤكد هو : أنا أفكر، لذا أنا موجود.

يعدّ الله عند الغزالي اليقين الذي كان يبحث عنه، وكل ما هو حقيقي يأتي من عند الله، وخطرت تلك الفكرة بباله في لحظة إبصار روحية، حيث اختبر الحقيقة المطلقة بأنها النور الذي ألقاه الله في صدره، وإلى حد ما لا يمكن السعي وراء الحقيقة، فهي نعمة من عند الله يمنحها بأسلوب صوفي خارج المنطق والبرهان والتصور الحسي.

ومن المثير للاهتمام أن رينيه ديكارت المفكر المعاصر البارع ادّعى بأن الله هو المصدر الأساسي للحقيقة، الفرق الوحيد بينه وبين الصوفي الفارسي هو انه عند ديكارت وجود الله يثبت قدرة العقل الإنساني

على اكتشاف الحقيقة، وحاجج قائلاً بما أن الله كامل وخير، فلن يعطي للناس العقل لكي يخدعهم باستخدامه، ومما لاشك فيه أن بعض الناس سيشعرون بالارتباك عند ملاحظة نقاط التشابه بين هذين المفكرين المختلفين اختلافاً شاسعاً.

وعلى العكس من ديكارت، اعتقد الغزالي أن الفلسفة مضيعة كبرى للوقت، من حيث كونها نظاماً لكشف الحقيقية، فهي تبدو غير مؤهلة، لأنها لم تشبع عنده الفقر الروحي الداخلي، ولهذا السبب تحديداً ألف المنطق والايمان هذا الاتحاد الرائع، فأحدهما يخاطب العقل والآخر يناشد القلب، وربما قدم كلا النظامين أشياء جديدة، فالغزالي بكل تأكيد يعلم كل الأحاييل المنطقية للفلسفة وقد استخدمها بشكل فعال في كتاباته، وقد هيمن الفلاسفة مدة طويلة على الخطاب العقلي، وقد آن الأوان لتحجيمهم وإرجاعهم إلى حقيقة قدرهم.

وجاء توبيخهم بنقد الغزالي اللاذع في «تهافت الفلاسفة»، ففي هذا الكتاب واجه أخيراً كلاً من أرسطو وابن سينا وجهاً لوجه، ودحض حججهما العشرين الواحدة تلو الأخرى حول العالم الأبدي والبعث غير المادي، وفي إحدى انتقاداته التي اتسمت بالعمق سبق أحد فلاسفة عصر التنوير وهو دافيد هيوم، وذلك عن طريق إثبات أن النتائج (المعلولات) لا تتبع المسببات (العلل) بالضرورة.

و إحدى المسائل الرئيسة عند الفلاسفة تقول: بما أن الله كوني، فلا يمكن أن يعلم تفاصيل عمل الكون، فقد كان العالم جبرياً والإرادة الحرة

مجرد وَهْم منذ ظهور القانون الطبيعي (إحدى مقولات أرسطو العشر) يملي فيها كيفية عمل الأشياء وتطورها، وهذا لم يعارض القرآن فقط بل المنطق أيضاً، وبدا أن الناس أصبحوا قادرين أن يتخذوا قرارات تمس مصائرهم، ومع ذلك حاول الفلاسفة أن يبرهنوا على الصلة بين الكون والتفاصيل عن طريق المنطق، وأظهر الغزالي عقم هذا السعي.

ونظرية ابن سينا بأن الله ضرورة لم تكن ذات معنى. ألم يقل أرسطو أن العالم يملك قدرة كامنة يمكن إثارتها وإخراجها إلى الفعل؟ فسأل الغزالي كيف تكون «الضرورة» في عالم ذي إمكانية، وهو عالم «الاحتمال»؟ وباستخدام منطق الفلاسفة أنفسهم وجه الغزالي ضربة موجعة لهم مبرهناً أن الله لا يمكن أن يثبت منطقياً - وهو ما كان هدفاً أساسياً للفلاسفة طوال ألف عام. وفي نهاية كتابه انتصر الغزالي على الفلاسفة نصراً مدوياً.

وتطلب الأمر مئة سنة لإعادة المباراة، وكان الموقع في الجهة الأخرى من العالم، في الأندلس.

تهافت التهافت

ومن أشهر الفلاسفة المسلمين في إسبانيا أبو بكر ابن عبد المالك ابن طفيل (1116- 1184) لذي اشتهر كثيراً بكتابه الفلسفي الخيالي «حي بن يقظان». عند ولادة حي هجره أهله وترك في جزيرة صحراوية ليربى على يد ظبية، وتعلم حي البقاء على قيد الحياة بعد أن عاش وحيداً في

هذه الجزيرة باستثناء رفاقه من الحيوانات، حتى إنه علم نفسه قوانين الطبيعة بتوظيف الأسلوب العلمي للملاحظة والاختبار، ولاحظ سريعاً أن ما يميزه عن بقية المخلوقات هو قوة الإدراك الذي يستخدمه عقله المنطقي ليفهم أموراً كثيرة، حتى إنه علّم وافداً جديداً إلى الجزيرة ويدعى أبسال.

استبق ابن طفيل اهتمام ديكارت بالعقلانية بمئات السنين، كما فعل عدة فلاسفة مسلمين، ولكن تأثيره كان بعيد المدى، لأن عمله ألهم قصة أخرى لرجل منبوذ على جزيرة صحراوية، وكان الكتاب لدانيال دوفو واسمه «روبنسن كروسو»، ونشر بعد أحدى عشرة عاماً من ترجمة كتاب ابن طفيل للإنجليزية في عام 1708.

ولم يكن عمله الأدبي هو الأعظم تأثيراً على العالم، ولكن صداقة معينة، وكونه طبيب البلاط وأحد رجال الحاشية الملكية للموحدين، أمّن ابن طفيل مركزاً لصديقه [ابن رشد] في البلاط، والذي ستزين صورته مكاناً غير مألوف بعيداً عن الشرق.

وصديق ابن طفيل هو المسلم الوحيد المقيم عند الفاتيكان، وقد لاحظه الزوار هناك منذ قرابة عام 1510، بأنه جزء من اللوحة التي تصور الاجتماع المهيب والمعروف بـ «مدرسة أثينا»، وقد رسمها رافاييل وهو عبقري النهضة، وهذه اللوحة الجصية تظهر أعظم المفكرين على مر العصور وأفلاطون وأرسطو في الوسط. وباتجاه الأسفل هناك الرجل الذي جعل نفسه وأرسطو مشهورين في أوروبا، وعرفته أوروبا في

العصور الوسطى النصرانية بـ«أفيروس»، أو المعلق، كان اسمه الحقيقي أبو الوليد محمد بن رشد، وكان أعظم فيلسوف في أوروبا، وبالرد على تحدي الغزالي، سيستهل ابن رشد ثورة ستدمر عقلية القرون الوسطى وتدخلنا إلى العالم المعاصر الذي نعرفه.

ولد في قرطبة عام 1126 من عائلة ذات نفوذ تتألف من محامين وقضاة. وفي جامعة قرطبة، حيث كانت هناك مكتبة تحتوي على نصف مليون مجلد، درس ابن رشد مهنة الأسرة متخصصاً في الطب والقانون، وبعد تخرجه مارس الطب في الأندلس ومراكش في شمال إفريقيا، وكان هناك حيث أقام البربر حكمهم، وهم مسلمون إفريقيون احتلوا دول الطوائف، كان البربر متعصبين دينياً، لكنهم دعموا الفلسفة دعماً كبيراً، وبوساطة من ابن طفيل، عرض على ابن رشد مركز القضاء في إشبيلية، وكان من ضمن مهام عمله أن يدرّس دروساً خصوصية لسلطان البربر عن كتابات أرسطو الغامضة، وتحت رعاية الحاكم، عاد إلى قرطبة وعاش عقداً من السعادة. وفي عام 1182 أصبح طبيب السلطان الخاص حتى وفاته بعد ثلاثة أعوام.

وعندما تسلّم الحكم ابن السلطان وهو المنصور، بدأ نجم ابن رشد بالأفول، وفي عام 1195 نفي ابن رشد من قرطبة وأحرقت كتبه الفلسفية، وبفضل الأقلية اليهودية التي ترجمت أعماله إلى العبرية، نستطيع الآن أن نقرأ تعليقاته التي أغضبت الحاكم، وبعد عامين من إعادة تنصيبه سرعان ما توفي ابن رشد في عام 1198، وبعد ذلك بعدة عقود صفعت

أفكاره الضمير الأوروبي كحجر يرمى على نافذة زجاجية.

ما الذي سبب النفي والعار المفاجئ؟ فجلّ ما كان يفعله ابن رشد كل تلك السنين بعد تركه لعمله هو كتابة تعليقات عن أرسطو، وكلمة «تعليقات» لا تعطيه حقه، لم تكن كتابات ابن رشد مجرد سلسلة من الملاحظات الجانبية المملة عن الفكر الإغريقي، بل كانت في جوهرها تأملات عميقة، وأعمالاً فلسفية أصيلة تستخدم أرسطو كنقطة بداية للانطلاق إلى عالم أوسع.

وبغض النظر عن تعليقاته، كانت أشهر أعماله هي «تهافت التهافت»، وهي رد سريع ومباشر على الغزالي، وفيه واجه اعتراضات الغزالي الأساسية على الفلسفة وهي عبارة عن الكون الباطني الذي يعتمد على السببية وجهل الخالق في تفاصيل الخلق، وإنكار البعث الجسدي، وهذه هي حجج ابن رشد المضادة للغزالي:

إذا خلق الكون في وقت محدد فإن هذا يبين أن لله قوة محدودة، وتوحي بأن الله أجبر على خلقه، وإلا لماذا لم يخلقه عاجلاً أم آجلاً؟ ويتساءل ابن رشد عن رفض الغزالي السببية وهي نظام القوانين الطبيعية الذي يجعل الكون يدور، فهو في نهاية المطاف نظام حركةٍ أوجده الله بحد ذاته، وإذا رفضنا نظامه، كأنما نرفضه هو، أليس كذلك؟ إن معرفة الله بتفاصيل الخلق كلام غير منطقي، ولأن الله هو الخالق، فإن معرفته حتماً تختلف عنا، ومعرفته هي معرفة التصميم أما معرفتنا فهي معرفة التفاصيل، الله هو السبب (العلة) ونحن النتيجة (المعلول)، لا يمكن

للمعرفة أن تكون هي ذاتها لله وللناس، وبرهن ابن رشد مسألته بكل ذكاء بنقله عن القرآن من سورة الأنعام، الآية 163 التي تنص على أن «لاَ شَرِيكَ لَهُ ». هل يستبعد هذا الإرادة الحرة؟ أبداً. فللناس اختيارات كثيرة، إلا أنها اختيارات مقيدة بقوانين الطبيعة. ويمكن التنبؤ بتصرف البشر من حيث الطبيعة والنشأة، وهي صياغة عصرية للموضوع برمته.

وكما فعل ابن سينا وفلاسفة مسلمون آخرون، أكد ابن رشد التوافق بين العقل والإيمان، وقال إن القرآن مؤلف من آيات سماها الرسول «أصوات» ويجب أن تفهم بشكلها الحرفي، ومن الواضح أن ثمة آيات أخرى أكثر غموضاً وتحتاج إلى الفلسفة لتفسيرها، أما علماء الدين وعامة الناس فلا يستطيعون أن يستوعبوا المعنى الحقيقي، وهي تتضمن الأجزاء المتعلقة بـ «البعث الجسدي» التي كانت تمثل لابن رشد طرقاً أو أساليب رمزية لشرح كيان جديد غير مفهوم للمخلوقات في العالم المادي.

كانت الحجة مذهلة وانتصاراً كبيراً للفلسفة الإسلامية، لو لم يكن ابن رشد قد تفوق على الغزالي مباشرة فإنه على أقل تقدير تعادل معه.

بعد انتصاره على علماء الدين المحافظين، أصبح ابن رشد مغروراً قليلاً، وقرر أن يواجه خصماً أكثر قوة، ولم تكن معركته الآن دينية بل سياسية، وفي أوج حياته، قرر أن يكتب شروحات على جمهورية أفلاطون [المدينة الفاضلة].

وجمهورية أفلاطون واحدة من روائع الفلسفة اليونانية والإنجاز

الأكبر للفكر اليوناني. فأفلاطون وضع مخططاً مثالياً ذاتياً لمجتمع مثالي، وكان يمكن لابن رشد استخدام تعليقاته ليشرح ببساطة كل التعقيدات الرائعة لهذا العمل الكلاسيكي.

لكنه ذهب أبعد من ذلك، استخدم ابن رشد جمهورية أفلاطون ليس فقط لمناقشة جمهورية أفلاطون المثالية ولكن لإظهار كيف هي أن الجمهورية الحالية، وهي دولة الموحدين للبربر، كانت بعيدة كل البعد عن المثالية.

وقد ادعى الكثير من الكتاب على مر السنين أن سقوط ابن رشد إلى الحضيض كان بسبب الأصوليين الدينيين الذين صدموا بعقلانيته، وقال هؤلاء إنه بعد ابن رشد فإن نار الفلسفة قد خبت في العالم الإسلامي. وكان هذا انتصاراً للتعصب على المنطق، وهذا سبب واضح لتراجع الإسلام عن الساحة الاجتماعية والثقافية.

في الواقع، لم يعان ابن رشد من الاضطهاد الديني، فتصريحاته المناهضة للدين كانت متداولة على مدى عقود، وإنما كان عمله في الفلسفة السياسية، وفي التعليق على جمهورية «أفلاطون»، السبب في حرق كتبه، وقد دعا في تعليقاته وشروحاته على أفلاطون إلى إجراء إصلاحات جذرية وثورية: مثل حقوق المرأة، وحل الزواج كمؤسسة اجتماعية، ونشر التعليم العام وتوزيع الثروات بالتساوي، وأسوأ من ذلك كله أنه تجرأ على مهاجمة الحكام البربر في الأندلس ووصفهم بالطغاة المنحطين الذين فقدوا ثقة الشعب الذي يحكمونه والذي أعطاهم الحق

في الحكم في المقام الأول، كان نداءً من أجل العدالة الاجتماعية التي ألهبت النار في عقول مفكرين متأخرين من أمثال روسو، وجيفرسون وماركس، ولأنه ناضل ضد الاستبداد والجهل، عُدّ مارقاً، وُدمّرت سمعته وروحه، وخلافاً للرأي الشائع في الغرب، كانت السياسة وليس الإيمان هي التي أصابت منه مقتلاً.

ولله الحمد، لم ينطفئ نوره، حتى حينما لم تكن كتبه سوى فحم ورماد. فقد تطايرت شرارات النار شمالا وشرقا، حملها تلاميذه اليهود، ومنهم إلى المسيحيين، بسبب تشوقهم إلى أسلوب جديد للنظر إلى العالم.

فلسفة ابن رشد

لم تستغرق المسيحية وقتاً طويلاً حتى رأت الغيوم تتجمع حولها، فقد حاولت الكنيسة أن تعالج الموضوع ببضع ضربات استباقية وإجهاضية، وفي عام 1210 كان أرسطو محظوراً في باريس، وفي عام 1231 عقد البابا غريغوريوس التاسع لجنة خاصة للبت في أي الأجزاء من أرسطو يستحق المحافظة عليه وأيها لا يستحق، وفيما كانت اللجنة تقوم بدراستها، حُظر أرسطو في العالم المسيحي بأجمعه، وفي عام 1263 جُدد هذا الحظر من جانب البابا الجديد، وعلى الرغم من محاولات الكنيسة، إلا أن دراسة أرسطو استمرت في الخفاء، وكذلك الأمر مع ابن رشد الذي ترجم أعمال أرسطو وعلق عليها وجعل أرسطو في

ذاكرة الناس ومخيلتهم.

هذا الإرث الإسلامي كان أساسياً في جعل المعرفة اليونانية تكتسب شعبية في أوروبا المسيحية، فقد وضعت أفكار ابن رشد حواراً يمتد عبر قرون بين الايمان والعقل، أعطى العقلانية الأوروبية انطلاقتها، وفلسفة أرسطو كانت شيئاً مهماً، ولكن ما قدم ابن رشد والآخرون لأوروبا كان رداً دينياً سامياً على المنطق اليوناني، وهو ما ساعد المفكرين من كلا جانبي النقاش على التعامل مع رسالة محيّرة ومقلقة جديدة وفدت من العالم الإسلامي.

إن هذه الرسالة كانت تقول ببساطة: إن البشر لديهم سلطة، كانت لديهم القدرة على استخلاص قوانين الكون الأبدية من خلال ملاحظة آثارها في العالم المادي. وعلى الرغم من أن النفوس الفردية قد تفنى مع الجسد، فإننا عند الوفاة سوف نبعث بروح واحدة، وهي التي تربطنا معا في سلسلة كاملة من الوجود.

وبطبيعة الحال كان هذا صدمة للكنيسة، فقد كان هجوماً على حقائق الكنيسة المقدسة التي كانت محددة للمجتمع منذ ما يقارب من ألف عام، وبدأت هذه الأفكار الخطيرة تتغلغل في العالم المسيحي من دول غزاها المسلمون حديثاً وهي صقلية وإسبانيا، وسرعان ما تغلغلت هذه الأفكار في جامعات إيطاليا وفرنسا. وقد سمي هذا الهجوم بفلسفة ابن رشد وكان أتباعها من المستعربين الملحدين، الذين عقدوا العزم على استعجال ظهور المسيح الدجال.

وكان بيترو دابانو، أستاذ الطب والفلسفة، الذي انتهى به المطاف أخيراً في جامعة بادوا في عام 1306، واحداً من أقوى أنصار فلسفة ابن رشد. كان رجلاً وقوراً ويعامل بتبجيل بحيث إن أحد طلابه عندما رآه يصل إلى قاعة المحاضرات صاح به، «مرحباً أيها المعبد المقدس!»

وسرعان ما أطلق لقب «كلية الهرطقة» على كلية بادوا التي يرأسها دابانو، وفي إشارة تحدٍ للأوامر الصادرة عن الكنيسة، أدخل دابانو أرسطو وابن رشد في مناهج الجامعة، ووجه الطلبة إلى دراسة علوم الفلسفة الطبيعية، التي ادعى بأنها ينبغي أن تكون الأساس الجديد للعلم، قام دابانو مع الآخرين بالتعبير عن مفهوم جديد في أوروبا على هدي من أفكار الرازي وابن سينا وابن رشد وبذلك عبّر دابانو والآخرون عن مفهوم جديد في أوروبا ربما كان من أعظم إسهامات الإسلام في العالم: وهو الأسلوب العلمي، ولم تعد الوسائل التقليدية والكتاب المقدس كافية لاكتشاف الحقيقة، وكانت الوسائل الجديدة هي الملاحظة والتجريب والمنطق، وبدا كأنما دابانو وطلابه على شفا اكتشاف عالم جديد وشجاع، ولكن محاكم التفتيش كان لديها خطط أخرى.

شجبت محاكم التفتيش التي ألفتها الكنيسة لمحاربة الهرطقة ولتحطيم حركة ابن رشد دبانوا وأدانته لمخالفته المعتقدات الكاثوليكية في خمس وخمسين فقرة من كتبه، ولكنه توفي في عام 1315، قبل أن يقدم إلى المحاكمة، ولكن هذا لم يمنع محاكم التفتيش، فأدانته على

أي حال، وأمرت بحرق جثته على وتد، وفقاً للرواية التاريخية، خبأ تلاميذه الأوفياء رفاته، ولذلك أحرقت الكنيسة دمية بدلاً من جثته.

وعلى أية حال، كان الأوان قد فات، وقد أدرك أحد طلبة دبانو ويدعى دانتي اليغييري دبانو قيمة مساهمات الفلسفة الإسلامية لهذه الحركة الجديدة، التي أصبحت تعرف بعصر النهضة، وفي بادرة نادرة ومؤثرة، وضع الشاعر ابن سينا وابن رشد في منطقة الأعراف بدلاً من الجحيم [في الكوميديا الإلهية]، حيث انضم إلى غيرهما من الفلاسفة العظام الذين كان من سوء حظهم أنهم ولدوا قبل ولادة المسيح، وقد اقتبس القديس توما الإكويني، على نطاق واسع من ابن رشد وابن سينا، وحاول أن يفعل ما فعله الكندي من قبله، ليوفق بين إيمانه والفلسفة الجديدة، وأصبح نظام القديس توما الإكويني الذي عرف بالسكولاسكتية المذهب الرسمي للكاثوليكية، ونهاية القرون الوسطى، وفي عام 1512، أدان المجلس الكنسي فلسفة ابن رشد، وأعلن أن كل من يتبعه زنديق وكافر، ولكن سواء اعترفت الكنيسة بذلك أم لا فإن فلسفة ابن رشد -وهي تراث الفلسفة الإسلامية، أصبحت جزءاً لا يتجزأ من التراث الأوروبي، وهي التي أضاءت طريقها إلى المستقبل، نحو آفاق جديدة للعالم الحديث.

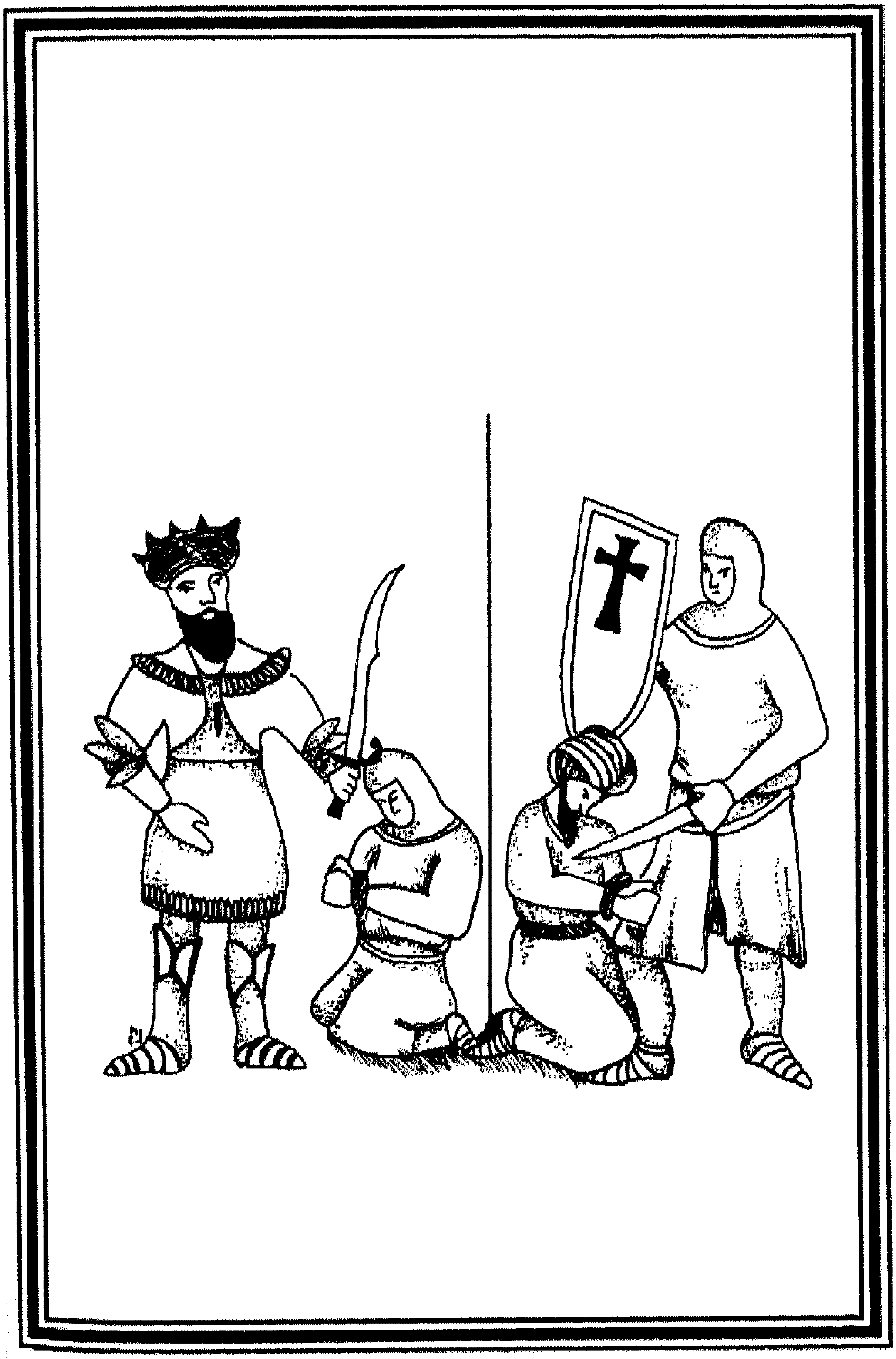

الفصل السابع

حرب العصور الوسطى على الإرهاب

في العصور الوسطى، كانت المسيحية محاطة بالكامل بالإسلام، كان الإسلام مسيطراً على آسيا وأفريقيا وعلى أجزاء من أوروبا، بالنسبة لمعظم المسيحيين كان هذا ذا أهمية ضئيلة، وكان الكثير منهم قد أغنى نفسه بالمتاجرة مع منافسيهم الدينيين، ولكن بالنسبة للاهوتيين كانت هيمنة الإسلام حالة مفجعة، ولذا ليس من الغريب أن يقوم رجال الدين هؤلاء برسم صورة سوداء «للكافر»، إذا ما اعتبرنا أن الرهبان المسيحيين كانوا المؤرخين الوحيدين للعصور الوسطى، فسيكون واضحاً لماذا حصل المسلمون مرة أخرى على أسوأ ما في الإعلام.

فلنأخُذ على سبيل المثال أغنية رولاند، الملحمة الوطنية الفرنسية. هذه القصيدة المفعمة بالحيوية عن القتال بالسيوف والتضحية بالنفس كانت مبنية بناءً واهياً للغاية على حملة شارلمان في إسبانيا الشمالية في عام 770. وبعد أداء هزيل في المعركة ينسحب الفرسان الفرنجة ويعودون أدراجهم عبر جبال البيرنيز، هوجمت حامية الجيش، وتَرَك رولاند الذي يمثل الفارس الفرنجي المتميز، رجاله لكي يقطعهم العدو إرْباً إرْباً من أجل إنقاذ الحاشية الإمبراطورية، ومما يدعو للغرابة، أن الشاعر يستبدل المسلمين بالباسك المسيحيين الذين ألحقوا بهم الأذى فعلاً.

وقد هجا المؤلف خصوم رولاند هجاءً مقذعاً، ولكنه يظهر في الوقت عينه ليُظهر جهله المروع بالمسلمين ودينهم، جعل المؤلف المسلمين من خلال رغبته بتصويرهم كجانب مظلم للمسيحية، يعبدون ثالوثاً مقدساً يتكون من أبولو ومحمد و«ترفاجين»، ويُشير أيضاً إلى استخدام عبدة الأوثان الملحدين هؤلاء إلى التماثيل في طقوسهم الشيطانية.

تكون جميع هذه الاتهامات بالشرك بالله وعبادة الأوثان مضحكة أكثر عندما نأخذ بعين الاعتبار أن الركن الأساسي للعقيدة الإسلامية هو أنه لا إله إلا الله (الإله الواحد) وأن القرآن يُحرّم استخدام أي نوع من الصور في العبادة، وعندما ننظر إلى مسيحيي العصور الوسطى من ناحية أخرى نجد أنهم لا يعبدون الله فحسب وإنما يعبدون ابنه وروحه وأم ولده/ ابنه أيضاً، علاوة على ذلك، فإن أي مسلم يدخل إلى كنيسة ما في ذلك الوقت ستفاجئه بلا شك الأعداد الوفيرة من صور- أو ما يمكن تسميته بالأوثان – للمسيح والعذراء والقديسين، من دون ذكر الذخائر المقدسة التي تبجل لقواها الإلهية الشافية.

وعلى الرغم من أنه يزدري المسلمين بسبب دينهم إلا أن مؤلف رولاند يمتدح بعض المسلمين على صفاتهم الحسنة مثل الشجاعة ومهارة استخدام السيف كما يلمح إلى ثرائهم الكبير وثقافتهم المتفوقة، وإن كانت على نحو خفي، عن طريق وصف ثيابهم ودروعهم وأسلحتهم البديعة، ولكن مهما كان العدو رائعاً فإن أفضل ما يمكن أن يقوله الفرنجة عن المسلم هو: «يا إلهي، أي سيد هذا، لو أنه كان مسيحياً فقط!».

لماذا يبذل الفرنجة كل هذا الجهد لإيذاء المسلمين؟ لماذا يُعيدون كتابة التاريخ؟

يكمن الدليل في تاريخ التأليف، في حوالي عام 1090، إنها مجرد مصادفة أنه في ذلك العقد من الزمن بدأت مجموعة من المتطرفين الدينيين بالتبشير بحرب مقدسة ضد أعظم إمبراطورية في العالم، امتعض هؤلاء البرابرة من الثقافة المتفوقة والمعرفة العلمية والدين المتسم بالعقلية المتفتحة للإمبراطورية الإسلامية، في الحقيقة لقد كره المتعصبون نمط حياة المسلمين برمتها، وقام بعض كهنتهم الأكثر تطرفاً بتنظيم جيشٍ من الإرهابيين لمهاجمة الإمبراطورية في أحد أكثر أماكنها قدسية، لقد باغتوا مدنيي الإمبراطورية، وذبحوا الآلاف تلو الآلاف في حمام دم جنوني، لم يكن لدى الإمبراطورية خيار سوى شن الحرب دفاعاً عن المدنيين.

قليلون هم من يفرقون بين ذلك الوقت والآن باستثناء من هم على الطرف المتلقي، هذه هي الدورة القبيحة للإجحاف والجهل والموت التي بدأها الأوروبيون في الحملات الصليبية.

الخير ضد الشر

إذا كان ثمة شيء واحد قد أثار اهتمامي بالتاريخ وبالعصور الوسطى على وجه التحديد، فإنه كتاب وجدته في مكتبة مدرستي المتوسطة عندما كنت أبلغ من العمر اثني عشر عاماً، لقد كان بعنوان الحملات

الصليبية «لأنتوني وست» وكان يروي قصة الحملة الصليبية الأولى من أجل «إنقاذ الأرض المقدسة من المسلمين»، ما زلت قادراً على التذكر بوضوح الرسومات التخطيطية للفرسان ذوي الشوارب وهم يُقطِّعون ممتطي الخيول المعممين، وأيضاً الوصف المريع لتقطيع أوصال «المسلمين» المأسورين، وقطع رؤوسهم من دون أن يكون لدي أية فكرة عمن يكون هؤلاء المسلمون، جعلني الكتاب أعتقد أنهم لم ينتموا إلى «الأرض المقدسة». نحن– المسيحيين الغربيين– نطالب بالحق في تلك القطعة المقدسة من الأرض؛ لأن المسيح مشى هناك منذ ألف عام مضت، وقد استحوذ هؤلاء «الناس المحاربون» بطريقة ما على ملكية الأرض المقدسة، والأسوأ أنهم حصلوا على القدس. لقد كانوا يُصعِبون الأمور على الحجاج المسيحيين، والمسيحيين المساكين الآخرين الذين ما زالوا يعيشون هناك. كان يجب أن يوضع حدٌ لهؤلاء المسلمين!

أدخلني كتاب «وست» في حقبة كانت ما تزال فيها المآثر العظيمة ممكنة، عالم كتاب قصص مصورة عاش فيه الأبطال والأوغاد فعلاً، هنا أعطى الله للناس نصراً على أعدائهم في المعركة، وقاتل رجالٌ رجالاً آخرين بأفضل نية – ليُرسلوا إلى الجحيم أناساً كان يجب أن يكونوا هنالك على كل حال، كان التاريخ هو بمثابة رواية الأطفال المشهورة بـ«سيد الخواتم» وكنا نحن الرجال، بينما كان «المسلمون» هم الوحوش الخرافية، لقد تخيلت نفسي أحد الفرسان الفرنكيين، مرتحلاً نصف الطريق عبر العالم للمشاركة في القتال الخيّر، والحرب العادلة.

هذا التاريخ الملحمي جعل الخيال يبدو حقيقة.

على الرغم من أن الكلمة الفعالة هي «يبدو»، فمعظم التاريخ الغربي حول الحملات الصليبية كان محض خيال لا علاقة له بالحقيقة، فالروايات المُحرّفة ثقافياً ودينياً تحريفاً مبالغاً فيه، مثل تلك التي قرأتها تُواصل تأجيج روح الكراهية بين المسلمين والمسيحيين اليوم، إن تاريخ العصور الوسطى ليس فقط روايات عفا عليها الزمن عن رجال ميتين، لقد أصبح مخططاً حياً للقيام بحروب جديدة على الإرهاب، بعد الأحداث المروعة في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001، بشّر جورج دبليو بوش «بحملة صليبية» جديدة، لم يستخدم المصطلح استخداماً واضحاً، لكن كل من استمعوا له علموا ما الذي كانت تدور حوله الحملات الصليبية: النور ضد الظلام، بأكثر من طريقة واحدة.

إنه لشيء غريب ألا تكون التفاعلات الثقافية بين الجمهوريات الإيطالية مع الإسلام، ولا القبول الأوروبي لفلسفة ابن رشد الثورية، ولا نشوء تلك الجمهوريات كإقليم متحضر بفضل الطب والعلم والرياضيات الإسلامية أن تكون هي التي تصنع كتب التاريخ، وإنما كانت هنالك مواجهة واحدة بين أوروبا والعالم الإسلامي تستحق الذكر: إنها الحملات الصليبية بتطرفها المشهود.

ولحسن الحظ بدأ بعض المؤرخين في السنوات الأخيرة بهدم الهالة المقدسة التي تحيط بهذا العدوان الإرهابي، ولكن عند الأغلبية، الموضوع العام للكتاب الذي قرأته منذ سنوات مضت مازال يحتفظ بالحقيقة:

المسلمون هم دائماً المعتدون، وحياتهم مختلفة أختلافاً أساسياً عن حياتنا، ودينهم مزيف، وليس له صلة «بالإرث المسيحي-اليهودي». والأكثر أهمية، أن جهادهم المرعب يكون دائماً ذا مسوغات أقل من حملاتنا الصليبية التي تدّعي الصلاح والاستقامة.

هذه الأكاذيب صنعت حقائق عن طريق عدسة الجهل والتعصب المشوه التي بدأت جميعاً في عام 1096، وعلى الرغم من أن الأحداث التي أدت إلى الحملات الصليبية كانت قد بدأت من سنوات عديدة سابقة.

انشقاق الإسلام الكبير

كانت الإمبراطورية البيزنطية، المعقلُ المسيحيُّ الوحيدُ في الشرق، هدفاً دائماً للجيوش الإسلامية، وعن طريق سيطرة البيزنطيين على مضيق البوسفور، بوابة البحر الأبيض المتوسط، احتفظوا بجائزة ثمينة كان يمكن أن يدافعوا عنها ليس فقط ضد المسلمين وإنما ضد الأوروبيين أيضاً، وقد تقلصت الإمبراطورية البيزنطية من إمبراطورية عظمى إلى قوة إقليمية صغرى.بمرور الزمن، كانت الجيوش الإسلامية تدك معاقل القسطنطينية كالأمواج المتلاطمة، في كل عام كانت هناك أجزاء من المملكة اليونانية تنضم إلى أرض الإسلام، بحلول القرن العاشر كان الأمر يبدو كأنما الإمبراطورية البيزنطية على وشك أن تُباد.

ثم جاءت ثورة من داخل الإسلام. وفي الوقت الذي انتهت فيه

كان العالم المسلم بأكمله في خراب، بعد وقت قصير أدى الفراغ في السلطة إلى فسح المجال أمام الحملات الصليبية، وقمّامين يقتاتون على إمبراطورية عظيمة أوهنها الانشقاق.

مثل المسيحية الغربية، لم يكن الانقسام غريباً عن الإسلام، وما زالت هنالك العديد من الفوارق الطائفية والمذهبية التي تقسم العالم المسلم اليوم، ولكن لم يكن هنالك فارقٌ في الرأي أكثر عنفاً من ذلك القائم بين السنة ونوع جديد من المسلمين الشيعة.

بدأ المذهب الشيعي كاحتجاج سياسي ضد الخلافة الأموية، وما كان في البداية مجرد حركة للعرب ضد خلفاءٍ ليسوا أقرباء للنبي، ضموا بعد وقت قصير الفرس، الذين استاؤوا من عنصرية الأمويين الذين كانوا قد بذلوا كل جهد لمنع الفرس من أجل الوصول إلى مراكز عليا في السلطة.

بعد الإجهاز على الأمويين، أسست الخلافة العباسية أمة إسلامية انتشرت من منتصف آسيا إلى المحيط الأطلسي [بحر الظلمات]. دخلت مجموعات عرقية كبيرة في الإمبراطورية، كان الكثير من هذه المجموعات، وخاصة الفرس والبربر، قد ضاقت ذرعاً بوضعها في المنزلة الثانية، حتى ضمن النخبة العربية تعاظم بسرعة كبيرة استياء فئة اجتماعية جديدة من الحرفيين والتجار من بذخ وتبذير الطبقة الأرستقراطية.

بالنسبة لهذه المجموعات المستبعدة المختلفة، كان المذهب الشيعي

الجديد بديلاً عن المذهب السني التقليدي مرحباً به، لقد وَعَد المذهب الشيعي أتباعه بعودة قائد روحي يُعرف بالمهدي، وينحدر من نسل ابن عم النبي وصهره والقائد الإسلامي العادل علي بن أبي طالب، وبعودة الإمام، فسوف يُسترجع النقاء المفقود للإسلام، جامعاً بين كل الفئات والأعراق، لم يكن هذا الإمام الجديد قائداً دينياً بسيطاً ولكنه كان موجّهاً من الله ولذلك فهو معصوم، يجب ألاّ يُفسر القرآن بحرفية لكن ثمة معانٍ خفية ورمزية متاحة للنخبة فقط. حينما ساعد المذهب السني في تدعيم الإرث الاجتماعي للعباسيين، كان المذهب الشيعي يُنادي بالمساواة بين البشر، جاذباً المنبوذين والمحرومين من حقوقهم الشرعية، بصورة مشابهة جداً لما فعلته المسيحية قبل قرون.

كان المذهب الجديد سريع الاتساع، نشر الدعاة، أو المبشرون، خبر الإمام المختفي الذي ما تزال هويته محجوبة بسرية حتى هذا اليوم، لقد نظم الشيعة أنفسهم في خلايا امتدت في جميع أرجاء الخلافة، وكان الشيعة طائفة دينية سرية تواجه بصورة متكررة القمع والإعدام تشابه مرة أخرى صورة تجربة المسيحيين الأوائل، وحينما فرّق الشيعة وحدة الإسلام وقع المذهب نفسه ضحية الانشقاق، وظهر في سنوات لاحقة مذهبان رئيسيان: الاثنا عشرية والسبعية، والتي سُميت بذلك بسبب خلافهم على خلافة الإمام.

وعلى الرغم من ذلك لم يكن لهذه الفروق الدينية تأثير كبير في تخفيف قوة رسالتهم، في عام 893، قام شخص من اليمن يُدعى أبو عبد

الله الشيعي بتحويل البربر إلى شيعة، باعتبارهم فئة عرقية دنيا في شمال أفريقيا ذات الهيمنة العربية، كان البربر مقاتلين أشداء ومعتنقين للدين الجديد، وقام أبو عبد الله بوساطة جيش مشترك بين الشيعة والبربر باحتلال سلسلة من الدويلات العربية في شمال أفريقيا وأعلن مملكته الجديدة على أنها الخلافة الحقة في عام 909. حكمت السلالة الحاكمة الجديدة، التي عُرفت باسم الفاطميين، مصر طوال المئتين والخمسين عاماً اللاحقة.

كان تأثير قيام الدولة الفاطمية عاصفاً، فلأول مرة منذ قرون، تحدى أحدهم سلطة الخلافة العباسية وأسس مذهباً جديداً يُطالب بولاء الأمة المسلمة، ويعتقد الفاطميون خلافاً للسنة بإمام معصوم لا يُذنب ويُمثل الله بنفسه.

لقد انتهى الإسلام كإمبراطورية عالمية موحدة.

[الطاغية الروماني] كاليغولا على النمط الفاطمي

بحلول منتصف القرن العاشر كان الفاطميون قد وصلوا إلى ذروة مجدهم، وبغزوهم شمال أفريقيا كلها بحلول العام 973 استعدوا للقضاء على الحكم العباسي نهائياً، ولكن ثلاث مجموعات أُحبطت خططهم. كانت الأراضي العباسية قد سقطت في أيدي الشيعة البويهيين، السكان الأصليين لبلاد فارس، في ذلك الحين كان القرامطة (وهم مجموعة متطرفة من الشيعة الذين كانوا قد نهبوا مكة وسرقوا الحجر الأسود من

الكعبة) قد انشقوا عن أبناء عمومتهم الأقل تشدداً في الغرب وقاموا بمهاجمة الجيوش الفاطمية في بلاد الشام، فصدوا تقدمهم نحو العراق، في الوقت نفسه كان البيزنطيون قد استغلوا الفوضى الحاصلة في العالم الإسلامي لإعادة احتلال بعض من أراضيهم القديمة.

كانت هنالك حوادث مضطربة في الجبهة الوطنية أيضاً، حيث تمركز الجميع حول الخليفة الجديد، الحاكم بأمر الله، بعد أن ورث الحكم في عام 996 وهو بعمر 12 سنة، وقد أثبت الحاكم أنه واحد من أغرب الشخصيات في التاريخ الإسلامي.

قام الخليفة الحاكم وهو حدث السّنّ، خمسة عشر عاماً، بإعدام الخصي [برجوان أو أرجوان الخصي الأبيض خادم أبيه]الذي حكم بدلاً عنه وصياً على العرش، من ثم سن مجموعة من القوانين القمعية والاستبدادية، منعت التجارة في النهار، كانت الأعمال تجري فقط خلال ساعات الليل، أصبح شرب الخمر والقمار غير قانوني، مُنعت الكلاب والنساء من الظهور على الملأ، حيث كانت تُقتل الكلاب بمجرد رؤيتها، وقد تمادى بحيث منع النساء من الخروج في الطريق، ومنع من عمل الخفاف لهن، لكي يبقين في المنازل، حافيات الأقدام وحبالى، كان الخليفة يتجول بنفسه في الشوارع ليلاً ليتأكد من أن أحكامه كانت تُطبق، وكانت رؤوس المخالفين تُقطع بسرعة بالغة.

نشأ حكم أرعب المسلمين والمسيحيين واليهود على حد سواء، ألزم أهل الكتاب بارتداء ملابس معينة لتحدد دينهم، ثم سنت قوانين عديدة

للحد من حرياتهم وإذلال كرامتهم، ودمرت كنائسهم ومعابدهم، ومن ضمنها كنيسة القيامة في القدس.

أصبح بلاط الخليفة أشبه ما يكون بمحاكم التطهير الستالينية، كان الجميع مشتبهاً به وساد زمن الريبة والشك، وكان همّ الخليفة المجنون أن يجعل قواده من ذوي الرتب العالية وحاشيته يعيشون في خوف ورعب، أعدم أحد قواده الكبار لأنه قيل شاهد الحاكم يقطع أوصال جثة طفل.

لم يعد بوسع الناس تحمل الكثير، وقد جاءت القشة التي قصمت ظهر البعير بصورة شخصين داعيين جاءا من بلاد فارس، كان أحدهما يُدعى الدرزي، الذي ادعى أن روح الله تجسدت في علي وجميع الأئمة الآخرين وهي الآن مجسدة في الحاكم بأمر الله نفسه، ولم يكن الأمر مفاجئاً أن تحمس الحاكم بأمر الله بإعلانه شخصاً قريباً من الألوهية، على الرغم من أنه لم يدعم الدرزي علانية.

في عام 1021، ذهب الحاكم بأمر الله في إحدى جولاته الليلية في الصحراء ولم يعد، على الرغم من أن الاحتمال الأكبر أن الخليفة راح ضحية مؤامرة ما، إلا أن الدرزي واصل ادعاءه بأن الحاكم بأمر الله هو المهدي، الشخصية الشيعية التبشيرية، وما زالت الطائفة الدرزية تنتظر حتى هذا اليوم عودة الحاكم الرؤيوية، ومن المؤمل أن يكون ذلك في القريب العاجل.

حاول خلفه أن يُزيل الأذى عن الناس، فأعاد بناء أماكن العبادة

المسيحية وسوّى العلاقات بين العقائد الثلاث. على الرغم من أن المسلمين استمروا في معاملة المسيحيين واليهود بتسامح واتزان أكثر مما حصل في أي مكان آخر في عالم العصور الوسطى، فإن النتائج غير المباشرة لجنون الحاكم بأمر الله وصلت أبعد وأوسع من ذلك، وكان التحرش بالحجاج المسيحيين وحرق كنائسهم هو الذريعة المشؤومة لشن الحرب المقدسة.

السلاجقة

كانت الخلافة العباسية خلال ثورة الشيعة تعتمد اعتماداً متزايداً على خدمات المرتزقة من الشرق، كان هؤلاء هم الأتراك، مجموعة جديدة معتنقة للإسلام من قبائل منتصف آسيا، قاموا بعد وقت قصير بالتغلب على سادتهم الفرس واجتاحوا ممالك خُراسان وبلاد ما وراء النهر (بالقرب من بحر آرال)، أما الأمر الذي أثار اهتمام العباسيين بشكل خاص هو التزامهم بالإسلام السني، ولكونهم من السنة فقد أيدوا الحكام العباسيين على أنهم حكام الإسلام العادلين وكانوا على استعداد للوقوف ضد فاطميي مصر الشيعة.

وفي عام 1050، قبل أربعين عاماً فقط من الحملة الصليبية الأولى، قام الفاطميون والأتراك بتسوية حساباتهم، قام كل جانب بتأييد خليفته من أجل الوصول إلى كرسي العرش في بغداد، وبفضل السلاجقة، وهي قبيلة من المحاربين الأتراك، أعاد العباسيون السيطرة بنجاح على

الحكم في عام 1060، وأنقذ الإسلام السني، وكان الفاطميون قد بلغوا الذروة ومن الآن فصاعداً عليهم القنوع بمصر ومحيطها فقط.

وهكذا انتهت الخلافة كسلطة سياسية، وكان العباسيون يحكمون بالاسم فقط بوجود السلاجقة ممسكين بزمام الأمور.

اتخذ قائد السلاجقة طُغرُل بك لنفسه لقب السلطان، أي أمير المؤمنين، متعهداً بالدفاع عن الإسلام ضد الانشقاق والعدوان.

لم يكن معظم العرب والفرس معجبين بذلك، بل كانوا يرون في السلاجقة أناساً همجيين فظين، والأسوأ أن أحضر هؤلاء الأتراك أفراد قبائل أخرى من منتصف آسيا كانوا أيضاً أقل انضباطاً منهم، ويشنون الحرب ضد بدو البلاد والبدو من الأكراد، ومن أجل التخفيف من بعض التوتر الداخلي، قرر السلاجقة أن يُهاجموا البيزنطيين، الذين كانت قوتهم في انحطاط خطير.

كانت النتيجة معركة ملازكرد عام 1071، حيث هزم السلاجقة جيشاً مشتركاً من البيزنطيين وجنودهم النورمانديين والأتراك المرتزقة الأقل حماسة، لقد كانت هزيمة مدويّة، ومما زاد الطين بلة أسر الإمبراطور البيزنطي وإذلاله، وهو أمر لا سابق له. كانت تقريباً كل آسيا الصغرى تحت هيمنة الإسلام الآن، لم يُترك شيء لما كان في السابق إمبراطورية عظيمة للشرق باستثناء عاصمتها القسطنطينية وقطعة من أرض ساحلية.

دفع الإمبراطور فدية وعاد إلى ما تبقى من مملكته، وهنالك قام

بكتابة التماس إلى أسقف روما، متوسلاً لمساعدته. وهذه كانت هي بداية المشكلة.

البابا ضد الملوك

كانت معركة ملازكرد أعظم إنجاز في حكم سلاطنة السلاجقة، بعد ذلك بوقت قصير، فقدوا كل سلطة مركزية أحرزوها. في الفوضى الناشئة بدأت جماعة من الراغبين بالسلطنة في التقاتل فيما بينهم من أجل السيادة، قام العباسيون، التواقون للعودة إلى هيمنتهم الضائعة، بتحريض الأتراك بعضهم ضد بعض، مما أضعف جميع الجهات، في الوقت نفسه كان الفاطميون في مصر قد خسروا المغرب، كل شمال إفريقيا الإسلامية، لحساب البربر، استغل الفاطميون اضطراب نظام السلاجقة من أجل احتلال فلسطين وبلاد الشام بعد أن جُردوا من عوائدهم التي كانت تأتي من الغرب.

كانت تلك اللحظة بالتحديد التي كان فيها الإسلام في أسوأ حالات انقسامه وضعفه على مر التاريخ، حين قام فيها حشد من الهمج والمتعصبين الدينيين من الغرب بالنزول في القسطنطينية وشقوا طريقهم نحو القدس مدججين بالسلاح.

لم يكن هنالك سبب بعينه لقيام المسيحيين الغربيين بمساعدة إخوتهم الشرقيين، كان البابا والبطريرك البيزنطي قد تفرقا منذ عام 1054 في أم الإخفاقات في الانقسام الكبير، انقسمت الكنيسة الكاثوليكية

والرسولية إلى نصفين، شرقي وغربي، من دون حب ضائع بينهما. بعد هذا كله كان البابا يعتقد في الغالب أن خسارة البيزنطيين في معركة ملازكرد هي أمر يستحقونه.

ولكن البابا كان أيضاً داهية بحيث لاحظ سلسلة الانتصارات المذهلة للمسيحيين ضد الجيوش الإسلامية، في البداية طرد أسطول بحري للمسلمين من قاعدته في بروفانس في عام 927، ومن ثم قامت بيزا وجنوا بإعادة احتلال سردينيا في عام 1016. شن المسيحيون غارات داخل الأندلس مستولين على طليلطة التي أصبحت بعد وقت قصير عاصمة إسبانيا الكاثوليكية، وقبل تلك المدة ببضع سنوات، في عام 1091، كان النورمانديون قد استولوا على صقلية المسلمة، كانت التوترات الداخلية من انقسامات في الشيعة وتحدي الفاطميين للعباسيين قد أضعفت تماسك الأمة الإسلامية، وكانت بيزنطة نفسها على أبواب الموت، كان هنالك فراغ واسع في السلطة في فلسطين وآسيا الصغرى، فلماذا لا تُستغل الفرصة لتوسيع حدود (وعوائد) الكنيسة الكاثوليكية ببضعة آلاف من الأميال؟ ربما يكون من الممكن أيضاً أن تُسدد ضربة قاتلة إلى الإسلام. بانتصار تلو انتصار في الغرب، كان يبدو أن الهيمنة العليا ستؤول إلى أيدي المسيحيين.

ولكن القسطنطينية والقدس كانتا هدفين بعيدين، ما كان أكثر إثارة لاهتمام البابا هو أوروبا والقوة المتنامية للملوك، خلال معظم العصور الوسطى، كان الغرب خالياً من أية سلطة مركزية، بوجود بضعة قواد

عسكريين وسفاحيهم يقاتل بعضهم بعضاً على مساحات صغيرة من الأرض، من ناحية أخرى، خلال القرن السابق، كانت الأمور قد تغيرت، ظهر قواد أكبر واستبدوا وأخضعوا الجنرالات وكانوا يسمون أنفسهم ملوكاً، وبوجود المزيد من الأرض والمال تحت تصرفهم أكثر من ذي قبل، بدأ حديثو النعمة هؤلاء بتحدي السلطة الوحيدة التي كانت قد حكمت أوروبا منذ سقوط روما: وهي الكنيسة. بدأ الملوك بتعيين الأساقفة وفق اختيارهم، متجاوزين الكنيسة تماماً ومحولين كل نقود الزكاة إلى جيوبهم.

ما كان يحدث في الواقع هو تطور بطيء للمجتمع الأوروبي باتجاه الحكم المطلق أي خلق أمم منظمة تحت ملكية مركزية. كان ذلك النوع من السلطة ملعوناً عند الكنيسة التي هيمنت طويلاً على الساحة السياسية، لذلك بدأ الباباوات بإثارة المشكلات مع النبلاء الأقل درجة، محفزين إياهم على الثورة ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملوك آخرين كانوا قد تدبروا شؤونهم وهيمنوا كثيراً بحيث أقلقوا روما، في النهاية تلقى الملوك الرسالة وتراجعوا، ولكن سبق السيف العذل. فالمنافسة انحصرت بين البابا والملوك، وكانت أوروبا نفسها هي الجائزة.

جاءت الحملات الصليبية في ذلك الوقت الحاسم مانحة الكنيسة الفرصة التي احتاجتها للفوز بقلوب الأوروبيين وعقولهم من ملوكهم، ووحدت أوروبا ككيان ثقافي، لم تكن تلك الهوية الجمعية وطنية أو عرقية، لقد كانت دينية، أوجدتها الكنيسة، والآن، قام القائد الروحي

الأعلى بإظهار معدنه الدنيوي بما لم يحلم به حتى الملوك: فقد حشد جيشاً من 150,000 من الرجال الأشداء ليسيروا عبر العالم ويقاتلوا تحت إمرته وفي الوقت نفسه يُخضع الملوك بالقوة لقيادة الحملة. أبقت الحملات الصليبية الملوك مشغولين قروناً عديدة واستنزفت خزائنهم بينما بسطت الكنيسة سيطرتها على حياة أوروبا الفكرية والثقافية والروحية وكذلك على عوائدها وأراضيها.

الفرنجة قادمون

بالطبع لم تكن تلك أفضل طريقةً لفضح ما فعلته الكنيسة بين الجماهير الساذجة، ومن دون إضاعة أي وقت، خرج البابا أوروبان الثاني ومبعوثوه في جولة خطابات عبر فرنسا للحصول على المجندين، كان بيتر الناسك أحد أكثر محرضي الحشود إنجازاً، كان ما أخبر به هو وآخرون غيره في جميع أنحاء أوروبا للحشود المتجمعة هو هذا: اقتلوا أعداء الدين وستُغفر كل ذنوبكم، من كان ليفوت مثل هذه الفرصة؟

في مارس من عام 1096، قاد بيتر جيشاً مؤلفاً من عشرة الآف من جنود الله مع عدد كبير من مرافقي العسكر جميعهم متلهف لرؤية المكان الذي مشى به المسيح، عُرفت هذه بالحملة الصليبية للفلاحين، وهي الأولى من سلسلة من الموجات الناجحة من الغزو الأوروبي للشرق الأوسط، على الرغم من أن تسمياتها مغلوطة، لم يكن الفلاحون هم القادة، وإنما النبلاء، الذين مروا بوقت عصيب، وقد نفذت أموالهم

وإمداداتهم بمجرد وصولهم إلى هنغاريا، عندها بدؤوا ينهبون لإطعام أنفسهم، فقام المجر بجمع جيش وأهلكوا القسم الأكبر من قوات الحملة في عدة معارك، زحف بيتر وكتائبه خارجين من هنغاريا ووصلوا ضعفاء إلى القسطنطينية.

عندما قدموا أنفسهم في العاصمة البيزنطية، لم يثيروا إعجاب الإمبراطور البيزنطي، لم يكونوا جيشاً محترفاً، بل مجرد مجموعة الغوغاء المشاغبين من الهمج.

نقلهم البيزنطيون سريعاً إلى آسيا الصغرى، فذبحوا السكان المحليين داكني البشرة هناك ذبحاً جنونياً وقد كانوا من المسيحيين، فتلقفهم السلاجقة ومزقوهم ارباً ارباً.

في ذلك الحين في ألمانيا، كان «كونت ليننجين إيميخ» المهيب يُعد حملته الصليبية إعدادا جيداً، اعتقد الكونت أنه شخصية أسطورية ذات نبوءة. أمِل الكونت إيميخ بعد أن يهزم المسيح الدجال أن يُتوج ملك العالم في القدس وأن يستهل مملكة الألف عام.

بينما كان في طريقه عبر رينلاند، قرر الكونت أن أفضل طريقة للبدء بحملته الصليبية هي أن يقتل كل يهودي يقع تحت يد جنوده، في النهاية، لماذا ينتظرون قتل المسلمين بينما كان قتلة المسيح أمامهم مباشرة؟

من بلدة إلى بلدة، انتشر الصليبيون مثل وباء، عارضين على السكان إما خيار التحول عن دينهم أو الموت، اختار الكثيرون الموت، وانتحرت بعض العائلات عوضاً عن إشباع رغبة المسيحيين بقتلهم، وحرقت

صحف التوراة وهوجمت المعابد، كان القتل في بعض الأحيان لسبب اقتصادي، وعن طريق قتل مُقرضي المال من اليهود الذين مولوا جيوشهم، تمكنت الحملات الصليبية أن تنطلق متحررة من دَينها.

من الآن فصاعداً، في الغالب، كانت تُمول رحلات الحملات الصليبية ببرامج مشابهة، كانت بداية الحملة الأوروبية المعادية للسامية وهي نتاج عرضي بغيض للتعصب المسيحي والحرب المقدسة التي لازمت العالم لقرون لاحقة.

بحر الدم في القدس

كان هنالك جنود أكثر خبرة وحرفية يشقون طريقهم أيضاً نحو القدس. كان هذا هو الجيش الضخم للحملات الصليبية التي قادها سلسلة من النبلاء والمغامرين النورمانديين والفرنكيين، ومن ضمنهم كونت تارانتو بوهيموند وأخوه ناكريد وغودفري دو بويلون، الذي أصبح الملك الأول للمملكة المسيحية الجديدة في القدس.

وصلوا في الوقت المناسب، كان العالم الإسلامي في حالة خراب، كان الشيعة منقسمين انقساماً حتمياً، مع مواجهة الفاطميين الضعفاء للحشاشين (لقب أطلق عليهم في الحروب الصليبية)، وهو مذهب شيعي متطرف ذو علاقات قوية مع بلاد فارس وبلاد الشام. كان العباسيون السنة أو ما تبقى من الخلافة السنية يُحرضون السلاجقة بعضهم على بعض، آملين أن يُضعفوهم جميعاً ويستعيدوا سيطرتهم المفقودة منذ

زمن طويل، في الوقت نفسه، بغض النظر عن العقيدة، أصبح الأتراك والعرب والأكراد يقتل بعضهم بعضاً من أجل ما تبقى من الإمبراطورية الإسلامية العظيمة.

كانت الحملات الصليبية قد أحرزت بحلول عام 1098 سلسلة من الانتصارات المفاجئة ضد الأتراك، وقد تدبر الأوروبيون أمورهم بحيث عّوضوا جزءاً كبيراً من الخسائر التي حدثت في معركة ملازكرد مستغلين تفرق المسلمين، كانت القوات المسيحية المنتصرة من نايسيا حتى الرها تصيح، "Deus hoc vult!" أي «الله يريد ذلك. وإذا طرحنا جانباً السعادة الدينية الطاغية»، ابتهج نبلاء أوروبا الصغار بهجة عظيمة، هنا كانت ممالك متاحة للغزو، فبدأ كل واحد منهم بإخضاع منطقة لسيطرته، حتى إنهم قتلوا الحكام المسيحيين المحليين ليوطدوا حكمهم بالقوة.

لم يكن هنالك شيء ليقف في طريقهم – خاصة بعد أن قام خائن في أنطاكية بمساعدتهم على احتلال المدينة المتمردة بعد حصار طويل، مع وصولهم إلى جدران القدس كانت مشاعر الصليبيين قد بلغت ذروتها، اقتنعوا بأن الله كان وراء كل انتصاراتهم، تدفقوا إلى المدينة في 10 يوليو من عام 1099 وهم يبكون رهبة وإجلالاً، وحينئذ مع صرخات «الله يريد ذلك!»، بدأ الرعب الحقيقي.

في عربدة قتل استمرت يومين، قام المنتصرون المجانين بذبح كل مسلم ويهودي في المدينة، ومن ضمنهم الأطفال والرضع، كانت كما

وصفها شاهد العيان ريموند دأغويليرز:

«كانت هنالك مشاهد مروّعة للرؤيا. كان بعض رجالنا (وكان هذا أكثر رحمة من غيره) يقطعون رؤوس أعدائهم، وكان آخرون يُطلقون عليهم السهام، فيسقطون عن الأبراج، وكان آخرون يعذبونهم لوقت أطول بطرحهم في النيران، تراكمت أكوام من الرؤوس والأيدي والأقدام التي يمكن رؤيتها في شوارع المدينة. كان على المرء أن يشق طريقه عبر جثث الرجال والخيول. ولكن هذه كانت أشياء صغيرة. . في المعبد وشرفة سليمان كان الرجال يمتطون خيولهم في الدم الذي يصل حتى ركبهم ولجام خيولهم. بالتأكيد كان هذا حكماً عادلاً ورائعاً من عند الله بأنه توجب على هذا المكان أن يغرق في دماء الكفار لأنه عانى طويلاً من تدنيسهم».

وذُكر أيضاً أن الفرنكيين سلقوا البالغين من الوثنيين في قدور الطبخ، كما صاغها أحد المؤرخين. «لم ينفر جنودنا من أكل موتى الأتراك والمسلمين بل أكلوا حتى الكلاب أيضاً».

ما الذي كان يراه الصليبيون عندما كانوا يسحبون أطفال المسلمين واليهود من آبائهم ويسحقون رؤوسهم؟ هل كانوا يرون بشراً؟ لم يكن ذلك محتملاً. كان الصليبيون في النهاية يعيشون الرؤيا، كانت هذه المخلوقات التي ترتعد أمامهم خدم المسيح الدجال، لم يكونوا أناساً خلقهم الله ولكن مجرد وحوش قذرة، أقل من بشرية، ومن الممكن إبادتها مثل كثير من الطفيليات. كل هذا باسم أمير السلام.

لا يعلم أحد بالضبط عدد الذين هلكوا في هذا العمل الفظيع، مع نهاية بحر الدم كان سكان القدس الأصليون قد أبيدوا عن بكرة أبيهم، أظهر تقدير محافظ لعدد الموتى هلاك أربعين ألف رجل وامرأة وطفل بعد يومين فقط، من أجل المقارنة، كانوا أقل بقليل من جميع الأميركيين الذين ماتوا في فيتنام خلال مدة عشر سنوات.

عندما وصلت القلة من الناجين إلى بغداد بعد رحلة مرعبة، لم يصدق أحد روايتهم، بل قوبلت باللامبالاة، كانت القدس بعيدة جداً، منبوذة وراء ظهور المواطنين المدنيين في العاصمة القديمة، وعلاوة على ذلك كانت تنتمي إلى الفاطميين الذين كانوا قد أخذوها منذ سنوات قليلة من السلاجقة، كان الخليفة بلا شك سعيداً جدّاً لرؤية هؤلاء المنافسين يلاقون جزاءهم وعلى يد همج، إضافة إلى ذلك كانت هنالك مشكلات أكثر إلحاحاً في الشرق، حيث سقط قلب سلطنة السلاجقة بيد جيش وثني من آسيا الوسطى، كان الصليبيون بالتأكيد مصدر إزعاج، ولكنهم في النهاية لم يحتلوا غير قطعة صغيرة من أرض ساحلية في بلاد الشام، يجب على القدس أن تنتظر.

بالطبع شعر الكثير من المسلمين بأنه تمت خيانتهم، قام أحد القادة الدينيين بقيادة الناجين من القدس عبر بغداد صائحاً «أرى أتباع الدين ضعفاء!» ولكن رحلة الذنوب هذه لم تنجح. لم يبالِ أحد بذلك، بينما كان المسيحيون يُسمون المسلمين «سارسينت» ولم يفرقوا بينهم، كان أتباع النبي – من فاطميين وشيعة وسلاجقة وعباسيين– منقسمين

انقساماً تعساً، لقد أصبح المسلمون أسوأ أعداء لأنفسهم.

الجهاد

وُجِدَت الآن أربع دول صليبية جديدة تمتد من آسيا الصغرى إلى شواطئ البحر الأحمر: دوقية الرها وإمارة أنطاكية ودولة طرابلس ومملكة القدس، كانت جزراً من الإقطاعية الأوروبية في بحر إسلامي، لا تتمتع إلا بأقل قدر ممكن من الاتصال الثقافي مع أعدائها، وتُركوا من دون أن يتحرش بهم أحد لعقود من الزمن.

بعد ذلك في نوفمبر من عام 1144، قام الجنرال التركي زنكي بالانطلاق في حملة لانتزاع دمشق من أميرها العربي، كانت دوقية الرها في الطريق فطوقها زنكي، كي يُعد جنوده لمهاجمة بلاد الشام، وتفاجأ عندما سقطت المدينة المسيحية بسرعة، وظهر للإسلام بطل جديد. وبدأ اللاجئون من القدس بحزم متاعهم.

ولكن تبعثرت آمالهم عندما اغتيل زنكي بعد سنتين على يد أحد مخصييه، وكان فرنجياً، ولكن ابنه نور الدين تابع القضية وأعلن الجهاد دفاعاً عن الإسلام ضد الغزاة الهمج ووحد الخلافة مرة أخرى.

يعني الجهاد النضال في اللغة العربية، ولا يعني الحرب المقدسة، يعني هذا «النضال» ببساطة الكفاح من أجل أن تكون مسلماً أفضل، وخلافاً للمفهوم الشائع، الإسلام ليس ديناً عدوانياً أكثر من المسيحية، بالتأكيد، يبدو القرآن وديعاً مقارنة بالإنجيل الذي يغض النظر في نصوص معينة

عن أعمال الإبادة الجماعية (السفر الثالث 26: 7–9، الأرقام 33: 52–53، 55، 1 صامويل 15: 18، وتقريباً كل سفر يوشع). لدى كل الناس في جميع الأديان عادة تفسير النصوص المقدسة على غير الوجه الصحيح لتسويغ أي شيء تقريباً، مهما كان فظيعاً.

يهتم القرآن بالعدالة الاجتماعية كالإنجيل والإيمان بالله أكثر من الدعوة إلى الحروب أو النزاعات، على الرغم من ذلك فإن القرآن يسمح للمسلمين أن يشهروا السلاح دفاعاً عن عقيدتهم وأوطانهم، وما بدا غريباً على الصليبيين هو أن المسلمين عاشوا وحكموا «الأرض المقدسة» أربع مئة سنة – أطول من أي سلطة مسيحية. كان هذا هو وطنهم.

علاوة على ذلك، كان المسلمون طوال ذلك الوقت قد عاشوا حياة مشتركة مع المسيحيين واليهود تحت هيمنتهم، كما أمرهم القرآن، عاش المسيحيون واليهود والمسلمون بعيداً عن جنون الحاكم بأمر الله سوية في القدس في ثقافة تسامح نسبي غير معروفة لدى المسيحية.

وقد مَزّق التعصب الهمجي للفرنجة ذلك التناغم والانسجام في القدس، لم تكن الحرب منافسة متمدنة لسرقة أرض أو مال أحد ما. كانت دوافعها غير الأخلاقية قد أصبحت الآن مُقنّعة بخرافة هزيلة وغطرسة ثقافية ونوبة جنون نحو الإبادة الجماعية، إذا كانت هذه هي المسيحية الغربية فقد رأى المسلمون كفايتهم منها، وبدأت حرب جديدة لتحرير أرض وطنهم من الغزاة الأجانب.

الإمبراطورية ترد الضربة

لكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة أو أقوى منه، كان اسم رد الفعل هذا هو صلاح الدين، أعظم أبطال الإسلام في العصور الوسطى، وصفه كاتب سيرته بهاء الدين على أنه ذروة الرجولة الإسلامية: رفيق، صادق، حامي الأيتام والعجائز، ومحارب عظيم ضليع جداً في القرآن والتاريخ والشعر وحتى عالم بأنساب الخيول العربية! وفوق كل هذا كان مجاهدا يُقاتل من أجل تحرير شعبه من الظلم. وعندما سأله أحد مرافقيه «ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله. فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات»

وُلد في عام 1138 لأسرة كردية في العراق، كان عمه شيركو الصديق الموثوق لنور الدين وجنرالاً في جيشه، في عام 1164، طلبت عصبة من دولة الفاطميين الضعيفة المساعدة من نور الدين ضد خصومهم الذين قاموا بعقد معاهدة مع الفرنجة أثارة الدهشة، أرسل شيركو في مهمة ثنائية: طرد الصليبيين وجعل مصر تابعة للسلاجقة، أخذ شيركو ابن أخيه معه، الذي كان مهتماً باللهو أكثر من التدريب على استعمال سيفه.

في عام 1167 تذوق صلاح الدين طعم المعركة أول مرة، بعد أن أمره عمه بالاستيلاء على الإسكندرية، قام الآمر الجديد بعمل رائع، ولكن لم ينتصر ضد المدفعية والقوة البحرية المتفوقة لدى الصليبيين، انسحب باتجاه القاهرة، حيث جعل شيركو من نفسه وزيراً، حاكماً محل الخليفة

الفاطمي، الذي كان ما يزال طفلاً، ثم في عام 1169 مات شيركو، وخلفه نور الدين بعد خمس سنوات تاركاً الطريق مفتوحة أمام صلاح الدين ليحكم شامخاً في قلب أرض الإسلام.

بعد سنتين من تعزيز سلطته، بشكل أساسي عن طريق استبدال الجيش الفاطمي المشكوك فيه بقواته هو من الأكراد وأهل الشام والمصريين السنة، قرر صلاح الدين أن يُنهي الخلافة الفاطمية، لأول مرة من مئات السنين ذكر اسم الخليفة في بغداد في صلوات الجمعة. كانت ثورة بيضاء لم ترق فيها قطرة دم واحدة، أراحت المصريين السنة الأكثر هيمنة، الذين كانوا ينظرون دائماً إلى الفاطميين على أنهم غزاة وزنادقة.

تغير صلاح الدين خلال السنوات القليلة الماضية من شاب مفكر يحب المتعة، حتى أصبح مقتنعاً أن الله قد رفعه من الظلمة ليوحد الإسلام ويُخلص أراضيه من الصليبيين الهمج، إذ إن ارتقاءَه السريع إلى السلطة لم يُفسده، وعاش عوضاً عن ذلك بتواضع، ووزّع الصدقات السخية على الفقراء ودرس القرآن والحديث الشريف بنهم، وبينما كان يستمع إلى كلمات الكتاب الكريم كانت عيناه تغرورقان بالدموع، لقد سقطت الأمة الإسلامية ضحية لخطاياها، ولكن لا مزيد من هذا، اقسم صلاح الدين على أن يمحو الصليبيين «وقال: في نفسي أنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسّمت البلاد، وأوصيت وودّعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت»

لم يتبعه الجميع. بقي الشيعة الحشاشون أعداء قساة ألداء للسنة، لقد انضموا إلى تحالفات غريبة مع الفرنجة والنورمانديين من المملكة اللاتينية من صقلية كي يُهاجموا الإسكندرية من البحر، أصبح صلاح الدين عدوانياً ضد الشيعة، بعد نجاته من محاولتي اغتيال ولكن لم يكن قادراً على اختراق جدران قلعتهم الحصينة.

لم تكن خسارة عظيمة، ففي النهاية لم يكن الحشاشون أكثر من مجرد مصدر إزعاج، كانت هنالك جائزة أكبر متاحة أمامه، بعد حملة طويلة، استولى صلاح الدين على بلاد الشام، وأعاد بذلك أرضاً قديمة من قلب الأمة الإسلامية تحت راية الخليفة، كان كل ما تبقى هو فلسطين ومدينتها المقدسة القدس، حيث عُرج بمحمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء في رحلة الإسراء والمعراج، تطلب تحرير القدس وإعادة صوت المؤذن إلى جدرانها المقدسة جيشاً من المجاهدين المخلصين. كان الصليبيون على وشك أن يتعلموا درساً كان قد لقنهم إياه المسيح: «إنما تحصدون ما تبذرون».

التقى الجيشان بعد عدة معارك على منحدرات حطين في عام 1187 لإنهاء الأمر، ووفقاً للروايات التقليدية، كان هذا المكان الذي ألقى فيه المسيح موعظته، كانت ليلة القدر وهي ذكرى أول وحي من الله إلى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) [عشية يوم الجمعة، وذلك لخمس بقين من ربيع الآخر]، صلّت قوات صلاح الدين وهللت احتفالاً بذكرى هذه الليلة المقدسة، اعتقدوا بكل يقين بأن هذا التاريخ لم يكن مصادفة.

عندما بزغ الفجر، هجم المسلمون مع صيحات «الله أكبر»، دمر المجاهدون قوات الفرنجة، والذين كانوا مسبقاً شبه أموات من العطش بعد المسيرة الطويلة في الصحراء، هرب الكثير من الفرنجة باتجاه بحيرة طبرية القريبة، حيث ظهر المسيح لأتباعه ماشياً على الماء، ولكن الماء كان بعيداً المنال، بحلول المساء كان الصليبيون قد قُطِّعوا إلى أوصال، ولطخ الدم مشهد أرضهم المقدسة الضائعة، سقطت مملكة القدس الصليبية، ترجل صلاح الدين بعد ثقته في النصر عن حصانه وبكى فرحاً بينما صلى صلاة الشكر لرب العالمين على نصره.

لقد أُسر الملك نفسه مع العديد من نبلاء الفرنجة، كان أحدهم رينولد شاتيون، والذي كان قد ذبح قافلة من الحجاج المتوجهين إلى مكة قبل سنوات، والأسوأ أنه قام بمهاجمة المدينة، مرقد النبي محمد(صلى الله عليه وسلم)، وخطّط لمهاجمة مكة نفسها.

أخرج صلاح الدين سيفه، وفصل رأس رينولد عن عنقه، وجر الجثة على التراب إلى ملك القدس السابق، قال للملك، كان جزاءً لجرائم رينولد، ومن ناحية أخرى سيبقى البقية كأسرى لمدة من الزمن، ومن ثم سيُطلق سراحهم، قاتل المسلمون نوعاً مختلفاً من الحرب المقدسة، حرباً لم تتضمن ذبحاً لا معنى له، لم تمنح الرحمة للفرسان الذين ينتمون إلى طبقات دينية وهما فرسان الهيكل وفرسان القديس حنا، بالنسبة لصلاح الدين كان هؤلاء الرهبان المقاتلون يمثلون تركيبة مهلكة من الوحشية والتعصب، وافق على إعدامهم الواحد تلو الآخر، وبهلاك

آخر واحد منهم، هلكت معه كل الآمال الأوروبية بإمبراطورية في «الأرض المقدسة». على الأقل لمدة سبعمئة سنة تقريباً.

النتائج

بالطبع لا تنتهي القصة هنا، وشنت حملات صليبية أخرى، مع كل الشخصيات البارزة ومن ضمنهم أباطرة الروم المقدسون وملوك فرنسا وملك روبن هود المفضل، ريتشارد قلب الأسد. لم يكن أي من هؤلاء الرجال قادراً على فعل ما حققته الحملة الصليبية الأولى عن طريق الحظ والإيمان.

أُرغمت الكنيسة المحبطة في مخططاتها في الشرق الأوسط على مهاجمة السلافيين والبروسيين والمنشقين الفرنسيين والإيطاليين الكاثوليكيين العنيدين والذين استاؤوا من سلطة البابا، بدأت حملات جديدة في إسبانيا لرد الضربة بمثيلتها، بنهاية القرن الخامس عشر، كانت الأندلس قد ضاعت من يدي المسلمين للأبد وأرسل فرديناند وإيزابيلا، بعد طرد اليهود، كولومبس ليستكشف البحر الكاريبي، ويستعبد شعبه التعس ومن ثم يبيده عن بكرة أبيه في النهاية.

ما الذي حققته الحملات الصليبية؟ أدناه وصف أفضل مؤرخ للقرون الوسطى وهو ستيفن رونسيمان: «أطلقت الحملات الصليبية لإنقاذ المسيحية الشرقية من الإسلام، وحين انتهى كل ذلك كانت المسيحية الشرقية كلها تحت حكم الإسلام».

في النهاية كانت الحملات الصليبية قد أخفقت، أخفقت المسيحية، أخفق البابوات، وأخفق الطموح الأوروبي، وعلى الرغم من أن استعادة إسبانيا قد وازنت بين كفتي الميزان، كان العثمانيون الأتراك قد اجتاحوا مسبقاً معظم البلقان منذ مئة عام، وقبل ذلك ببضعة عقود، في عام 1453، استولى الأتراك على القسطنطينية، سُميت العاصمة القديمة للمسيحية الشرقية باسم جديد - اسطنبول - وما زالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم. وخلال مئة عام احتل المسلمون هنغاريا وسيطروا عليها حتى القرن الثامن عشر، وغزوا النمسا في وقت متأخر يصل إلى حوالي عام 1683. على الرغم من بذل الكنيسة أفضل جهودها، وُجدت الأمة الإسلامية في أماكن متفرقة في أوروبا منذ عام 711 بعد الميلاد.

إذاً كيف نفهم الافتنان المتواصل بالحملات الصليبية؟ لماذا أريق كل هذا الحبر على حرب الإرهاب الديني الخسيسة وعديمة الفائدة هذه؟ ربما يكمن السر في الأسطورة نفسها، فقد بذل المؤرخون عبر السنوات أفضل ما لديهم لتجميل الحملات الصليبية، في بضعة ضربات أساسية أصبح المتطرفون الهمج رعاة الأبقار في دروع، يُقاتلون من أجل الحضارة في صحراء قاحلة لهنود حمر معممين، ونستطيع أن نقنع أنفسنا بسهولة أن المسلمين شعب محب للحروب، وأنهم مصدر تهديد وأنهم مختلفون أختلافاً جذرياً عنا، إنها طريقة ملائمة لإسقاط الخيالات الغربية وتلهفهما على ما مضى.

هذا الهوس بتاريخ الحملات الصليبية يشوش التفاعلات الثقافية

الأكثر غنى وتعقيداً بين الحضارتين، ويؤكد الخلافات والعدوان بدلاً من التركيز على أوجه الشبه والتقدم الفكري، إنه يُخلّد فكرة «نحن ضدهم» التي تمزق عالمنا في هذه الأيام.

إلى أي حد ادعى المؤرخون أن الحملات الصليبية هي التي أعادت الحكمة اليونانية إلى أوروبا؟ إنها أسطورة ملائمة للغربيين لأنها تضفي عليهم دوراً فاعلاً، لقد هاجموا الكفرة [أي المسلمين] الذين «حافظوا» على حقهم اليوناني والروماني منذ الولادة وطالبوا به من أجل الذين يستحقونه فعلاً، ولكن الصليبيين لم يبالوا كثيراً بالفلسفة وعلم الجبر، كانوا في فلسطين وبلاد الشام ليغنموا الأرض وعبيد الأرض والمال، من ثم تعمل الأسطورة كجائزة ترضية، ولو كانت الحملات الصليبية اخفاقاً سياسياً لكان ثمة أثار إيجابية نتجت عنها.

لقد كانت ذكرى إخفاق الحملات الصليبية هي التي ألقت بظلالها على الوعي الأوروبي كطائر القطرس، لقد قدمت للثقافة الغربية الإحساس بالدونية في أحسن حالاته، وأصبح بإمكان المسيحية أن تحفظ ماء وجهها وهيبتها عن طريق فرض قوتها على الضعفاء والبائسين في أمريكا وأفريقيا وأسيا، ولكن الجراح لم تلتئم على الرغم من ذلك، حتى حينما أصبح العالم الإسلامي تحت هيمنة أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين. بقي الخوف الأزلي، كان خوفاً لم يرعب أكثر منافسيهم قوة، بل ما هو أسوأ من ذلك، فإن ذلك الرعب يشير إلى ضعف الغرب نفسه.

والآن، مع انتهاء الحملات الصليبية، كانت حرب جديدة قد بدأت. وقبل أن تُولد أوروبا الحديثة ينبغي أن تخوض حرباً هائلة، حيث يتعلق مصير الحضارة ومن هذا الصراع الرهيب، سينبثق نظام عالمي جديد نحو الأفضل أو نحو الأسوأ.

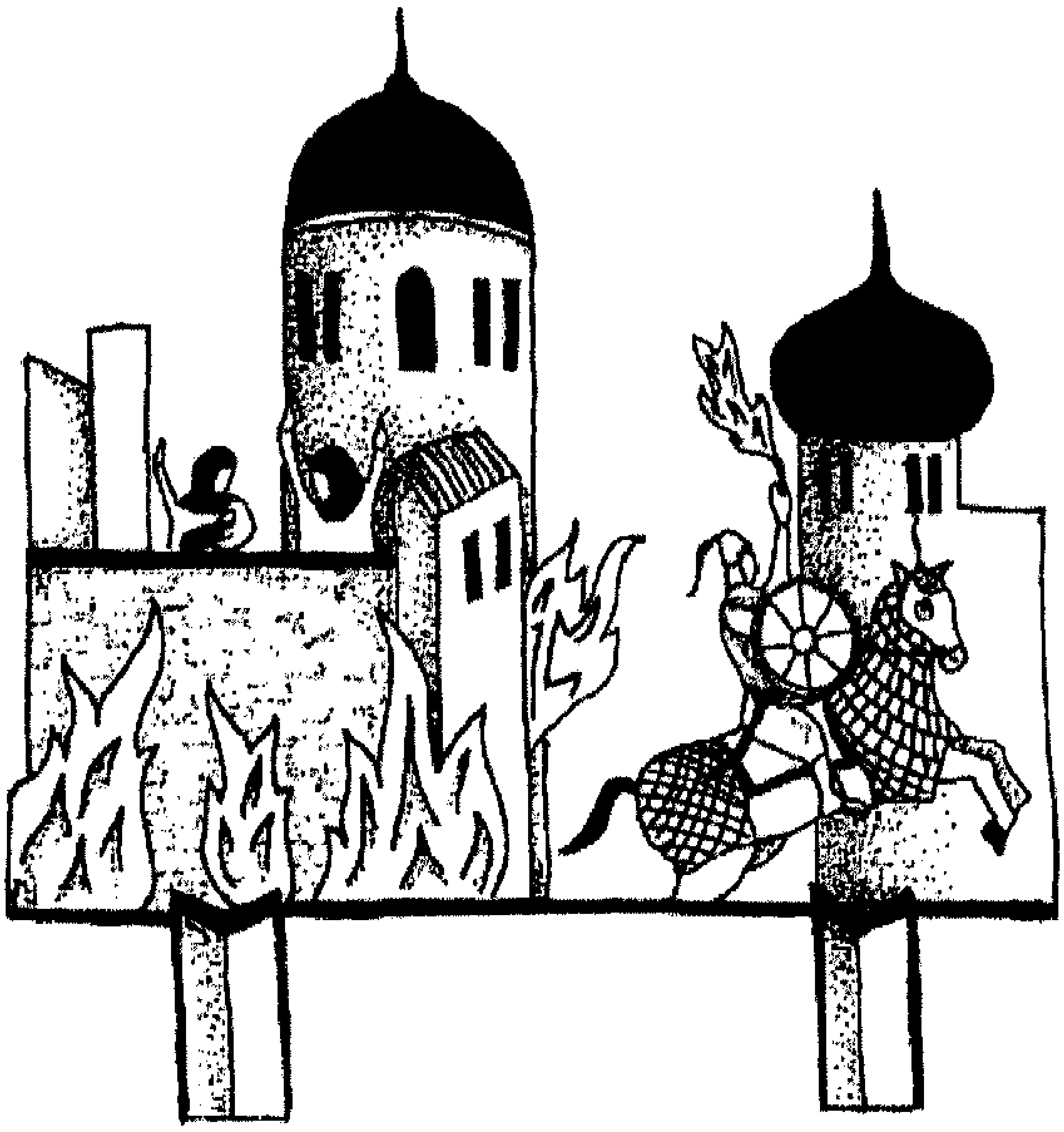

الفصل الثامن

الحرب العالمية الأولى

ظهر دكتاتور جذاب من مقام وضيع، وشن سلسلةً من الهجمات السريعة على الأمم المحيطة. التي أضعفها الانقسام ثم هجم على روسيا في الشتاء، وكان العنف قد دمر أوروبا، وهكذا بدأت أكثر آلات القتل فعالية وقسوة في مسيرة العالم برمتها، وكان هدفها: السيطرة على العالم.

هذه هي قصة المعركة بين المغول والمسلمين.

الفاتح

في معظم الأوقات في العصور الوسطى، لم يُعِر أحد المغول انتباهاً، كانوا مجرد إحدى القبائل الكثيرة جداً التي كانت تقوم بالتحرش بالإمبراطورية الصينية العليلة بشكل دوري، وقد أنهى ظهور تيموجين (المعروف بجنكيز خان) بحلول القرن الثالث عشر غمور هذا الشعب وعدم شهرته، حول جنكيز خان قبيلته من رعاة خيل بدو إلى أكثر الجيوش التي رآها العالم فعالية ووحشية عن طريق جاذبيته الشخصية وقسوته واستراتيجياته.

لم يضيع المغول وقتاً طويلاً في السياسة، كانوا عادة ما يُرسلون رسالة مقتضبة يُطالبون فيها الحاكم أو الملك المحلي بالاستسلام غير المشروط وأن يُقبّل ركاب حصان الخان، كانت عقوبة المقاومة مرعبة، إذا ما اخترق المغول جدران مدينة ما فإنهم يُحرقون كل مبنى يجدونه ويصطادون الرجال كأنهم حيوانات برية، ويغتصبون كل امرأة وفتاة تقع تحت أيديهم، ويقتلون أي رضيع يريدون ويستعبدون من تُرك واقفاً على قدميه، بعد ذلك ربما ينسحبون عندما تصبح رائحة الجثث كريهة.

عرف المغول أنهم لن يكونوا قادرين على احتلال الأراضي التي استولوا عليها، بعد ان انتشروا عبر هذه المسافات الكبيرة، تعلموا بعد وقت قصير أنهم إذا ما أرهبوا عامة الناس بما فيه الكفاية، فلن يضطروا إلى ذلك، ولن يجرؤ الناس أبداً على الثورة عندما يواجهون وحشية بهذه القسوة. يستطيع عندها الفاتحون أن يتركوا جمع الضرائب للحكام المحليين ويمروا بالمكان من وقت لآخر لسلب أموالهم، كان هؤلاء شعباً يعرف كيف يستفيد من التخويف.

بالإضافة إلى قسوتهم، كان المغول مزودين جيداً بالقنابل النارية وحواجز الدخان وأدوات الحصار وحتى البارود، الذي جعل التفجيرات عالية بحيث ترهب خيول الجيش المقابل، كانت الاتصالات بين الجيوش داخل المعركة وخارجها رائعة، وتتم باستخدام الدخان وإشارات بريق السيوف من طرف إلى آخر من الميدان، منعت سلسلة قيادة قوية من

جنكيز خان نفسه وصولاً إلى الأربان، وهي فرقة مكونة من عشرة جنود حصول أي حادث أثناء عمليات القتل في الأيام العصيبة، خطط للمعارك والحملات وحتى المناوشات بدقة باستخدام خرائط تفصيلية ومعلومات استخبارية بوساطة مجموعة من الجواسيس المتخفين على هيئة تجار، وباختصار تفوق المغول على أي جيش تقليدي في العصور الوسطى، سواء كان مسيحياً أو مسلماً.

ساعدت هذه العوامل كلها الفاتح على تسوية الأمور مع القبائل المنغولية والتركمانية بحلول عام 1206م. بعد أن أخضع أراضيهم تحت سلطته وازداد عدد قواته وزحف إلى الصين، في عام 1215 م اخترق سور الصين العظيم واستولى على بكين، وفي مدينة شونغ تو في شمال الصين، شهد السفراء المسلمون تدمير المدينة بالنار والسيوف، وكتبوا لاحقاً أن الشوارع أصبحت زلقة بسبب الشحم الآدمي والجثث المكدسة في الشوارع.

كان آخر نداء لجنكيز خان هو تدمير خوارزم، موطن السفير المسلم، كانت هذه أبعد مملكة إسلامية في الشرق، تمتد من بلاد فارس إلى جبال الهندو كوش في أفغانستان، وقد حكم خوارزم سلسلة من الحكام الأتراك الذين استغلوا موقعها على طريق تجارة الحرير، أما بخارى، مركز تجارتها، فكانت تُسمى «قبلة الإسلام»، العاصمة العظمى في آسيا الوسطى.

استولى جيش المغول المكون من مئة ألف من الرجال الأشداء على

المدينة في عام 1220. بعد ذبح المدافعين عنها، الذين استسلموا في مواجهة أعداد متفوقة، قام المغول بتحويل أكبر مسجد إلى إسطبل، مستخدمين محامل المصاحف كمعالف للخيول، صعد جنكيز خان على المنبر وأخبر قادة المدينة أنه عقاب من الله. وطالما لم يفهموا وجهة نظره أشعل النار في المدينة، وقتل ثلاثين ألفاً من الناس واستعبد الآخرين جميعاً.

لم يكن مصير سمرقند، عاصمة خوارزم، أفضل من ذلك، أدى إرهاب جنكيز خان في بخارى عمله، مرتاعين من سماع أخبار دمار تلك المدينة، استسلم سكان العاصمة بعد خمسة أيام. قام المغول بسرعة بتفريق الناس إلى نساء تم اغتصابهن ومن ثم استعبادهن، وحرفيين مهرة أرسلوا إلى منغوليا لأعمال السخرة وجنود ذبحوا بسرعة، أما الأشخاص الذين تُركوا على حالهم كانوا فقط رجال الدين من المسلمين والمسيحيين، عندما وجد المغول الحاكم قتلوه بصب فضة منصهرة في عينيه وأذنيه[1].

ثابر جنكيز خان وجنوده على أعمالهم الشريرة أثناء عودتهم إلى وطنهم في نيسابور، قال المؤرخون إنه قتل أكثر من مليون ونصف من البشر. وهذا رقم مبالغ فيه على الأغلب ولكن مما لا شك فيه أنه هلك مئات الآلاف أثناء الحملة كلها، إذا لم يكن الإجمالي مليوناً، وبنيت

(1) بل طاردوه إلى (أورجندة) فهرب إلى (نيسابور) ثم (مازندران) ثم إلى (الري) ثم إلى (همدان) ثم عاد هارباً إلى (مازندان) ثم (طبرستان) على ساحل بحر الخزر (بحر قزوين) فركب سفينة إلى عمق البحر حيث رضي بالعيش في جزيرة في فقر وشدة حتى مات وحيداً طريداً شريداً، ولم يجدوا ما يكفنوه به، فكفنوه بفراش كان ينام عليه.

أهرامات رهيبة من رؤوس الضحايا، واحدة للرجال وثانية للنساء والأخيرة للأطفال. وفي بلخ، في شمال أفغانستان، قتل المغول كل من عثروا عليه حتى الدجاج والكلاب والقطط.

لقد تجاوز جنونهم المدمر مجرد سفك الدماء، فقد كان الماء يُغذي معظم الدول الإسلامية بوساطة نظام من القنوات (الأفلاج) تحت الأرض، هذه القنوات الطويلة، التي تربط سلسلة من الآبار بعضها ببعض، تحتاج إلى التنظيف المنتظم من الوحل، وبعد إبادة السكان امتلأت القنوات بالتراب، وأصبحت معظم آسيا الصغرى، التي كانت في السابق مغطاة بالخضرة صحراء قاحلة، ولم تتمكن المدن العظيمة من البقاء بعد دمار الزراعة فيها، فما بقي فيها إلا القليل من سكانها، انتاب خوارزم الركود وخسر الإسلام جزءاً عظيماً من أقاليمه، أما البقية الباقية من الخلافة في بغداد فكانوا يمثلون خطراً كبيراً على المغول، لذلك قرروا تحويل اهتمامهم إلى هدف أقل حضارة وأضعف مكانة وهو: أوروبا.

الغزو المغولي لأوروبا

وحين وصلت أخبار مآثر جنكيز خان، امتزجت الحقائق بالخيال بشكل يائس، وتناقل الأوروبيون لعدة عقود قصص بريستر جون، الملك المسيحي الذي حكم آسيا كلها. ظهر الكثير من الرسائل التي كتبه الملك نفسه بشكل مغرٍ، والتي وعدت بسحق المسلمين وإعادة الأرض المقدسة للكنيسة. عندما وصلت أنباء سقوط خوارزم إلى أوروبا، اعتقد

الكثيرون أن بريستر جون استمر في زحفه وأن الإسلام سيُمحى عما قريب.

لم يكن كل هذا خيالاً، كانت المسيحية النسطورية قد هاجرت باتجاه الشرق إلى تركستان والصين، أصبح الكثير من الجنود وشيوخ القبائل المغول مسيحيين الآن ومتعصبين تماماً مثل الصليبيين، بالتأكيد دمر الإسلام، الذي مثل أكبر عائق أمام هيمنة المغول على العالم، وعند الكنيسة بدت الأمور وكأن يد الله هي الفاعلة.

تخيل عندها محنة البابا وات عند استلام رسالة من ملك هنغاريا في عام 1223 تخبرهم بأن المغول قد نهبوا روسيا، وذبحوا مئتي ألف إنسان، لم يبدُ ذلك من عمل بريستر جون نهائياً. من ناحية أخرى، لم يتابع المغول عملهم وإنما انسحبوا ليتنازعوا على السيطرة على الإمبراطورية بعد موت جنكيز خان في عام 1227.

تنفست الكنيسة الصعداء، بالتأكيد كان بريستر جون يستهدف فقط الزنادقة الجورجيين وليس الأشخاص الكاثوليكيين الصالحين. لماذا نستمع لتحذير الملوك الهنغاريين الرهيب؟ كان الأسهل للأوروبيين أن يُصدقوا أن أكثر خيالاتهم حماسة- استرداد القدس وتدمير الإسلام- كانت على وشك أن تتحقق.

ولكن المغول كان لديهم مخططات أخرى. بعد موت جنكيز خان قسمت الإمبراطورية بين أبنائه، وورث باتو معظم الأراضي الغربية، وبعد عدة سنوات من التخطيط وجمع المعلومات المخابراتية، سارت

قوات باتو نحو روسيا في عام 1236 وأنجزت ما لم يقدر عليه نابليون وهتلر: غزو ناجح لروسيا في الشتاء. كانت وقفتهم الأولى بعد محو البلغار هي ريازان، في ديسمبر من عام 1237. ذبح الجميع، بدءاً من الأمير وعائلته وإلى أصغر فلاح، كتب أحد المؤرخين «قُتل البعض على الخوازيق أو حشرت مسامير أو شظايا من الخشب تحت أظافرهم. أُحرق القساوسة أحياء واغتصبت الراهبات والفتيات الصغيرات في الكنائس أمام أقاربهن، لم تبق عين مفتوحة للبكاء على الأموات».

واجهت روسيا خلال السنوات الثلاثة اللاحقة المصير نفسه بشكل أكبر، وبحلول عيد رأس السنة في عام 1240، سقطت كييف في أيدي المغول، وعندما سار مبعوث بابوي خلال المدينة بعد ست سنوات كان يتعثر بجماجم وعظام المذبوحين، الذين تُركوا ليتعفنوا حيثما سقطوا.

خلال سنتين، كان المغول على عتبات المسيحية الغربية، بينما كانت معظم أوروبا تدس رأسها في التراب، حاول أحد الملوك أن يحافظ على أمته، كان هذا ملك هنغاريا بيلا الرابع، والذي ورث مملكة من الخرائب، ونبلاءً يتصيدون السلطة والامتيازات فيما كانت في الماضي مملكة عظيمة، عندما وصلت الأخبار إلى البلاط الملكي بأن المغول قد دخلوا هنغاريا، أرسل بيلا أسرته بسرعة إلى النمسا، استعداداً للأسوأ.

معركة موهي

بحلول أبريل من عام 1241، عسكر المغول خارج بيست مباشرةً

وكانوا قد اختاروا المكان الأفضل للاشتباك مع عدوهم، في اليوم السابق لمعركة ليغنيتز كانوا قد أبادوا القوة البولندية، مستخدمين استراتيجيتهم التي ما زالت فعالة حتى هذا اليوم والتي يتظاهرون فيها بالتراجع لإغراء البولنديين على الوقوع في فخ، أُرسلت تسعة أكياس من الآذان - أُذُن واحدة لكل ضحية - إلى باتو. والآن، بعد ان تخفّوا بالغابات واحتموا من كلا الجانبين بالأنهار، صار موقعهم حصيناً.

عسكر الهنغاريون في العراء على مرج موهي، وهو سهل مفتوح على مسافة قصيرة من ساجو والذي يطل على السهل برمته، على الرغم من ذلك قرر الملك أن يُحيط المعسكر بمِترسَة من العربات، للاحتياط من هجمات مفاجئة، خطط بيلا كي يُغري المغول ليتقدموا إلى الضفة اليمنى من مستنقع ساجو، وكان فائضاً في ذلك الوقت. فصلت حامية مكونة من ألف فارس لتحرس جسراً حجرياً، وهو الطريق الوحيدة لعبور النهر. انتظر الجيشان اللحظة الحاسمة.

وسرعان ما حلّ المساء، وصل روسي هارب من قوات المغول إلى المعسكر الهنغاري عند الجسر، حاملاً معه اخباراً بأن المغول يزمعون عبور ساجو تلك الليلة بالذات، وقبل الفجر، وصلت القوة الهنغارية الرئيسة إلى الجسر استعداداً لإيقاف تقدم المغول، بعد بضعة قذائف من السهام التي شتت قواتهم بدأ الهنغاريون بالتهكم على المغول على الجانب الآخر من النهر. عند هذه النقطة بدأ باتو بقصفهم بسبعة منجنيقات أحضرها إلى الجبهة الأمامية في منتصف الليل، سحق

المغول حامية الجسر بقنابل الحجارة والنار، إضافة إلى الضجيج المدوي ووومضات النار، كانت تلك هي المواجهة الأولى لأوروبا مع الابتكار المميت، البارود. أربك الضجيج الخيول وأوقع الخيالة في فوضى، استغل باتو هذا الارتباك وتقدم تحت وابل من السهام.

أما الشيء الذي لم يعرفه الهنغاريون فهو أن جيش المغول انقسم إلى صفين أحدهما تحت قيادة باتو عند الجسر الحجري والآخر تحت قيادة الرجل الثاني في القيادة سوبوتاي، أسفل النهر، كان على سوبوتاي أن يبني جسراً مؤقتاً من العوارض وجذوع الأشجار من أجل عبور النهر، لم تكن هذه الغزوات الأولى على المعسكر الهنغاري إلا إلهاء لإعطائه الوقت اللازم لإكمال مهمته ومباغتة الهنغاريين من الخلف.

بعد أن بدأت المعركة بجد، بدا الوضع سيئاً للمغول، تحملت قوات باتو خسائر هائلة، من ضمنها ثلاثون من قواده. لم يكن جيشه نداً لجيش بيلا من دون سوبوتاي، كان لدى الهنغاريين قوة متفوقة تفوقاً واضحاً وهي أفضل خيالة في أوروبا، متفوقين عددياً على العدو بما يعادل ثلاثة أضعاف.

بعد ساعتين من القتال العنيف، شكل جيش باتو هلالاً وتقدموا كما لو أنهم يريدون الإحاطة بالهنغاريين الذين ما زالت جبهتهم الأمامية تتحلى بشجاعة، معتقدين أن النصر وشيك، وبمجرد أن بدؤوا في التقدم باغتهم سوبوتاي من الخلف، كان الهنغاريون عندها محاطين تماماً بالقوات المغولية، وقبل أن تُغلق الكماشة، قاموا بالتراجع بشكل

منتظم إلى داخل معسكرهم المحاط بالحواجز، وعلى الرغم من ذلك حين أصبحوا في الداخل أهلك المغول القسم الأكبر منهم بالمنجنيقات والقنابل النارية، بعد وقت قصير كان الهنغاريون في فوضى عارمة، سارع الجزء الأكبر للجيش المنغولي إلى معسكرهم واخترق معسكرهم في القلب، وقطعوا حبال خيمة الملك، وفرت قواته مذعورة.

لحق المغول بالفارين، وأمضوا يومين في تقطيع الجيش الهنغاري غير المنظم إلى أوصال متناثرة، ساقوا الهنغاريين إلى منطقة مستنقعات وذبحوهم هناك مستخدمين مهاراتهم كصيادين من البدو الرحل، أما القرى التي تجرأت وآوت الناجين كانت تدمر حرقاً ويذبح سكانها، كانت جثث الموتى منتشرة على طول مسيرة يومين من حقل موهي.

مات سبعون ألف رجل في معركة موهي أو هجروها - ومن ضمنهم كولومان، أخو الملك، والكثير من الأساقفة ورؤساء الأساقفة ومعظم الطبقة العليا الهنغارية، كانت الهزيمة في موهي هي الكارثة العظمى في تاريخ هنغاريا، كتب أحد مؤرخي إقليم بافاريا: «مملكة هنغاريا التي بدأت تحت سلطة الإمبراطور أرنولف وقامت طوال ثلاثمئة وخمسين عاماً، أبادها التتار». كانت الحملة المغولية ما تزال في بدايتها.

في يوم رأس السنة 1241 م، عبرت قوات باتو نهر الدانوب المتجمد وصولاً إلى غران، ومن ثم إلى عاصمة هنغاريا. بحلول مارس من عام 1242م عادت قواتهم الاستطلاعية من عدة رحلات استكشافية داخل النمسا. لم يكن هنالك شيء يمكن أن يقف أمامهم، كان الانقسام

والجشع والفوضى قد أوهن أوروبا، وكان الخنجر المغولي موجهاً ليسدد ضربة قاضية.

وفجأة، وصلت رسالة من الوطن المنغولي، تخبر باتو بموت أوجيدي، الحاكم الأسمى للإمبراطورية المغولية، كان القانون المنغولي ينص على أنه بعد موت الخان، يجب على ورثته الشرعيين أن يعودوا إلى منغوليا لانتخاب خليفته، ترك باتو فتوحاته في أوروبا على مضض مؤقتاً وشق طريقه عائداً إلى عاصمة الإمبراطورية، كاراكوروم، ولم يعد، وأنقذت الأقدار أوروبا بتطور غير متوقع.

الصدمات الأوروبية التالية

حطم الهجوم المغولي الضاري هنغاريا، ومن أجل تجنب الغزو في المستقبل، أوجد (بيلا) نظاماً من الحصون، ومن أجل إبقاء هذه الحصون مأهولة، كان عليه أن يتصدق بمقاطعات شاسعة على النبلاء الذين زادت سلطتهم في حين ضعفت سلطة الملك، وفي النهاية انغمرت هنغاريا في فوضى إقطاعية وأصبحت أرضاً مؤجرة إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

كان الوضع في روسيا أسوأ من ذلك، حيث كان المغول قد مكثوا فيها، كان بناء دولة حلماً باهتاً لمن كانوا يعيشون تحت نير المغول، بينما كانت بقية أوروبا تحاول التخلص من العصور الوسطى كانت روسيا تغرق فيها أكثر فأكثر، وسبّب الاحتلال الأجنبي آنذاك مثلما هو الآن

ركوداً في الحياة الثقافية، وبسبب انفصالهم عن جيرانهم في الغرب كان على الروس أن يُشاهدوا أوروبا وهي تنطلق إلى العالم الحديث وهم عاجزون عن ذلك، لقد كانت محنة بائسة ومُذلة تلك التي تركت روسيا متخلفة مئات السنوات وأجبرت لاحقاً دكتاتوريات مثل بيتر العظيم وجوزيف ستالين أن يندفعوا إلى القيام بتحديث سريع على غير المألوف، متسببين بخسائر لا تحصى في الأرواح. هيمن الموت والهزيمة فوق أوروبا الشرقية اكثر من أي ستار حديدي. وكان الغزو المغولي قد تسبب بفصل الغرب إلى نصفين، عازلاً هؤلاء الذين امتصوا الأثر الكامل للحرب.

في حينه تنفست بقية المسيحية الصعداء وقررت أنها إذا لم تكن قادرة على هزيمتهم فسوف تغير دينهم، أملت الكنيسة بهذه الطريقة أن تنتفع منهم في شن هجوم نهائي على الإسلام يكون كافياً لمحو الكفرة عن وجه الأرض.

أرسل البابا إنوسنت الرابع بعثة دبلوماسية يترأسها رهبان فرانسيسكان ليتفاوضوا مع الخان الأعظم، بعد رحلة طويلة وشاقة وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع الملك نفسه، وقالوا له هناك إن البابا يقول إنه يجب أن يتم تعميده، فأجاب الخان الأعظم أنه هو بالأصل يمثل الله على الأرض، وأن الله يأمره بفتح العالم. لو كان البابا يعرف مصلحته لسافر إلى منغوليا وقدم ولاءه.

كان الخبر الجيد الوحيد الذي عاد به الرهبان هو أن المسيحيين

النسطوريين كانوا في مناصب عالية جداً في الإمبراطورية المنغولية، شعر المسيحيون في أوروبا، ومن ضمنهم الملك لويس التاسع بحماسة بالغة، وتوقعوا من التتار أن يُساعدوهم في حملتهم الصليبية الأحدث، من سوء حظ لويس أن آماله لم تتحقق بعد أن تجاهله المغول، أُسر لويس في النهاية ودُمر جيشه على يد سلطة جديدة في مصر.

كان هؤلاء المماليك أتراك قبجاق باعهم المغول في السابق لسلطان مصر كعبيد، واستخدموا ثمن بيعهم لتمويل غزو أوروبا، ومثل الكثير من البدو السابقين أصبح المماليك محاربين أقوياء وبارعين، وأصبحوا بعد وقت قصير ذوي شأن لدى السلطان في قتاله مع الموجة الجديدة من الصليبيين، ولكنهم ثاروا على غطرسة سادتهم الأكراد وإجحافهم. كان ذلك أثناء آخر حملة صليبية أوروبية رسمية بقيادة لويس التاسع حين قام المماليك بإسقاط السلطان الكردي وأقاموا دكتاتورية عسكرية. كانت لديهم خمسة أعوام لتعزيز سلطتهم قبل أن يأتيهم المغول بحثاً عن عبيدهم السابقين.

انتخب خان جديد في منغوليا منكوخان. الذي قرر أن يستمر في فتح العالم بخطى سريعة، كلف اثنين من القادة بالمهمة. يريد منكوخان أن يقتلع سلالة سونغ الحاكمة في الصين بمساعدة أخيه قبلاي (الذي سيتعرف على ماركو بولو قريباً). في حينها، كان هولاكو، وهو أحد اخوة مونغكي الأصغر سناً، سيغزو الغرب، كانت هنالك سلطة واحدة فقط تقف في طريقهم: العالم الإسلامي الذي كان ما يزال ممزقاً بشدة.

وسيكون قتالاً حتى الموت.

سقوط بغداد

كان غزو هولاكو هو آخر الحملات الصليبية وأسوأها، كان القائد المغولي يكره الإسلام كرهاً شديداً، وممن أجج هذه الكراهية المسيحيون النسطوريون والبوذيون في حاشيته، وكان أكثرهم جرأة زوجته ورجله الثاني في القيادة، كتبغا، وكلاهما اعتنق المسيحية، عندما زار الملك الأرميني مونغكي في عام 1255م، كان الخان قد وعده بالقدس، عمل الكثير من المسيحيين الشرقيين لاحقاً على شحن عواطف الضباط المغول، متلهفين للانتقام لأنفسهم من المسلمين والمطالبة بالأرض المقدسة، انضم الأرمن والجورجيون والأتراك إلى قادتهم المغول لتشكيل أكثر الجيوش الآسيوية المركزية هولاً ورعباً لدحر العالم المتحضر.

كانت أولى محطاتهم حصن الحشاشين في قلعة آلموت. الذي كان حصيناً طوال قرون، وكان المعقل الشيعي قد بقي منيعاً حتى ضد صلاح الدين الأيوبي، أما الآن فإن قائده «ركن الدين خورشاه» الشاب الضعيف الذي أصابه الرعب من المغول بحيث استسلم على الفور، واصل المغول قتل كل شيء حي داخل الجدران، حتى الرضع، أُرسل آخر حكام الحشاشين إلى منغوليا حيث رُكل حتى الموت[1]. وطوال

(1) ولكن منكوخان رفض أن يقابله واستحقره جداً، ثم أمر بإعادته إلى فارس وفي الطريق قتل، الذي قتل رفساً وركلاً بالأقدام هو الخليفة العباسي «المستعصم بالله» بأرجل جنود هولاكو.

سنتين بعد ذلك تم البحث عن بقية الإسماعيليين وإبادتهم، وعندما انتهى منهم المغول كان الشيعة نظرياً قد أبيدوا عن بكرة أبيهم،

كانت هذه أخباراً طيبة في بغداد، فقد سعد السُنّة كثيراً لرؤية أندادهم الزنادقة الذين كان لهم أثرٌ طويلٌ في زعزعة الاستقرار وهم يتلقون ما يستحقون، كان آخر الخلفاء العباسيين، المستعصم، رجلاً ضعيفاً منغمساً في معاقرة الخمر ومعاشرة الحريم واللعب بالطيور، وعندما حذروه من تقدم المغول أجاب أنهم بالتأكيد لن يتخلوا عليه ببغداد إذا ما أعطاهم بقية أراضيه، وحرضه رئيس وزرائه، ابن العلقمي، على ألا يدخل في قتال أو يبني المزيد من الدفاعات، وكان هذا الوزير يقوم في الوقت نفسه بإرسال رسائل سرية إلى المغول، يُحرضهم لفعل أسوء ما يستطيعون القيام به، بينما تدعي بعض المصادر أن عقيدته الشيعية هي التي جعلته يبحث عن الانتقام من الحاكم السُنّي، فمن المرجح أن ابن العلقمي كان يريد ببساطة أن يحصل على قصر الخليفة لنفسه، بمساعدة حلفائه الجدد.

قام المغول بداية بتطويق المدينة وبدؤوا برشق السهام، وكانت إحدى خليلات الخليفة تغني له أغنية عندما دخل سهم من إحدى النوافذ وقتلها على الفور، فجأة اتضح للخليفة أن بغداد في حاجة إلى دفاع، أرسل عشرين ألفاً من قواته ليهاجموا العدو، عندما اقتربوا من المعسكر، قام المغول بتحطيم أحد السدود القريبة، وكل من لم يغرق بالفيضان الناتج قطعت أوصاله ارباً ارباً.

في 30 من يناير عام 1259، بدأت قوات هولاكو بتدمير المدينة تدميراً شاملاً، كانت المنجنيقات تطلق جذوع أشجار النخيل وقطعاً كبيرةً من مبانٍ متهدمةٍ، اخترق المغول الجدار الشرقي للمدينة واستولوا على أحياء المدينة الواحد تلو الآخر، استسلم المستعصم بالله بعد رؤية إبادة جيشه وانهيار مدينته ببطء، قدّم هولاكو النبيذ والطعام لآخر خلفاء الإسلام وعائلته حين وصلوا إلى معسكر المغول، ومن ثم تمت خياطتهم في أجود أنواع السجاد وداسوا عليهم حتى الموت[1].

أصبحت بغداد تحت رحمة المغول، طاردوا وقتلوا كل مسلم وجدوه، متبعين طريقتهم التقليدية في النهب وإحراق المباني والاغتصاب والتعذيب والقتل، اتجه الكثير من السكان المرعوبين إلى خانات المسافرين وحبسوا أنفسهم فيها، اندفع المغول من الأبواب، وطاردوهم إلى السقوف وذبحوهم هناك، حتى تدفقت الدماء من المزاريب إلى الشوارع، أما الذين تركوا دون أذى فكانوا فقط اليهود والمسيحيين، بناءً على أوامر هولاكو، وبعض الشيعة الذين استطاعوا شراء سلامتهم بالرشوة.

بعد عدة أيام، خرج القلة الذين نجوا من المراحيض والمجاري التي كانت ملجأً لهم، كانت بغداد التي عرفوها، والتي كانت أكثر مدن العالم تألقاً، قد انتهت، كنوز مكتباتها وملايين المخطوطات التي لا تُقدر بثمن، أُحرقت وأحيلت إلى رماد، سُلبت القصور العظيمة والمساجد

(1) هذا مغاير لما تقوله كتب التاريخ.

الرائعة وهُدمت، وكانت الجثث أسوأ من أي شيء آخر، كانت رائحتها الكريهة شديدة فاضطرت قوات المغول إلى الانسحاب مع كتائبها الجورجية والأرمينية، وربما وصل عدد الموتى إلى مليوني إنسان، حتى في أكثر التقديرات تحفظاً قُدر عدد الموتى بما يساوي 800،000. كانت أسوأ فاجعة حلت بالعالم الإسلامي، وكانت فظاعة تفوق الإدراك.

بعد سقوط بغداد، أصبح الإسلام معرضاً لخطر الإبادة، سيجتاح المغول بقية الشرق الأوسط قريباً ومن هناك إلى أوروبا، ملبين أمرهم الإلهي بفتح العالم.

عين جالوت

في عام 1260، وصل سفراء المغول إلى القاهرة، وقابلوا السلطان المملوكي، الملك المظفر قطز، وكانت معهم رسالة من هولاكو، كانت موجهة بغرور إلى «جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا» وأعلنت الرسالة أن المغول «جند الله في أرضه. . . فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، واسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ. . . وإن خالفتم هلكتم. ». .

تأمل قطز في الاحتمالات، ربما كان تعداد المغول يصل إلى مئة ألف من الرجال الأشداء، لقد قضوا على الحشاشين والعباسيين أيضاً وكانوا يقومون في الوقت الحاضر بسحق الأتراك في بلاد الشام، كان تعداد المماليك الضئيل لا يزيد عن عشرين ألفاً ومحاطين بالصليبيين المعادين

والمماليك الثائرين في بلاد الشام، الذين يقودهم المهيب ركن الدين بيبرس البندقداري. كان المستقبل كالحاً ومروعاً.

لكن قطز كان يعلم أيضاً بالمخاطر. لن يتوقع المماليك أية رحمة من المغول، ستصبح القاهرة بغداد أخرى، مدينة خربة محروقة ومملوءة بالجثث، كان المسيحيون الشرقيون المرافقون للمغول يترقبون بتلهف سقوط فلسطين وبالتأكيد سقوط الإسلام نفسه، كان هذا جهاداً من أجل وجود دينهم بحد ذاته.

لم يُضيع السلطان المملوكي الوقت، أخذ مبعوثي المغول الأربعة إلى زوايا المدينة وأمر بتقطيعهم من منطقة الخصر، عُلقت رؤوسهم على بوابة المدينة. وحصل المغول على إجابتهم.

بعد أن جمع الأمراء الذين كانوا أقل حماسة للوقوف بوجه أكثر الجيوش رعباً، أعلن قطز الجهاد في سبيل الله والدفاع عن دين النبي:

«يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطّلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين».

امتطى قطز حصانه ومشى في المدينة في الليل مع قرع الطبول وكان يصيح «أنا ألقى التتار بنفسي» لكي يوصل فكرته إلى الأذهان. ، بدأ الأمراء المخزيون بتجهيز الجيش بعد أن تأكدوا أنه كان يعني ما يقول.

بمجرد أن بدأت التحضيرات، صُعق المسلمون عندما علموا أن

هولاكو قد انسحب، على بعد قارة منهم مات الخان العظيم مونغكي، مجبراً هولاكو على العودة إلى منغوليا. يبدو أنه سيكون للمماليك حصة في الحظ الجيد الذي أبقى على أوروبا قبل خمسة عشر عاماً.

ولكن هولاكو لم يكن ليترك فتوحاته في العالم الإسلامي. أبقى خمسةً وعشرين ألفاً من جنده، يقودهم أكثر قادته قدرةً، كتبغا، كان الجنرال المغولي مسيحياً نسطورياً وعدواً لدوداً للدين الإسلامي. تقدم كتبغا داخلاً فلسطين متلهفاً ليندفع إلى الكفار ويبيدهم.

مع هذا، لم تكن كل الأخبار في ذلك الشهر سيئة، بعد أن فتح كتبغا بلاد الشام، فر بيبرس القائد المملوكي الآخر مع ما تبقى من جنوده إلى القاهرة، عارضاً خدماته على قطز، على الرغم من العداء القديم بينهما- كان قطز قد قتل شيخ قبيلة بيبرس- كان كلاهما يفهم أن نصر المغول يعني نهايتهم.

وكان هنالك عائق أخير يجب التخلص منه قبل مواجهة عدوهم، سيضطر المماليك إلى المرور بإقليم أكري الصليبي. في حركة غير مسبوقة أرسل قطز رسالة إلى الأوروبيين، طالباً منهم السماح لهم بعبور إقليمهم وشراء المؤن.

منذ أن قام المغول بغزو أوروبا أصبح لدى المسيحيين الغربيين مشاعر متضاربة تجاه القبائل القادمة من الشرق، من ناحية يودون بالتأكيد تدمير الإسلام، ومن ناحية أخرى يُدركون أن دورهم هو التالي، بينما كان ممكناً أن يكون الصليبيون ميالين إلى تجريب حظهم مع هولاكو

ليُخلصوا الشرق الأوسط من المماليك المزعجين، إلا أن البابا ألكسندر الرابع كان معارضاً بشكل حاد لمثل هذه التحالفات.

ارتاع البابا من النهضة المفاجئة لسلطة المسيحية الشرقية، وبفضل المغول كان المسيحيون الأرثوذكس يكسبون الأقاليم بسرعة فائقة، كان الصليبيون مثل الكونت بوهيموند ينضمون إلى تحالفات معهم ويقومون حتى باستبدال الأساقفة الكاثوليك بكهنةٍ أرثوذكس، بالتقدم مع الحليف المرعب ربما يستولي الأرمن والجورجيون على القدس ويفرضون هيبة المسيحية الغربية، قد يكون ذلك ضربة إعلامية خطيرة.

علاوة على ذلك، يستطيع البابا - هذه المرة فقط- أن يُدرك الآثار البعيدة لهزيمة المسلمين، أدرك أنه لا يوجد جيش أوروبي يمكن أن يتصدى لهجوم مغولي آخر، إذا ما تغلبت قوات هولاكو على المماليك فسوف يتقدمون من دون عرقلة على طول الطريق إلى المحيط الأطلسي، سوف يصيب الغرب ما أصاب روسيا، وسوف تباد الكنيسة للأبد.

ظهرت الكتابة اليدوية على الجدار في عام 1257. قام بيرك، الأخ الأصغر لباتو، بقمع ثورة بولندية ولثوانية، تسببت مؤقتاً بطرد المغول من فولهيانيا، مدينة جاليكيا، ضرب بيرك شمال بولندا مثل إعصار، مُحدثاً دماراً أسوأ من عام 1241، ذُبحت الآلاف تلو الآلاف وسُلبت كل المدن والقرى، من ضمنها تركاو، وأُحرقت تماماً.

توسل البابا ألكسندر الرابع من أجل الحصول على مساعدة مسيحية لبولندا. وعندما لم تصل المساعدة، دعا إلى حملة صليبية ضد المغول،

ولكن من دون جدوى، وفي نوبة غضب العاجز، حرّم كِنسياً تحالف الكونت بوهيموند مع المغول في بلاد الشام، ووصلت الأخبار إلى الدول الصليبية وهم منهمكون في التفكير بطلب قطز، واتبعوا قيادة البابا، واتخذوا الجانب الذي يُمثل لهم أهون الشرين، فباعوا المؤن إلى المماليك وسمحوا لهم بالسير من دون إعاقة باتجاه مصيرهم.

التقى المماليك والمغول في عين جالوت، حيث يُعتقد وفقاً للأسطورة أنه هنا في عين جالوت قام الولد الراعي داود بقتل المحارب العظيم جالوت، قام قطز بجمع الأمراء وذكّرهم بما فعله المغول في بغداد والذي سيحدث بالتأكيد لزوجاتهم وأطفالهم، بدأت الجماعة بالبكاء وتعهدوا مرة أخرى بالدفاع عن الإسلام، ولكنهم كانوا ما يزالون خائفين، إنه جيش دمر العالم من الصين حتى النمسا، لقد كان جيشاً أباد خلافة دامت خمس مئة عام، ودمر أعظم مدينة مسلمة، ولقد كان أيضاً جيشاً لم يُهزم في معركة طُوال ستين عاماً.

بدأت الوقفة النهائية للإسلام في 3 سبتمبر من عام 1260 عند شروق الشمس، كانت الطليعة المملوكية بقيادة بيبرس أول من تقدم تحت قرع طبول مدوٍ، وقد اعتقد كتبغا بأن جيش المملوكي برمته كان أمامه، أمر كتبغا بالهجوم واصطدمت القوتان، قام عندها بيبرس بلعبة مغولية قديمة فأمر جنوده بالتراجع، بلع المغول الطعم وطاردوهم.

وقعت قوات كتبغا في فخهم، وأطبقت قوات المماليك الآن كي تبدأ بالقتل، وكانت منتشرة عبر مساحة بعرض أربعة أميال، ولم يكن

هذا ليجبر المغول على التنازل بسهولة. فقاموا بمهاجمة حلقة المسلمين وشقوها إلى قطع، وكان قطز يستطيع أن يرى من فوق ظهر حصانه أنه أوشك على خسارة المعركة، فخلع خوذته وألقاها على الأرض وصاح «وا إسلاماه!» ومن ثم انطلق بحصانه مباشرة نحو العدو، تبعته قواته بشجاعة متجددة مع صيحات «الله أكبر»، وفي تلك الحماسة التي تلت ذلك، قتل المسلمون كتبغا، واجبروا المغول على الفرار، وقام المسلمون بعدها بملاحقة المغول مسافة ثمانية أميال، وقامت قوات قطز بتقطيع ما تبقى منهم، ولاحقاً، ترجل السلطان عن حصانه، ومرّغ وجهه على الارض وقبّلها، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى. لقد كافح المماليك في ذلك اليوم، وقام داود بقتل جالوت مرة أخرى.

إلى غير رجعة

عاد المماليك أدراجهم إلى القاهرة حاملين رأس كتبغا على عمود ودخلوها منتصرين، ولكن خلال ذلك، قام بيبرس بالانتقام من الرجل الذي قتل قائد قبيلته، أثناء مقابلته للسلطان المنتصر قام بيبرس بطعن قطز حتى الموت، وتولى قيادة جيش المماليك. كانت نهاية حزينة لقطز الذي قدم الكثير لمصر والإسلام، ومن المحزن أن ذكرى انتصاره تلاشت مع الزمن.

ولكن تبقى الحقيقة وهي أنه في ذلك النصر المنفرد لجيش المماليك غيّر الإسلام العالم وجعل أوروبا آمنة بما فيه الكفاية من الدمار الذي

كان يمكن أن يبدأ لتستفيد من الهدية العظيمة الأخرى التي قدمها لها الإسلام وهي المعرفة، تنتمي عين جالوت إلى شبيهاتها مثل ماراثون وأكتيوم، هاستنغز وواترلو، غيتسبيرغ وستالينغراد، ومن دون انتصار قطز كان يمكن أن تستمر العصور الوسطى وألا تبدأ النهضة الأوروبية، لقد أوقف غزو المغول وهم في طريقهم إلى العالم الغربي، لن تهدد قبائل جنكيز خان المسلمين مرة أخرى ولا المسيحيين باستثناء أولئك الذين في روسيا.

فتح المماليك، وهم الآن القوة العليا في الشرق الأوسط، آخر الممالك الصليبية وانتقموا انتقاماً رهيباً من المسيحيين الشرقيين الذين وقفوا إلى جانب عدوهم، انقسم المغول أنفسهم بعد وقت قصير بسبب بيبرس الذي علم أن بيرك قائد القبيلة الذهبية قد اعتنق الإسلام، بدأ بيبرس الآن بتحريض اخيه المسلم ضد هولاكو العدو الأول للإسلام، تورط كلاهما في نزاع عائلي دامٍ حتى موتهما وأضعف الإمبراطورية المغولية إضعافاً قاتلاً، وفي نهاية القرن أصبحت منغوليا خراباً محطمة ومنقسمة إلى مجموعة من الممالك المنفصلة.

وبينما واصلت إمبراطورية المماليك الازدهار فترت همة معظم المناطق الأخرى التي دمرها المغول، تعين على المسلمين أن يقوموا بإعادة بناء حياتهم من الصفر بعد أن دُمرت حياتهم الثقافية والزراعية، وبعد أن عانوا من وطأة الوحشية المغولية استغرق إعادة بناء أراضي بلاد فارس والعراق عدة سنوات، ولم تتعافَ بعض المجتمعات أبداً،

واجتاح وباء الطاعون بلاد الإسلام بعد بضعة عقود لاحقة (بسبب المغول) ومزق العالم الإسلامي الذي عاش أكثره في المدن تمزيقاً أقوى من أوروبا، وأبقت الكوارث الواحدة تلو الأخرى قلب الإسلام محطماً وضعيفاً.

وبفضل المقاومة الإسلامية نجا الغرب من كل هذا الدمار الذي شمل الجميع، بالانتصار على المغول أعطى المسلمون أوروبا أفضلية على نحو غير متعمد، كان الأوروبيون أحراراً للبدء في البحث عن العالم الحديث وهم يتمتعون بالأمان وبأساس ثقافي متين وعلم مسلم يُحدث ثورة في طريقة تفكيرهم، من المهم أن نتذكر أن عين جالوت، أكثر من أي شيء آخر، هي التي أنقذت بقية أوروبا من أن تصبح روسيا أخرى، التي غاصت في الإقطاعية والاحتلال والركود الثقافي.

ولكن السقوط كان ذا تأثير أبعد من هذا. بوجود الأرض المقدسة في أيدي المسلمين وجه المسيحيون أنظارهم إلى إبادة الإسلام في أوروبا، وبدأت رحلة صليبية جديدة: وهي إعادة فتح إسبانيا. وعندما انتهت، كان فرديناند وإيزابيلا قد هدما ما كان في الماضي الحضارة الأندلسية الرائعة، وطردوا المسلمين واليهود على حد سواء. ولكن تلك الجهود كادت أن تستنزف العرش الإسباني.

كانت التجارة هي أفضل وسيلة لإعادة ملء الخزائن الملكية. على نحو مؤسف، كانت الجمهوريات البحرية الإيطالية قد احتكرت أكثر الطرق ربحية، وأسوأ من ذلك أنه كان المماليك والعثمانيين الأتراك

يُديرون جباية شرق البحر الأبيض المتوسط، ويطلبون رسوماً عالية على كل مستوردات طريق الحرير المارة في أسواقهم. حاول الملوك الأسبان أن يحبطوا مساعي المماليك والعثمانيين، فقاموا بتفويض بحار إيطالي من جنوا للعثور على طريق بديلة، فغيرت رحلته هذه العالم وغيرت توازن قوى العهد القديم، فلن يكون الإسلام والمسيحية من بعدها على الشاكلة نفسها أبداً.

الفصل التاسع

المغيرون على المكتبة المفقودة

طوال العصور الوسطى كان الإسلام والمسيحية في تفاعل متواصل حتى خلال الغزو المغولي، لم تكن الحملات الصليبية إلا فصلاً صغيراً قاتماً في هذا التاريخ لم يؤد إلا إلى زيادة العداوة وتبديد حياة البشر، ولكن قبل الحملات الصليبية وأثناءها وبعدها غزا المسلمون أوروبا من جميع جهاتها، مخترقين البرج العاجي ومنبر الوعظ وأذهان الناس العاديين، لم يأتوا كجيوش ولكن بين أغلفة الكتب وبأفكارهم المترجمة من العربية إلى اللاتينية باجتهاد طوال قرون عديدة. لقد جاؤوا مع أطوال القماش والسجاد المحاك ببراعة. ولقد جاؤوا في أدوية ومدارس جديدة أسست بناءً على مفاهيمهم العلمية. كان حلفاؤهم هم المفكرين الأوروبيين المتلهفين على العمل والتجارَ والناسَ العاديين الذين اتخذوا من الإسلام ثقافة لهم عبر قرون عديدة.

طليطلة المقدسة

تبدأ القصة في المدينة التي خلدها الفنان إل جريكو في لوحته الساحرة. وعند النظر إلى لوحته التي تصور الجانب الباطني للمدينة،

بهضابها المعشبة تتمايل مع الرياح، ومبانيها الطويلة والقوية تحت سماء هائجة، يشعر المرء بقوة طليطلة، يستطيع سياح اليوم أن يزوروا الكاتدرائية القوطية، ويشاهدوا لوحة جريكو(دفن الكونت أورغاز) ويتجولوا في شوارع العصور الوسطى الضيقة. وإذا ما نظر أحد ما عن كثب سيجد بقايا عصر سابق، زمن عاش فيه المسلمون والمسيحيون واليهود وتعلموا سوية في هذا المكان، كانت طليطلة أكثر من مجرد الهام للوحة عظيمة. كان هذا مكان ولادة الثورة العلمية في أوروبا الغربية.

لقد كانت طليطلة طوال قرون جزءاً من الأندلس. من ثم انحلت الخلافة وبدأت حقبة ملوك الطوائف. بعد ذلك بوقت قصير، غزا طليطلة ألفونسو الرابع من كاستيل في عام 1085 م. في هذه المدينة المثقفة، وجد المسيحيون كنزاً معرفياً رائعاً. جعل ألفونسو من طليطلة العاصمة الجديدة لمملكة تداخلت فيها الثقافات المسلمة والمسيحية واليهودية، كما فعلت منذ قرون في الأندلس في أوقات الحرب والسلم.

تزوج ألفونسو من أميرة مسلمة من إشبيلية وجعل بلاطه يتخذ النمط الإسلامي، ثم بدأت كلمات عربية تتغلغل في اللغة الإسبانية. أصبح رجال الحاشية والمواطنون العاديون عرباً ولبسوا وأكلوا وزينوا وألّفوا ألحانهم باستخدام الأنماط المعقدة لدى جيرانهم في الجنوب.

زخرت طليطلة بالعطاء الثقافي. دُهش الزوار الآتون من نواحي الأمة المسيحية جميعها من روعة إسبانيا الإسلامية، وهي ما سماها أحد الرحالة «حلية العالم». أما عند الأوروبيين الذين كانوا ما زالوا

غارقين في القذارة الذهنية للعصور المظلمة كانت طليطلة منارة مضيئة. وتدفقوا نحوها كما الفراش إلى النار.

كان من بينهم مجموعة من الباحثين عن الكنوز، جاء هؤلاء المستكشفون الجريؤون إلى مصدر طليطلة النفيس: الكتب، وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر أُكتشفت عقول الحضارة الإسلامية العظيمة ثم ترجمت إلى اللاتينية، وأصبحت الترجمة صناعة حقيقية في طليطلة، يدعمها جزئياً رئيس الأساقفة دون ريموندو وكهنة آخرون. ويعود الفضل إلى هؤلاء الباحثين في أن ابن سينا وابن رشد أصبحا اسمين معروفين(أفيسينا وأفيروس) في الجامعات الأوروبية.

لم يكن هنالك مترجم أكثر تأثيراً من جيرارد من كريمونا الذي ولد حوالي عام 1114 م، في بلده الأصلي إيطاليا، استوعب جيرارد وهو شاب كل ما استطاعت أوروبا أن تقدمه من علم محدود، وبعد أن ملّ وضجر سافر إلى طليطلة حيث أمضى هناك السنوات الأربعين التالية من حياته في ترجمة عدد كبير من الأعمال العلمية اليونانية والإسلامية، التي أصبحت فيما بعد كتباً منهجيةً للطلاب الأوروبيين طوال القرون الخمسة أو الستة اللاحقة، وبفضله دخل المزيد من العلم العربي إلى اللغة اللاتينية أكثر من أي مصدر آخر.

والقائمة الرسمية لترجمات جيرارد من العربية تضم سبعة وثمانين عملاً في موضوعات المنطق والفلسفة والرياضيات والفلك والطب والتنجيم والكيمياء القديمة والضرب بالرمل (بغية التكهن وكشف

الغيب). كانت قائمة مؤلفي الأعمال التي قدمها إلى أوروبا مذهلة: أرسطو والرازي والكندي وإقليدس وأرخميدس وابن الهيثم وجالينوس وأبولو وهبسيكليس وثيودوسيوس ومينلاوس وبطليموس والخوارزمي والفرغاني والنيزيري وثابت بن قرة وابن سينا وأبو القاسم، وهذا غيض من فيض. وهذه الأعمال تؤلف بمجملها موسوعة للمعرفة العلمية الإسلامية. وبفضل جهود جيرارد، استحدث عدد من المصطلحات الفنية في اللغات الأوروبية، مثل شبكية العين (retina) وقزحية العين (iris) وشكل العين (rhombus) والترقوة (clavicula).

كانت الترجمة عملاً مضنياً ويستغرق وقتاً طويلاً، وينجز عادة بالشراكة، كان أحدهم يهودياً يتقن لغتين أو مستعرباً مسيحياً يقوم بترجمة العمل إلى اللغة الشائعة، وعالم آخر يقوم بالترجمة إلى اللاتينية. كل من هؤلاء المستكشفين اللغويين كان له اهتماماته الخاصة. كان جيرارد يفضل في الغالب قراءة كتاب بطليموس (المجسطي). وأنتج الآخرون مثل جون الإشبيلي نسخاً لاتينية في علم الفلك الإسلامي. أما روبرت الذي أصبح رئيس أساقفة بامبلونا، وهيرمان الدلماسي فكانا شريكين وظفتهما الكنيسة لتنفيذ أول ترجمة للقرآن. قدّم روبرت لأوروبا أيضاً كتاب الخوارزمي «الجبر» وأعمال الكندي. عمل هيرمان على كتاب بطليموس «خريطة نصف السماء» وكتاب إقليدس «العناصر». وهناك ثنائي آخر من المترجمين بين الأديان هما دومينيك جونديسالينوس، رئيس شمامسة كويلار وشريكه اليهودي

أفيندوث أو ابن داوود. تعاونا على إنجاز عمل ابن سينا «عن الروح»، وعملا منفصلين على كتاب الغزالي «مقاصد الفلاسفة» وكتاب ابن سينا «الشفاء».

كان اليهود في مكان آخر في أوروبا يُذبحون أو «يُطهرون عرقياً»، كما كانت الحال في إنجلترا تحت سلطة الملك الصليبي ريتشارد الأول. ولكن هنا، في هذه البيئة المتعددة الثقافات، عمل اليهود والمسيحيون في انسجام كامل، وهكذا اكتشفت كنوز طليطلة ووزعت على أوروبا من خلال جهود هؤلاء الرجال وكثيرين غيرهم.

لم يكتشف المسيحيون هذه الأعمال في فلسطين التي غزوها. لقد وجدوها في حديقتهم الخلفية، وهي بقايا حضارة تفوقت على حضارتهم بأشواط. والآن منحوا هذه الأعمال لأوروبا كهدية لا تقدر بثمن، بذور حقبة جديدة. كان هؤلاء المترجمون هم الصليبيين الحقيقيين، وهم يُحررون أرض العقل المقدسة بكل طريقة.

كتاب روجر

قبل أن تكون اللغة الإيطالية هي اللغة الرسمية لصقلية، كان يُسمع صوت المؤذن في (باليرمو). فاز المسلمون أخيراً بصقلية في عام 902 م في حرب استنزاف متقطعة مع البيزنطيين عندما حُوصرت (تاورمينا) وافتتحت، وهي آخر معقل للمقاومة المسيحية. ومن صقلية شن المسلمون غارات على الأراضي الإيطالية، حتى إنهم أبحروا إلى تابير في

عام 846 م لنهب روما وسلب كنيسة القديس بطرس، كانت الأراضي الإيطالية عرضة لهجمات المسلمين حتى القرن العاشر، وخلال المئتي عام التاليتين احتل المسلمون قطاعات من أبوليا وكالابريا، ومن ضمنها مدن باري وبرينديسي وريجيو. وبعد أن أبحروا إلى أبعد من ذلك، أنشئوا مستعمرة في فرنسا، بالقرب من مدينة نيس، وهكذا سيطروا على ممرات جبال الألب حتى عام 973 م.

كانت صقلية خليطاً متعدد الأعراق من العرب واللمبارد واليونانيين واليهود والبربر والفرس والأفارقة، وإذا وضعت خليطاً من التعصب الديني من المسلمين والمسيحيين، وأيضاً من السنة والشيعة، فالنتيجة هي انفجار يوشك أن يحدث، لم تكن الحياة في صقلية المسلمة مستقرة على وجه التحديد، على الرغم من أن أحد الرحالة العرب ادعى أن صقلية فيها مساجد أكثر من أي منطقة في العالم الإسلامي. أغرت صقلية التجار من الجزيرة العربية ومصر والمغرب وإيطاليا أيضاً لأنها كانت مركزاً تجارياً مزدهراً، أقامت الأنظمة المسلمة المختلفة تحالفات مع نابولي لقتال ثوارها اللمبارد، حتى إنها وقفت إلى جانب البيزنطيين ضد الإمبراطور الألماني (أوتو) الثاني.

كان مسلمو صقلية يتورطون في النزاعات السياسية في شمال إفريقيا عندما لم يُحاربوا البيزنطيين، كان في تلك الجزيرة تجمع كبير للبربر يثور بشكل دوري ضد حكامه الفاطميين، ثار المسيحيون أيضاً، مع لهفتهم إلى القسطنطينية، وفي الوقت نفسه طُلب من الصقليين المسلمين في

القاهرة أن يدعموا جهودهم في إفريقيا أو يدعموا فاطمياً ضد آخر، بدأ تأثير استنزاف القوى البشرية والمصادر والمال بالظهور في القرن الحادي عشر.

كما كان الحال في أي مكان آخر في العالم الإسلامي، أضعفت الحرب الضروس صقلية إضعافاً مميتاً، كان هذا هو الوقت المثالي للمسيحيين لاستعادة الأراضي الضائعة، وبحلول عام 1060م، احتل المحاربون النورمانديون ميسينا، وتدرجوا من هناك في سلسلة من الحملات التي أدت في عام 1072م إلى أسر (باليرمو)، قاوم المسلمون بشجاعة، ولكن الاقتتال الداخلي ونقص الدعم من إخوتهم في الدين أدى إلى الاستسلام النهائي في عام 1091 م.

على الرغم من تلك الحال فقد كانت الحضارة الإسلامية بعيدة كل البعد عن خطر الإبادة، في الواقع أصبح الفاتحون النورمانديون بعد وقت قصير مواطنين محليين – ومنهم روجر الثاني الذي حكم منذ عام 1111 م وحتى عام 1154 م. سمح الملك الجديد للمسلمين بالانضمام إلى بلاطه وجيشه، وأقام علاقات سياسية مع الفاطميين، واحتفظ بحريم من النساء المسيحيات والمسلمات، وهو شيء روّع البابا. كان القائد العسكري الفرنسي الجلف مفتوناً افتناناً واضحاً برعاياه المسلمين الأكثر تحضراً.

مدح المؤرخون العرب أيضاً روجر بسبب رعايته للفلاسفة وعلماء المسلمين. كان الحاكم النورماندي مُهتماً اهتماماً خاصاً بالجغرافيا،

وهو مجال متخلف نسبياً في أوروبا في العصور الوسطى، كان الرجل الذي أرضى فضول (روجر) حول العالم من خارج صقلية هو أبا عبد الله محمداً بن محمد بن عبد الله بن إدريس القرطبي الحسني، يمكنك أن تفهم لماذا كان يُسميه معظم الباحثين بالإدريسي.

وُلد الإدريسي في الأندلس في عام 1099، وتعلم في قرطبة، وأمضى العديد من السنوات في التجوال على طول الحضارة الإسلامية وعرضها. أما تفاصيل سيرة حياته فقليلة لأنّ المؤرخين المسلمين عدّوه مرتداً بعد تحوله إلى المسيحية، عرض الإدريسي خدماته على (روجر) لأسباب مالية، وكرس أشهر أعماله له، وأمضى بقية حياته في صقلية المسيحية، ومقابل كرم (روجر)، قدم له الإدريسي العالم.

كان الرحالة المسلمون قد وصلوا إلى الهند والصين براً وبحراً قبل قرون من ذلك، لقد أبحرت سفنهم التجارية على طول سواحل إفريقيا، حتى إن بعضها قد غامر بدخول المحيط الأطلسي الغامض، ولكي يعرض الجغرافيا الإسلامية لروجر، بنى الإدريسي خريطة لنصف الكرة السماوية من الفضة تبين خريطة العالم المعروف بتفاصيل رائعة.

ملأت الرهبة قلب (روجر) ورجال بلاطه من شدة اتساع القارات والبحار، وبناءً على أوامر نصيره، ألف الإدريسي شرحاً مكتوباً لكرته الأرضية النفيسة، ضم فيه الكثير من التفاصيل الاقتصادية والسياسية وحتى المناخية، كان هذا هو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق». بالنسبة للنورمانديين كان معروفاً ببساطة «بالكتاب الروجري»، أو

«كتاب روجر». وفي أحد كتبه اللاحقة الذي قدمه لابن روجر، ويليام الثاني، ابتكر الإدريسي أطلسَ للعالم، يتكون من ثلاث وسبعين خريطة. وطوال قرون لاحقة عملت ثروة المعلومات التي قدمها الجغرافي المسلم مع خرائطه ذات الدقة العالية – المبنية على المراقبة العلمية – على إثراء وزيادة معرفة المسيحيين بالعالم خارج حدودهم.

قواعد الصحة

انتشرت في القرن الحادي عشر بذور التعليم الإسلامي من صقلية لتثمر على البر الرئيسي لإيطاليا في مدينة ساليرنو، بالقرب من نابولي، تعرّف العالم الأوروبي لأول مرة على الاكتشافات المذهلة للرازي وابن سينا وآخرين، أصبحت (ساليرنو) أول جامعة طبية في أوروبا، كان وصول قسطنطين الإفريقي هو كل ما تَطلبه الأمر لافتتاحها.

وُلد قسطنطين في قرطاجة، وأمضى شبابه في الارتحال عبر العالم المعروف، فقام بزيارة بغداد والهند وإثيوبيا والقسطنطينية، ووجد أخيراً طريقه إلى إيطاليا، حيث أصبح أمين سر لأخي (روجر)، دوق ساليرنو، قام طوال سنوات بإعطاء محاضرات في الطب حتى أصبح راهباً بنيدكتياً وانتقل إلى دير، حيث مات هناك في عام 1087م.

كانت معظم تفاصيل حياته أسطورية، ولكن يبدو أن قسطنطين كان مسلماً اعتنق المسيحية، بالنسبة لأوروبا، كانت هبة من الله: مسيحي يتحدث العربية ومُدرب على آخر ما توصلت إليه مدارس الطب في

العالم الإسلامي، انكب في لمح البصر على ترجمة سلسلة من الكتب العربية التي أخرجت الطب الأوروبي من العصور المظلمة.

وبمساعدة رفيق عربي اسمه (جون)، المعروف بلقبه «الساراسيني» (Saracen) (وهي التسمية التي كان الأوروبيون يطلقونها على العربي أو المسلم في ذلك الوقت)، ترجم قسطنطين النص الطبي القياسي في العالم الإسلامي، الكتاب الملكي لابن العباس، طبيب الخليفة، تعلم الأوروبيون في ذلك الوقت الجراحة، وتعلموا أيضاً كيف يُعالجون البواسير وأورام الأنف المخاطية ومياه العين والعدوى، لقد درسوا تعقيدات نظام الأوعية الشعرية، واكتشفوا أمراض النساء وبدؤوا في ممارسة اختصاص طبي إسلامي: تحليل البول.

بفضل الرازي وآخرين غيره مثل جالينوس، عَدّ الطبُّ الإسلاميُّ الملاحظةَ السريريةَ أكثرَ موثوقية من علماء مثل جالينوس، بدأ الطلاب بدراسة علم التشريح بتشريح جثث الخنازير بإرشاد من قسطنطين، مع تلقيهم العلم بوفرة قام الطلاب والأساتذة بعد وقت قصير بجعل (ساليرنو) اسماً مرادفاً للجراحة، وكتب أحد الخريجين، واسمه (روجر) من (ساليرنو) أول نص جراحي أوروبي، وأدرج فيه الدروس التي تعلمها من الطب الإسلامي.

وسُمح للنساء بالدراسة في جامعة (ساليرنو) كبقية الجامعات الإسلامية، وأُسِسَت الجامعة مستقلة عن الكنيسة، كان المنهج الدراسي هو المنهج نفسه المستخدم في بغداد، مع تخصيص ثلاث سنوات

للدراسة العامة وأربعٍ أخرى للتركيز على الطب. وكانت السنة الأخيرة للتدريب تحت إشراف أحد الأطباء المحاضرين.

وبحلول القرن الثاني عشر، ألفت (ساليرنو) ما أصبح يُعرف «بقواعد الصحة»، الذي صدر بمئة وأربعين طبعة، وصيغ كتاب «قواعد الصحة» شعراً في ألفين وخمس مئة بيت شعري لإيصال المفاهيم الأساسية للطب الحديث، حيث شجع قراءه على التبول بانتظام، وتنظيف أسنانهم، وأكل عشاء خفيف، والنوم في الليل مدة لا تقل عن ست ساعات.

انتشر الطب الإسلامي عبر أوروبا كالنار في الهشيم، ولا عجب في ذلك، لأنه نجح أكثر بكثير من الخرافات والعلاج الشعبي الذي كان الناس مجبرين عليه، عندما اكتشف الأوروبيون فعاليته، اندفعوا للدراسة في (ساليرنو) وبنوا خلال وقت قصير معاهد مشابهة أقرب إلى أوطانهم، أصبحت هذه الجامعات الأولى التي بدأ فيها الأساتذة بالتوسع معتمدين على أهم صادرات المسلمين الثمينة وهو المنهج العلمي، بدأت النهضة الإيطالية فعلاً في (ساليرنو)، وليس في توسكاني، المدينة الدولة.

نوع مختلف من الحملات الصليبية

أُجبر النورمانديون في عام 1194 م على حزم أمتعتهم والرحيل عن صقلية، لقد استولت الإمبراطورية الرومانية على مملكتهم معلنة حلول حقبة جديدة، تُوج فريدريك الثاني، وريث العرش، في (باليرمو) في عام 1198 في الثالثة من عمره، ماتت أمه في تلك السنة وأصبح البابا

أنوسنت الثالث هو الوصي على الملك الصغير، ولأنه كان ملكاً منذ صغره، أتقن فريدريك الصغير فنون القتال واللغة العربية. وبالقياس إلى الحكام في وقته (أو في أي وقت) كان فريدريك مفكراً فريداً من نوعه، كرس وقته للفلسفة والعلم.

تُوج فريديرك في عام 1215 إمبراطوراً رومانياً مقدساً بعد أن تفوق على أحد المدعين بالحق في العرش، قرر فريدريك في نوبة من نوبات الورع والتقوى رفع الصليب والخروج في حملة صليبية على الأغلب بسبب انتقاله المفاجئ إلى السلطة، توجهت الجيوش المسيحية إلى مصر، تنفيذاً للعهد الذي قطعه الإمبراطور على نفسه، على أمل أن يقوموا من هناك بمحاولة أخرى «لتحرير» الأرض المقدسة.

علاوة على ذلك، بقي الكثير من الفرنجة في فلسطين، وقد أصبحوا أغنياء بسبب تجارتهم مع العدو، ولم يكونوا قطُّ مسرورين بهذه الموجة الجديدة من المتعصبين القادمين من الغرب والذين يرتدون الدروع المصنوعة من السلاسل، ولكن هذا لم يُوقف حماسة الصليبيين، وفي هجوم مفاجئ على دمياط، استطاعوا أن يحتلوا المدينة، وكان السلطان مرعوباً جداً بالانتصار بحيث أنه مات على نحو غير متوقع، تاركاً ابنه الكامل في موقع المسؤولية.

من ثم حدث شيء استثنائي، طلب أحد الأوروبيين إيقاف القتال كي يطلب اجتماعاً مع السلطان الجديد، كان هدفه هو تغيير دين المسلمين وإيقاف سفك الدماء. طوال ثلاثة أيام استمع الكامل إلى

القديس المحبوب جداً في الكنيسة، فرانسيسكو من أسيسي، وهو يعظه بالإنجيل، وفي النهاية ودعه السلطان بهدايا وفيرة (رفضها فرانسيسكو) قائلاً «صلِّ من أجلي، ربما يتكرم الله ويُظهر لي القانون والإيمان الذي يرتضيه أكثر»، استسلم الكامل في النهاية لفكرة التخلي عن القدس ومحيطها إذا ما غادر الصليبيون مصر.

لكن المسيحيين ازدروا تسوية فرانسيسكو السلمية، وبتشجيع من البيزنطيين، أصرّ الفرنجة على الإبادة التامة للكفار، وفي هذه اللحظة الحاسمة لم يظهر فريدريك كعادته. سرعان ما سئم الصليبيون من انتظار وصوله للإيفاء بعهده، فدمروا عقوداً من التجارة السلمية والنية الحسنة، واستعدوا لمهاجمة القاهرة.

لم يكن هذا يعني هذه المرة انتصاراً سهلاً مثل دمياط، عندما سار الصليبيون في حر شهر أغسطس، لم يلاحظوا أن نهر النيل كان يفيض، انغمرت أسلحتهم وخيولهم بسرعة في الوحل، وتوقف تقدمهم، لم يستغرقوا وقتاً طويلاً ليقرروا الانسحاب، وحالما انسحب الجيش أمر الكامل بتدمير السدود على النيل، بعد وقت قصير أُلقي الفرسان على جزيرة من الرواسب الطينية، في أعقاب تلك الحادثة كان الكامل كريماً كرماً استثنائياً، وبدلاً من تقطيعهم إرْباً إرْباً، أجبرهم على توقيع اتفاقية يعدون فيها بأن يبقوا خارج مصر ثماني سنوات.

في ذلك الحين كان فريدريك يقوم ببعض الحملات الصليبية بنفسه في أرض الوطن، كان مسلمو صقلية قد ثاروا، وبدأت مقاومتهم خلال

شبابه، رافضين أن يدفعوا ضريبة لدعم الحملات الصليبية، وبعد أعوام من الحرب وفي عام 1224 م قرر فريدريك أن يقوم بتطهير صقلية عرقياً، والتخلص من آخر ستة عشر ألفاً من المسلمين دافعاً إياهم إلى (لوسيرا) في بر إيطاليا الرئيسي، لسوء الحظ كانت جاذبية (لوسيرا) مثل محمية هندية أمريكية، هناك قام النازحون بتأسيس أرض إسلامية محكومة بالموت منذ البداية، في بحر من المسيحيين المُمعنين في عدائهم، وبسبب ضعفهم أصبح مواطنو لوسيرا المسلمون هدفاً في النهاية للفرنسيين الذين احتلوا صقلية بعد الألمان، في عام 1301م أباد الفرنسيون سكان (لوسيرا)، الذين أسموهم «مرضاً وعدوى».

على الرغم من كل هذا بقي فريدريك منجذباً ومفتوناً بالثقافة الإسلامية، قام في السنة نفسها التي طهر فيها صقلية عرقياً بتأسيس جامعة نابولي، وكان مركزها الفكري مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية، أخذ الكثير من موظفي بلاطه من لوسيرا – محامين وباحثين وعلماء واصل معهم دراساته العلمية، سببت النساء المحجبات الكثيرات اللواتي احتفظ بهن فريدريك بفضيحة له، فادعى فريدريك أنهن مجرد خادمات، للقيام بأعمال الخياطة وما شابه، لكن الكنيسة ارتعشت لمجرد التفكير بأن الإمبراطور الروماني المقدس يحتفظ بالحريم مثله مثل الكفار، وما سبب صدمة أكبر هو إقامته لجيش خاص من الجنود المسلمين المخلصين الذين كانوا يمارسون شعائرهم الدينية علانية بينما كانوا يُعسكرون معه.

في عام 1225 م تزوج فريدريك من (يولاندا) وريثة عرش المملكة اللاتينية في القدس – أي انها ستكون الملكة إذا ما استطاع المسيحيون استرجاعها في المستقبل، حصل فريدريك على فرصته في عام 1227م عندما طلب الكامل مساعدة الإمبراطور ضد أخيه المعظم، الذي كان يُسيطر على القدس، إذا ما استطاع فريدريك أن ينتزع القدس من المُعظَم فإن الكامل سوف يُقِرُ بالسيادة المسيحية هناك، وللمصادقة على الاتفاق أرسل الكامل حديقة حيوانات حقيقية، تتضمن فيلاً وزرافة، أدهشت هذه الحيوانات الرائعة الأوروبيين الذين لم يكونوا ليتخيلوا هذه المخلوقات الغريبة في أكثر أحلامهم جموحاً، ابتهج فريدريك كثيراً بحيث قام بمنح المبعوث المسلم لقب فارس.

سئِم البابا غريغوري من هذه العلاقات الدافئة مع العدو، كما سئم من حريم فريدريك، فقد كان البابا أحد حكام المسيحية الأكثر تعصباً. كان هذا البابا هو الرجل الذي أصدر الأحكام القضائية في عام 1227م والتي تُطالب أن يرتدي اليهود والمسلمون ملابس مميزة وأن يلزموا منازلهم في أيام المناسبات المسيحية (التي كانت كثيرة)، ولم يكن يُسمح لهم أيضاً بأن يتقلدوا وظائف رسمية، ولم يكن مُصرحاً لهم بالتأكيد أن يُصلّوا في الملأ، تجاهل فريدريك الأحكام القضائية، ولكن ليس لأنه كان صديقاً للمسلمين، بل لأنه يتمتع بحب غامر للثقافة والحكمة الإسلامية، وكان أيضاً ذكياً مما جعله يبقي على روابط دبلوماسية ودودة مع الحكام المسلمين مثل الكامل، ولكن البابا لم يكن مهتماً بوجهة نظر

فريدريك العالمية المنفتحة الذهن. لقد أخبر الإمبراطور بوضوح أنه إن لم يُلَبِّ عهده بالذهاب لذبح الكفار فإنه سوف يعاقب بالطرد من الكنسي، استجاب فريدريك بسعادة متوقعاً أن يحصل على القدس بمساعدة حليفه المسلم الجديد، بدأ الرحلة ثلاثة آلاف فارس (من ضمنهم جنوده المسلمون)، بينما بقي فريدريك في إيطاليا، وهو يتظاهر بالمرض، فقام البابا الغاضب بطرده كنسياً مرتين على الفور.

في النهاية انطلق الإمبراطور في طريقه إلى فلسطين، فوجد أن آماله قد سُحقت، كان المُعظم قد مات واستحوذ الكامل على القدس، عندما طلب فريدريك من السلطان أن يفي بوعده أجابه الكامل أنه إذا ما فعل ذلك الآن فسوف يُثير غضب المسلمين، أدرك السلطان أهمية طرد فريدريك الكنسي وعوّل على الانقسام في قواته المسلحة، وكان يعلم أيضاً أن سفن الإمدادات المسيحية قد غرقت في طريقها، تاركة الصليبيين على حافة الهلاك جوعاً، على الرغم من ذلك احتاج الكامل إلى أن يُنقذ قوته كي يفتتح بلاد الشام، فقام كلا الحاكمين في النهاية بتوقيع معاهدة يتسلم فيها الصليبيون السلطة في القدس والناصرة، وتعهد فريدريك أيضاً بالسماح للمسلمين بممارسة دينهم هناك وألا يرفع السلاح ضد السلطان، وفاز الصليبيون بالقدس للمرة الثانية، من دون هدر قطرة من الدم، كانت تلك هي اللحظة الهامة في التاريخ الصليبي البائس، تحققت فقط عن طريق عادة فريدريك الغريبة وهي النظر إلى المسلمين من

خلال عدسة السياسة بدلاً من عدسة التعصب الديني.

قام فريدريك بجولة في مسجد قبة الصخرة بعد أن توّج نفسه في كنيسة الضريح المقدس، معتلياً منبره، لسوء الحظ، لم يَحظَ عرضه للتسامح الديني باحترام أي من المسيحيين أو المسلمين، الذين كانوا ينظرون إلى المعاهدة على أنها خيانة، وقد مات السلوك المتحضر والسلمي للحاكمين مع موتهما، وفي عام 1244م احتل الأتراك القدس، وانتزعوها من الصليبين إلى الأبد.

المسائل الصقلية

بينما لم تؤدِ مغامرة فريدريك في القدس إلا القليل في تغيير مجرى التاريخ أدت حملة صليبية أخرى في الوطن إلى نتائج مذهلة، كان فريدريك منهمكاً أيضاً في بحث فكري في خضم مهنته السياسية الصاخبة، ولم يكن هدفه إلا الفهم الكامل للحكمة الإسلامية حتى لو كلفه هذا أن يُطرد كنسياً.

كان بلاطه معجزة للبحث العلمي، ويتضمن معرضاً للحيوانات الغريبة وخيمة فيها نموذج للنظام الشمسي مصنوع من الذهب والأحجار الكريمة، وكان هدية من سلطان دمشق، في هذا المحيط الذي أُنشِىء بعناية، كانت كُليته الخاصة المتكونة من طلاب العلم المسلمين تبدي رأيها حول كل أركان المعرفة الإسلامية، وتسارعت ترجمة النصوص العربية التي بدأت في القرن الحادي عشر إلى

اللاتينية إلى درجة كبيرة.

كان مايكل سكوت السيئ الصيت أحد المترجمين الرئيسيين في بلاطه، كان مايكل شاباً قد ترك وطنه أُسكتلندا للتنقيب في كنوز المسلمين واليونانيين في طليطلة، ورحل من هناك إلى صقلية حيث أصبح المترجم والفلكي والطبيب والكيميائي الرئيسي لدى فريدريك، كما ادّعى البعض أنه كان ساحره، في (باليرمو) الملكية أكمل (سكوت) ترجمته لابن سينا، والفيلسوف اليهودي موسى مايمونيديس والأهم من ذلك شروحات ابن رشد على كتاب أرسطو «عن الروح».

كان فناء البشر أحد أكثر معتقدات ابن رشد إثارة للجدل، وهي قصة لها علاقة بتجربة فريدريك المروّعة لإثبات هذه الفرضية، بينما كان يتحدث مع كاهن ادعى أن الروح خالدة قرر فريدريك أن يضع أحد أتباع الرجل في برميل، وأُغلق البرميل بإحكام، مات الرجل البائس بسرعة بسبب الاختناق، بعد فتح البرميل، صاح فريدريك معلناً أنه لابد أن الروح قد ماتت معه، بما أنه ليس هنالك مكان آخر يمكن أن تكون قد هربت إليه.

وسواءً كانت القصة صحيحة أم لا فإنها تكشف عن بُعد في شخصية فريدريك كانت تراه الكنيسة مرعباً أكثر من أي شيء آخر، لقد كان رجلاً علمياً، يميل إلى الشك بطبيعته، يستخدم المناهج الإسلامية العلمية لتهديد المعتقدات المقدسة المسيحية، وفي رسالة كتبها إلى الجامعة الطبية في (ساليرنو) بتاريخ 1240م، قام بتشجيعهم على دراسة التشريح وذلك

بتشريح الجثث البشرية. كان فريدريك يعلم جيداً أن الكنيسة قد حرمت هذه الممارسة طوال قرون، كان ببساطة غير آبه بالمعتقدات القديمة والخرافات.

كان فريدريك فضولياً جداً حول فلسفة ابن رشد الجديدة بحيث قام بتأليف ما أصبح يُعرف بالمسائل الصقلية، كان أكثر ما يُريد فريدريك معرفته هو هذا: هل العالم خالد؟ وهل يمكن أن تكون الروح فانية فعلاً؟ ومع هذه الأسئلة كانت ثمة أسئلة أخرى لها علاقة بالبصريات والديانة الإسلامية والحديث الشريف، دارت هذه الأسئلة حتى وصلت إلى الكامل وغيره من الشخصيات المسلمة البارزة حتى انتهت إلى يد الخليفة الموحد، فأرسلها إلى مسلم إسباني اسمه (ابن سابين)، الذي ألف كتابه (الرد على المسائل الصقلية)، وهو مصدرنا الوحيد المتبقي لأسئلة فريدريك الأصلية.

ما أذهل الإمبراطور هو الفلسفة والعلم والدين الإسلامي، وهي الأشياء نفسها التي احتقرتها الكنيسة وكانت تخافها أشد الخوف، قام البابا بطرده كنسياً مرة أخرى، مُدعياً أن فريدريك قد أنكر مولد العذراء وقال عن موسى والمسيح أنهما دجالان، ربما لم يكن هذا بعيداً جداً عن الحقيقة، بما أنه حتى المؤرخين المسلمين أيضاً نوهوا إلى أن فريدريك كان من أتباع المذهب المادي يعبث بدينه التقليدي.

كان فريدريك خطيراً لأنه لم يكن مجرد طالب علم متواضع، كان الإمبراطور الروماني المقدس يمتلك الوسائل والسلطة الكافيتين لنشر

أفكار ابن رشد عبر المسيحية قاطبة، وفي النهاية كان فريدريك أنجح صليبي في تاريخ العصور الوسطى، فاز بالقدس ونشر أيضاً العلم والفلسفة الإسلامية في كل ناحية من نواحي أوروبا. ربما كان أكبر برهان على نجاحه هو كتاب دانتي « الجحيم» (Inferno)، حيث نجد فريدريك في جهنم.

مرافقون غريبون

كانت الكنيسة خلال العصور الوسطى تشتكي من شرور «المسلمين» والأتراك، وفي الوقت نفسه كانت الجمهوريات التجارية الإيطالية تقوم بتجارة نشطة مع العدو، ومع مرور الزمن استمال ذوقُ العالم الإسلامي المتحضر العالمَ المسيحي مما خلق أسواقاً كبيرة لبضائعها الكمالية التي غيرت الثقافة الأوروبية وطعامها.

تاجر الأوروبيون مع المسلمين قروناً عديدة ولكن بفتور، كان الفايكنغ يبحرون نحو جزيرة العرب لمقايضة الخشب والفراء والذهب، كان بعض الأسبان والفرنجة يقومون بين الحين والآخر بالدخول خلسة إلى الأندلس لتذوق العصير والهليون، كما سافر بعض الرهبان المغامرين إلى الأراضي المتاخمة للحدود الإسبانية كي يُلقوا نظرة على العدو. لكن أوروبا في باكورة القرون الوسطى كانت ما تزال عالماً من الأقاليم والقرى المعزولة. كان لدى القلة منها الوسائل أو القدرة على المغامرة داخل أراضي الخلافة الغربية.

وقد تغير هذا مع نمو المدن وتطور طبقة التجار ودرجة التجارة في القرن الحادي عشر، وظهرت فجأة مجموعة جديدة من الرجال، يحاولون أن يوجدوا الثروات لأنفسهم ويُظهروا لحكامهم السابقين كيف يمكن أن تكون الحياة بأحدث طراز فعلاً، هؤلاء الذين كانوا قادرين على الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط كانت لديهم ميزة خاصة، لقد كانت الدولة المدينة مثل البندقية وجنوا وبيزا هي الرائدة.

كان البحر الأبيض المتوسط هو شريان الحضارة، فقد حملت طُرقه البحرية ثروات الصين إلى سواحل إسبانيا، وكانت سواحل مصر الفاطمية وأسواق بغداد هي وُجهة قوافل طريق الحرير وأقمشتهم وتوابلهم المترفة ومباهج أخرى، أثناء الحملات الصليبية كانت السفن الإيطالية تَستخدم عبارات وسفن إمدادات وتستخدم في الحروب أيضاً، فبدأت بذلك علاقة طويلة ومُثمرة مع المسلمين الذين كانوا يُريدون منهم شيئاً بالفعل، وكان هذا الشيء في الغالب هو الخشب والحديد، في مقابل ذلك كان سكان البندقية وجنوا وبيزا سعيدين بالحصول على الفلفل والسكر وأطعمة أخرى، والحرير الخام والمُصنّع، والزجاج، والأواني المعدنية والأحجار الكريمة، عند الوصول إلى أوروبا كانوا يجنون أرباحاً مذهلة، ويزيدون ثراء خزائنهم الخاصة ويُحولون جمهورياتهم البحرية الضعيفة إلى كيانات سياسية رئيسية.

أقام الإيطاليون روابط دبلوماسية مع مصر وتونس في منتصف القرن الثالث عشر من أجل حماية استثماراتهم الضخمة، كانت الموانئ الهامة

آنذاك تحت سلطة المماليك، واستفاد كلا الطرفين من التجارة متجاهلين الفوارق الدينية بينهما.

استمر هذا حتى أعلن البابا، الذي أثار سخطَه استردادُ المسلمين لفلسطين، حظراً تجارياً على التجارة مع العدو في عام 1291 م، بسبب تدخل البابا فيما لا يعنيه أُعيق الاقتصاد الأوروبي الذي نما بالاعتماد على طلب المسلمين للخشب والحديد، حتى أواخر القرن الرابع عشر.

لكن الإيطاليين لم يكونوا ليتركوا البابا يتدخل في وضعهم الاقتصادي الجيد. عصى سكان البندقية البابا بإرسالهم سفراء إلى مصر وبلاد الشام بعد عشر سنوات، حصل سكان البندقية من هذه المهمة على أسرار نفخ الزجاج الشامية – وهي تقنية عالية الربح – واحتكروها عدة سنوات. وحتى في أيامنا هذه يقوم السائحون إلى البندقية بالتأكد من شراء أواني زجاج تلك المدينة المميزة، والمنحدرة من التقاليد الشامية.

بدأت البضائع تظهر على استحياء في أسواق قبرص مع وهن الحظر التجاري البابوي، حيث سارعت السفن الشراعية بنقلها من البندقية إلى أوروبا. في تحول ساخر في ثلاثينيات القرن الرابع عشر اعتمد الرسام غيوتو في تصوير هالاته المقدسة على صفائح مملوكية مُهربة، زينت نقوش مذابح الكنائس بتصاميم إسلامية كانت الكنيسة نفسها قد حظرتها.

كما قلّد ذلك (مازاتشو)، الذي يعدّ أول رسامي النهضة الأوروبية بعد قرن من الزمن في لوحته «اللوح الثلاثي للقديس جيوفينال» في عام

1422. فهذا العمل – وهو أول أعماله – يُصور رأس العذراء محاطاً بهالة تتضمن في تصميمها حروفاً عربية، كما فعل الرسام غيوتو، والجدير بالذكر أنك عند تفحص العمل عن قرب يمكن أن تقرأ في هالة العذراء (في صورة مرآة لها) الكلمات العربية التالية: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إنها ليست إلا الشهادة، وهو الركن الأساسي للدين الإسلامي. هل كان الرسام العبقري في الواقع مُسلماً في السر؟ أم كان ببساطة يُبدي إعجابه بالخط العربي، من دون معرفة معنى تلك الكلمات؟ أم أن مازاتشو كان يريد بها مزحة سمجة مع السلطات الكنسية المغرورة؟ ربما لن نعرف أبداً.

لم يكن الرسامون وحدهم الذين تأثّروا بسحر الفن الإسلامي. وفي أوائل العهد الروماني (1050– 1200 م) استخدم النحاتون مزيجاً انتقائياً من الأساليب، ومن ضمنها الأسلوب الإسلامي، ونجد أحد الأمثلة الأساسية على ذلك في كنيسة القديس بيير في مويازاك. ويمكن أن تجد دعامة مزخرفة بفن إسلامي أسفل قوس المسيح الشهير. كما يزينها أيضا الزخرفة بالصدف، وهي خاصية أخرى مميزة للفن الإسلامي.

كانت الأجزاء الداخلية للكاتدرائيات تظهر التأثير الإسلامي أيضاً. والممرات المقنطرة في صحون الكنائس كانت غالباً مُدعمة بقناطر على شكل حدوة الحصان، بينما يكون للصحن نفسه إطارٌ من قناطر مدببة الرأس هائلة الحجم. هذه القناطر المدببة، وهي من مميزات تصاميم المساجد، أصبحت سمة للعمارة القوطية نفسها. وتمثل كاتدرائية

بيزا، مثالاً كاملاً على الترابط بين الكنيسة والمسجد، ربما لأن بيزا بَنَت الكاتدرائية لكي تُحيي انتصاراً بحرياً من القرن الحادي عشر على أسطول إسلامي، وقد واصل المسيحيون عن طريق الاتصال مع المسلمين في صقلية والأندلس استيراد جماليات التحف الفنية مثل جامع قرطبة الكبير كي يُحدثوا ثورة في الهندسة المعمارية الأوروبية.

حالما بدأت الحملات الصليبية أقامت البندقية وجنوا وبيزا العلاقات الدبلوماسية مع الدول الإسلامية، فحمت امتيازاتها التجارية وتولت إدارة أساطيلها. كان المسلمون يُؤجرونهم أحياءً كاملة حيث يُمكنهم أن ينعزلوا عن السكان المحليين. وفي إحدى هذه السفارات، تعلم ليوناردو فيبوناسي، ابن سفير بيزا، علم الحساب العربي-الهندي وطرق الحساب التي قدمها إلى أوروبا في عام 1020 م في كتابه (الكتاب العباسي) «Liber abbaci».

مع مرور الزمن، كان للتجارة مع العالم الإسلامي ميزة إضافية في تحسين المطبخ الأوروبي. قدم المسلمون آخر ما توصل إليه العلم من تقنيات الري وعدداً وفيراً أيضاً من الأكلات الشهية الجديدة: مثل الرز وقصب السكر والمنجا والموز والليمون والباذنجان والبطيخ والسبانخ والخرشوف. بينما كانت كل هذه أطعمة لذيذة، كان هنالك صادر زراعي إسلامي أكثر أهمية منها: وهو القطن.

في الشرق الأدنى وأوروبا كان المسلمون أول من اتخذ القطن مادة

لصناعة الأنسجة، والنبي محمد [ص] هو الرائد في ذلك. من الواضح أن النبي كان مُغرماً بارتداء القمصان والسراويل القطنية البيضاء تحت العباءة الصوفية القديمة الطراز، وبعد موته حافظ الخلفاء على هذا الطراز، وأضافوا إليه زينة أكثر، استخدم الأغنياء والفقراء على حد سواء القطن في الملابس الخارجية وأغطية الموائد والأكفان والستائر والسجاد والأحجبة والعمامات وحتى الملابس الداخلية.

أصبح القطن هو النبأ المثير في أوروبا وكان الأكثر طلباً من بين أنواعه هو «تيراز»، وهي كلمة فارسية تعني التطريز، واستخدم أصلاً في زخرفة الملابس الرسمية بألقاب شخصية أو آيات قرآنية، وأصبح التطريز يعني رداءً مطرزاً من وحي الأراضي المسلمة. في أواخر العصور الوسطى حتى النهضة الأوروبية أصبحت الكتابة الغربية هي الموضة في أوروبا، كان من الممكن رؤية الأغنياء والمشاهير يستعرضون أفضل ما جلبوه من بغداد، وكانت الأكمام والحواشي تُسبِّح- من دون علم مرتديها- الله وتذكر رسوله، وأصبحت الأقمشة المطرزة وكتاباتها الزخرفية أساساً للرقي. وفي إحدى رسومات النهضة الأوروبية لأندريا مانتيغنا (لوح مذبح القديس زينو)، تكون العذراء نفسها مكسوة برداء مطرز ومُحاطة بهالة تبدو كأنها صفيحة نحاسية مملوكية عليها نقش قرآني، وعند قدميها ثمة سجادة منسوجة في تركيا، بينما في يدي قديس قريب منها غطاء كتاب جلدي جيد الصنع من شمال إفريقيا المسلمة، وهكذا انتهت العصور الوسطى، ودخل العصر الإسلامي.

بدأت البندقية والمماليك بالارتباط بدبلوماسية كانت أقرب إلى أن تكون علنية. تبادلوا الخزف والأقمشة والآنية النحاسية - وكانت دائماً الأحدث والأجمل - على أمل أن تنال إعجاب الحكام وحاشيتهم، فبدأت بذلك نزعات الشراء، وعندما أقام العثمانيون الأتراك سفارة في البندقية، قدّم صانعو الأقمشة الإيطاليون إلى السفير التركي أفضل رداء قرمزي لديهم، وهم يعلمون جيداً أنه سوف يرتديه في حضور رجالات دولته، فبدأت موضة أخرى مربحة.

وبحلول القرن الخامس عشر وصل استهلاك السلع الكمالية إلى الأوج، وكان الطلب كبيراً جداً بحيث بدأ الأوروبيون بتقليد الصادرات الإسلامية، ودمجوا فيها تصاميم من تركيا والصين وبلاد فارس والهند. وأصبحت صناعاتهم المقلدة كثيرة ورائجة وزهيدة الثمن، حتى صاروا يبيعون 15٪ من نتاجهم إلى شركائهم من التجار المسلمين.

بدأت الأمور بالهدوء عندما احتلت تركيا مصر المملوكية واحتكرت التجارة في شرق المتوسط. بعد أن خاضت البندقية حروباً كثيرة مع شركائها السابقين في التجارة. تعثرت البندقية كسُلطة اقتصادية عليا. ومع ذلك قرر التجار الأسبان والبرتغاليون في أوروبا أن يجدوا طرقاً جديدة إلى الصين والهند، مستبعدين الوسطاء العثمانيين المرعبين.

وإضافة إلى الحملات الصليبية كان نظام التجارة هذا هو الذي جاء بالبضائع الكمالية والثقافة الإسلامية إلى الاتجاه الأوروبي السائد. إنّ التاريخ الحقيقي للتفاعل بين هذين الكيانين كان أكثر من مجرد منافسة

عسكرية شريرة. كان تبادلاً فلسفياً وعلمياً وثقافياً طوال قرون أثر في الأجساد والعقول والأرواح.

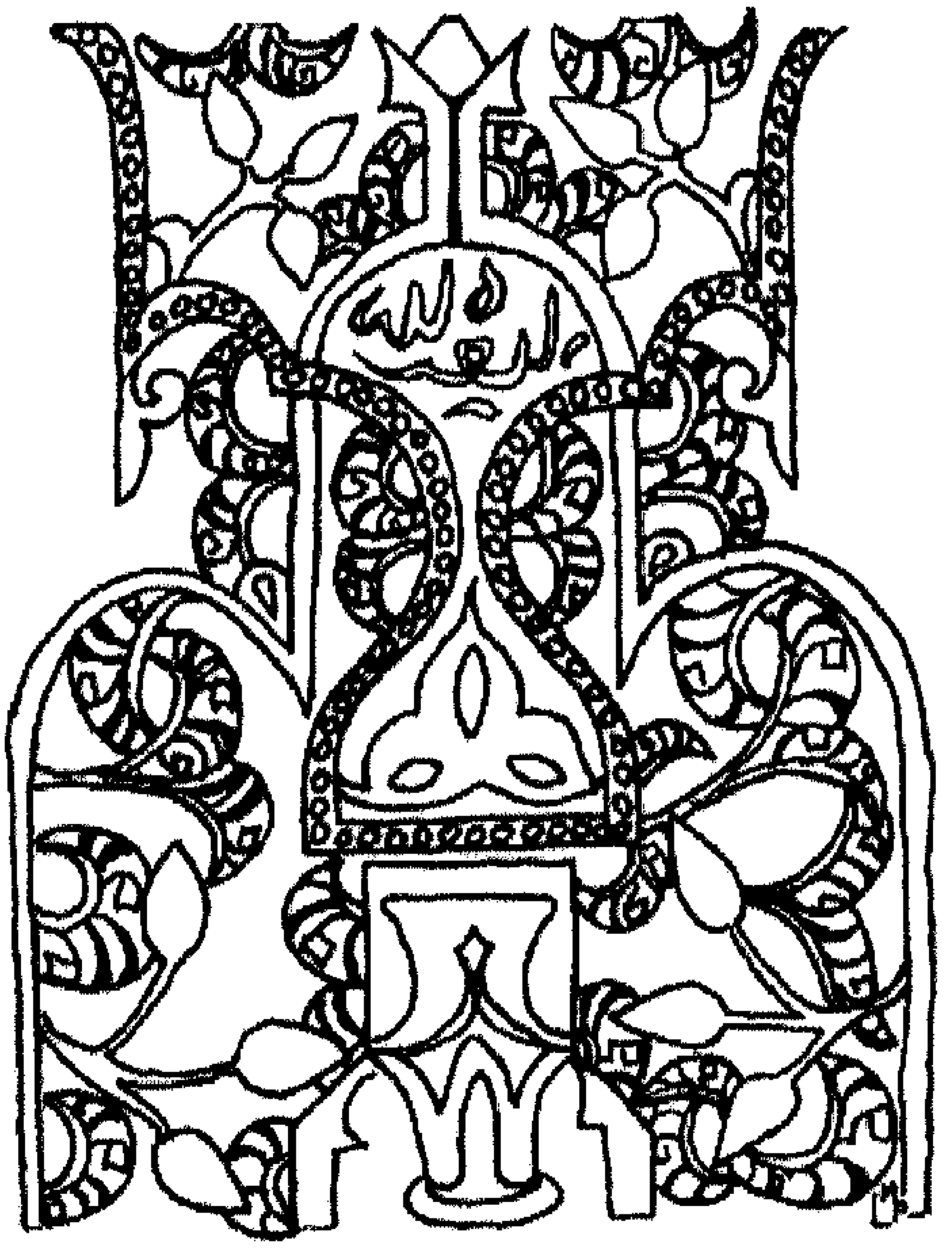

الفصل العاشر

أبناء إبراهيم، أبناء أرسطو

وهنا يطرح علينا السؤال المحتوم: ماذا حل بالإسلام، تلك الحضارة التي أنجبت النهضة الأوروبية؟ يبدو أنه بينما كانت قوة أوروبا الثقافية والاقتصادية والسياسية تنمو بسرعة، بقي العالم الإسلامي راكداً.

نسمع اليوم من الباحثين والخبراء الآخرين المشكوك في أمرهم، يصفون العالم الإسلامي على أنه النقيض الحقيقي للنظرة العالمية المنطقية والعلمية والحديثة التي أصبح الغرب ينسبها لنفسه. بالنسبة للشخص العادي في أمريكا أصبح المسلمون نمطاً من الإرهابيين والانتحاريين وما شابههم ممن يكرهون طريقة حياتنا ويريدون أن يدمروها. ويُصّور الإسلام، من الرسوم المتحركة إلى الأفلام السياسية، على أنه دين متطرف مولع بالحرب وكاره للمرأة أكثر من غيره.

هذا لا يتفق مع الناس الذين قدموا لنا الرازي أو ابن سينا أو الخوارزمي. إذا كان ما يقوله الجميع عن الإسلام اليوم صحيحاً، فإن مسألة «ماذا حصل؟» أصبحت أكثر تعقيداً.

يَطلق الباحثون على هذا المسألة «مشكلة التدهور الإسلامي». وتُفسّر المشكلة كالتالي: في نهاية العصور الوسطى، نشأ نزاع بين المعتزلة والأشعرية، وبعد قرون من التشاحن، فازت الأشعرية بالمنافسة – على الرغم من أنّ طريقة حدوث هذا بالتحديد وسببه لم تُوضح قط. بعد موت ابن رشد، ادعى الباحثون أن ضوء المنطق قد انطفأ، رفض الإسلام المذهب العقلي اليوناني القديم بينما احتضنته المسيحية، وهو الأمر الذي يوضح أكثر من غيره التخلف المتأصل في العالم الإسلامي والميول إلى الحرفية ضيقة الأفق. وبعد وقت قصير سقط المسلمون، من دون تأثر بالفلسفة، ضحية الغربيين المتفوقين ثقافياً الذين تمتعوا بالإدراك السديد فوَعوا ميزة قراءة أعمال أرسطو.

كل هذا مثير للاهتمام باستثناء شيء واحد: أنه محض هراء.

لم تنطفئ جذوة الفلسفة بعد موت ابن رشد أبداً، وُلد عبقري آخر، بعد مئتي عام، ولكن هذه المرة في تونس. كان اسمه ابن خلدون (1332– 1406 م)، وقد عمل عند عدة حكام مسلمين (من ضمنهم مملكة غرناطة تعِسَة الحظ)، كتب ابن خلدون عدداً من الأعمال حول المنطق والصوفية، كانت تحفته هي المقدمة، وهو تاريخ للعالم متألق جداً بحيث إن برنارد لويس أطلق لقب «أعظم مفكر تاريخي في العصور الوسطى» على مؤلفه. وفي المقدمة، ابتكر ابن خلدون مفاهيم علم الاجتماع والمنهج التاريخي ابتكارا أكثر تعقيداً من أي شيء سبقه.

وابتدع في هذا العمل مفهوم حتمية «قيام وسقوط» الإمبراطوريات، وهو أمر لم يستكشفه الأوروبيون إلا بعد قرون لاحقة.

إذا كان الإسلام ما زال قادراً على إنتاج مفكرين عظماء، فإنه أيضاً لم يخسر فجأة قدرته على استخدام المعرفة العلمية وتطبيق التقنيات الجديدة، وقد تحاشى العثمانيون الأتراك آلات الطباعة، ولكنهم اكتسبوا ما يكفي عن الأسلحة كي يلعبوا أدواراً رئيسة في السياسات الأوروبية حتى عام 1700م. ومنذ عام 1453 م، احتل الأتراك معظم أوروبا الشرقية، وقاموا ببناء المساجد والمدارس هناك، وضموا فناني عصر النهضة مثل جنتل بيليني في بلاطهم وشقوا طريقهم داخلين النمسا في عدة مناسبات. وأصبح سجادهم وخزفهم من الثوابت في المجتمع الأوروبي الراقي وصفوته، وكانت نخبة فيالقهم العسكرية (الإنكشارية) تبث الرعب في القارة الأوروبية.

حّول الإسلام طاقاته إلى الشرق بعد المغول والإمبراطورية الرومانية، وظهرت سلالة حاكمة جديدة وهي مغول الهند التي غزت آسيا الوسطى والهند وحكمت هناك حتى القرن التاسع عشر. أصبح مغول الهند أغنياء جداً بحيث كرس البريطانيون أنفسهم لسرقة كل شيء ذي قيمة من هذا البلد. كان الإسلام قد انتشر حتى وصل إلى الفلبين وإندونيسيا، وهي اليوم تتمتع بأكبر كثافة سكانية مسلمة في العالم. وبعد مرور مئات السنوات على الحملات الصليبية، استحوذ العالم الإسلامي على مناطق أكثر من ذي قبل.

لكن هذا ضئيل بالمقارنة مع الثروات الضخمة في الأمريكيتين، هنالك اغتنى الإنجليز والفرنسيون والإسبان والبرتغاليون من الكنوز التي نهبوها والناس الذين اتخذوهم عبيداً في البداية من السكان الأصليين ومن ثم من الأفارقة. ووفقاً لجاك ويذرفورد، مؤلف «المانحون الهنود: كيف غيّر هنود الأمريكيتين العالم». ما بين عام 1576 م و1650م، نهب الأسبان مئتي طن من الذهب، تبلغ قيمتها بالدولار اليوم 2. 8 مليار. وفي السنوات الخمسين الأولى من الغزو الأوروبي للأمريكيتين، جلب ما قيمته 3. 3 مليار دولار من الفضة إلى اشبيلية. وقام بيزارو بإبادة قبائل الإنكا وأرسل ما يقارب قيمته عشرة ملايين دولار من الغنائم إلى أوروبا، مُعالجاً بذلك كساداً كان قد ساد القارة. وانتشرت مستعمرات السكر عبر جانبي الأطلسي، مُنتجة المليارات بدولارات هذه الأيام. ثم صدر العبيد بأعداد ضخمة لكي يعملوا على إطعام الأفواه الأوروبية النهمة. كانت الاحتكارات التجارية مثل شركة شرق الهند البريطانية وشركة شرق الهند الهولندية، تحصل على أرباح سنوية بقيمة ثلاث مئة بالمئة. كتب ويذرفورد إن «الثروة الجديدة في أيدي الأوروبيين استنزفت الثروة من جميع الدول الأخرى حول العالم، وسمحت لأوروبا بالتوسع إلى نظام سوق عالمية». وفي حوالي أربع مئة عام، حصلت هذه السلطات الأوروبية على ثروات مذهلة، جاعلة إياها أغنى الأمم في التاريخ. أهو أمر مفاجئ أن ثروات أوروبا زادت مع انخفاضها في العالم الإسلامي؟

لم يكن المذهب العقلي هو الذي جعل أوروبا متفوقة. ففي الوقت نفسه، أي في عصر الثورة العلمية والاستكشافات، حرق الأوروبيون مجموعات كبيرة ممن كانوا يسمونهم بالساحرات وخاضوا حروباً شرسة الواحدة تلو الأخرى. لم يكن للتغير في القوة علاقة بالعوامل الفكرية والثقافية بل ارتبط كل شيء بالمال القاسي والبارد.

والحقيقة أن سقوط الإسلام «مشكلة» جديرة بالملاحظة. هل يُعدّ انحطاط روما «مشكلة» بالنسبة لنا؟ أو إسبانيا؟ أو بريطانيا العظمى؟ لقد أصبحت هذه الإمبراطوريات الكبيرة عظيمة لأنها حظيت بحصة الأسد من ثروات العالم. ولم تعد عظيمة عندما جاءت إمبراطورية أخرى وأخذت الثروة منها. وللإمبراطوريات دورات من القيام والسقوط في الحياة يمكن التنبؤ بها إلى حد ما. وفي نهاية المطاف، وفي حساب الأمور وعواقبها، لا شيء يدوم.

إنها مسألة بديهية، فكلما زاد غنى دولة وعظمت قوتها فإن أهميتها الثقافية تزداد. كم منا يعرف اسم أي رسام إسباني قبل أن تحتل إسبانيا العالم الجديد؟ بالتأكيد هنالك واحد أو اثنان. متى نقوم بدراسة الفن اليوناني الجديد – أو أي شيء مصنوع بعد القرن الأول قبل الميلاد أو ما شابه؟ بالنسبة لنا توقفت الحضارة المصرية بعد الفراعنة. والصورة التي لدينا عن بريطانيا ملوثة بالعالم الفيكتوري. أما فرنسا وكل ما يخص باريس في نهاية القرن التاسع عشر فيقترنان سوية اقتراناً لا يمكن الخلاص منه. وعلى الرغم من ذلك يبدو أن هذه المجتمعات بعد مدة وجيزة من

الثراء، تُواصل التمتع ببعض مزايا الحياة الفكرية والثقافية ذات المعنى.

لم يكن العالم الإسلامي مختلفا عن ذلكً. ولمدة طويلة من الزمن (بمقاييس التاريخ) امتلك ثروة أكثر من أي بلد آخر. وقد وفرت هذه الثروة ما يلزم من الفائض لتحمل وسائل الترف مثل الفلسفة والفن. أما الدول التي كانت لديها ثروة أقل، أو التي تُعاني من الاحتلال الأجنبي – مثل معظم العالم الإسلامي خلال المئتي عام المنصرمة – فلديها مسائل أكثر إلحاحاً في أذهانها مثل البقاء على قيد الحياة أو الاستقلال. تأتي الثروة ومعها نوع من الحرية التي لا تتمتع بها الأمم الفقيرة، حرية التفكير والإبداع والاكتشاف غير المحدود باهتمامات أو حاجات أخرى. تمتع العالم الإسلامي بهذه الحرية ردحاً من الزمن. وفي وقت قصير خسر تلك الثروة وما يرتبط بها من مجد وأبهة، كما حصل لأيطاليا بعد عام 476م أو إنجلترا بعد عام 1945م. هل سيسترد العالم الإسلامي بعضاً من تلك الثروة ويخلق نهضته الخاصة به؟ إنها مسألة سيقررها حاضرنا.

مشكلة الاستشراق

إذا كانت هنالك أية مشكلة في التاريخ الإسلامي، فإنها تكمن في بعض ممن يكتبون عنه. إن انحطاط العالم الإسلامي كقوة ثقافية وسياسية يحتاج لدى هؤلاء الباحثين إلى صياغة دقيقة تضع في الحسبان الجانب الديني والثقافي. من المؤكد أن دراسة الحضارة الإسلامية برمتها ينبغي أن توجه بحيث نتعلم منها الدروس المفيدة والعبر. لقد كان هذا التوجه

التاريخي أساسياً في طمس دور الإسلام في التاريخ الغربي. والاسم المناسب له هو الاستشراق «Orientalism».

الاستشراق، كما لاحظ إدوارد سعيد، هو مؤسسة عملية قام بوساطتها الباحثون المهتمون بالشرق بإيجاد تاريخ يتوافق مع مخططاتهم الاستعمارية وأيضاً مع تحيزاتهم الثقافية والدينية. وقد نزع بذلك المسيحيون الجدليون إلى أن يجدوا في دراستهم للإسلام ما كانوا يبحثون عنه. في نظرهم، كان ذلك ديناً أدنى بالموازنة مع المسيحية. وعن طريق الترجمات لمعاني القرآن والدراسات المضللة للتاريخ الإسلامي، بينوا التخلف الفطري للإسلام ونزعته المتخلفة.

والأمر المثير للاهتمام هو أنه لم ينتبه أحد منهم إلى أن صفات مثل «معادٍ للحداثة» و«متعصب» و«ميال للقتال» و«كاره للمرأة» وما شابهها يمكن أن تنطبق أيضاً على المسيحية الأوروبية خلال العصور المنصرمة. لقد هددت محاكم التفتيش غاليليو بالإعدام بعد أربع مئة عام من ابن رشد، واستمرت المحاكم في عملها في إسبانيا حتى القرن التاسع عشر. وكان المسيحيون يقتلون المسيحيين الآخرين واليهود والمسلمين في أوروبا طوال قرون، وما زالوا يقومون بذلك. إن التعصب المسيحي ما زال حياً وبحال جيدة، ويشكّل قوة سياسية لا يستهان بها في الولايات المتحدة. وعلى فرض أن الإسلام هو دين معادٍ للمرأة حقيقة، فقد أُنتخب في تركيا وباكستان وإندونيسيا رؤساء إناث للدولة، بينما لم تحظَ أميركا ذات الهيمنة المسيحية بواحدة

حتى وقت تأليف هذا الكتاب.

يقوم الاستشراق بأكثر من تعزيز التعصب الديني. فهو يعمل أيضاً على تسويغ الاستعمار. وعن طريق «نسيان» أو تناسي الدّين الذي يدينون به إلى الإسلام، استطاع الأوروبيون أن يُعزّزوا أفكارهم الخاصة حول التفوق العرقي. كان من الأفضل أن يعتقدوا أن قوتهم مرتبطة بالعرق والدِّين بدلاً من المال. وكانت تتوهم كل إمبراطورية بأنها ليست كالأخريات، لا تحكم عن طريق قوة السلاح وإنما بذكاء العقل. فإذا استطاعوا إقناع أنفسهم بهذا فربما سيبدأ من هم تحت حكمهم بالتصديق. هذا ما يجعل إدارة الإمبراطوريات أسهل.

مع هذا ما زال من الممكن إيجاد الحقيقة إذا ما كان الشخص مجتهداً ومتفتح الذهن. فقد بذل الكثير من المستشرقين أفضل ما لديهم لإحباطنا عن تأدية هذه المهمة. لقد دفنوا التاريخ الإسلامي في كتابات نثرية ثقيلة كالرصاص ومملة للقراءة كما هي للفهم. والنصوص التي قرأتُها في الجامعة حول الإسلام لا علاقة لها بإسهام الإسلام في العلوم والفنون. وهكذا ابتعدتُ عن الموضوع من دون أن أحصلَ على أكثر من معرفة اسم الأمويين والعباسيين، بعد أن أُكرِهتُ على التركيز على تاريخ الإسلام الداخلي. إن ما ينفر القارئ العادي في هذه الأعمال هو كثرة المصطلحات العربية والجغرافيا المربكة التي تبعده عن أية معلومات يمكن أن تكون قد جُمِعت. وأصبح التاريخ الإسلامي مجرد سجل رتيب وممل من الغزوات والاغتيالات والمعارك غير المنطقية.

ولاغرو أن ابتعدتُ عن الموضوع معتقداً بأن المسلمين ملة غريبة ومثيرة للمشكلات والفتن، ولا علاقة لهم بثقافتي أو تاريخي.

الإسلامي مقابل العربي

في البحث العلمي المعاصر، نادراً ما نلاحظ ربط «الإسلام» أو «الإسلامي» بكلمات مثل «حضارة» أو «أدب» وما شابه. وعلى الرغم من أن الكثير من الباحثين قد بدؤوا بالتغلب على هذه الحساسية الشديدة، يفضل كثير غيرهم استخدام مصطلحات مثل «الأدب العربي» و«الحضارة العربية» عند الإشارة إلى النتاج الثقافي للعصور الوسطى الإسلامية. وحجتهم في ذلك هي أن الإسلام لم يشغل نفسه بالعلم والفلسفة، أو بالشعر والطب. بدلاً من ذلك، يدّعون أن اللغة والثقافة العربية الدنيوية هي التي أدت إلى تعزيز الاكتشافات والابتكارات في هذه الحقول المتنوعة.

إن تسمية هذه الثروة من العلم بالثقافة «العربية» يناقض الكثير من التقدم العظيم الذي صنعه غير العرب. كان ابن سينا من أوزباكستان، والرازي والغزالي من بلاد فارس، وكان صلاح الدين كردياً، وقطز تركياً مملوكياً. وعبر ألف عام، مرت السلطة من الأمويين إلى العباسيين وإلى الفاطميين وإلى السلاجقة وإلى الأكراد وإلى المماليك وإلى العثمانيين. وما يربط كل هؤلاء الناس المختلفين لم يكن استخدامهم المشترك للغة العربية وإنما إيمانهم العلني بدين النبي، كان القرآن هو السبب الذي

جعل العربية لغة دولية، بالتأكيد أكثر من أي شيء آخر، وكان تسامح الإسلام مع الثقافات الأخرى هو ما جعل بيت الحكمة ممكناً.

ويُخفي الباحثون وكُتّاب آخرون حقيقة أن المسلمين هم من اكتشفوا أولاً قيمة الفلسفة اليونانية عن طريق استئصال كلمة «إسلامي» من أي شيء له علاقة مع العقلانية، والمسلمون هم من درسوا تلك الفلسفة، والمسلمون هم من فكروا في أي مجال يجب أن تُطبّق. إن فصل الإنجازات الثقافية للمسلمين عن عقيدتهم هو خروج غير منطقي عن السياق، ويماثل تجاهل حقيقة أن لوحات مايكل أنجلو الجصية موجودة في الفاتيكان. إن هذه الحقيقة تتحدى أعمالاً مثل كتاب ريتشارد ستارك (انتصار العقل)، الذي يدعي أن المسيحية وحدها من الأديان جميعاً هي التي تُشجع «الاستكشاف المنطقي». ولا يخفى على أي شخص يطلع على السجلات التاريخية أن يدرك أن انتشار الإسلام بين العرب والفرس كان عنصر تحفيز للعقل. وقد أكد الإسلام الطبيعة تأكيداً خلاّقاً لم تقم به مسيحية القرون الوسطى وذلك عن طريق تقديره العملي للعالم المادي والروحاني أيضاً.

أبناء إبراهيم، أبناء أرسطو

لا يعلم معظم أطفال المدارس في أمريكا إلا القليل عن التاريخ الأوروبي أو ثقافته. ولكن شيئاً واحداً من المؤكد أن يطلعوا عليه أثناء دراستهم، ألا وهو تاريخ النهضة الإيطالية.

فالنهضة هي أسطورة من صنع غربي. حيث يدرسوننا أنه في فلورنسا انتهت العصور الوسطى ووُلدت من جديد المثاليات القديمة. وكانت النتيجة هي الحركة الإنسانية، والعقلانية والتنوير - وكل ما يجعلنا متفوقين ثقافياً على الجميع.

من المهم للجميع أن يفهموا أن هذه السمات الأوروبية مشتقة من اليونانيين، ونحن أسلافهم المباشرون وحسب. وكما قال المستشرق جي جي ساندرز: «لقد قام المسلمون، كما شاهدنا، باستعارة الكثير من اليونانيين، ولكن بطريقة محدودة وغير مباشرة: لم ينتمِ ماضي اليونانيين إليهم أبداً بالدرجة التي هي عليه عند المسيحية».

هذا هو جوهر الأسطورة. كم سيكون غريباً لابن رشد أن يقرأ هذه الفقرة، أو ابن سينا، أو المترجمين في بيت الحكمة، أو الرازي، أو أي من الباحثين المسلمين الذين لا يُحصوَن والمجهولين الذين كانوا يشترون كتب أرسطو من المكتبات عندما نسي الأوروبيون القراءة.

سوف يُخبرونك أن الفكر اليوناني يخصّ الإسلام بقدر ما يخص المسيحية. سوف يُذكِّرونك بأنهم هم من أنقذ اليونانيين عندما كان المسيحيون يُحرقونهم. كانوا هم من ترجموهم وناقشوهم وعلقوا عليهم وحسّنوا أنظمتهم. لقد أعطى المسلمون للمسيحيين علمهم وطبهم وموسيقاهم وطعامهم وملابسهم وشِعرهم وفلسفتهم ورياضياتهم. كانوا هم من أخرج أوروبا من العصور المظلمة إلى عصر التنوير. هذا هو السر المريع الذي تحاول أسطورة النهضة أن تخفيه.

يجب أن نبدأ في تعلم التاريخ بتجنب «الحقائق» الثقافية التي علمونا إياها حول الإسلام. لقد استقرت هذه النماذج في قذارة اللاوعي التراكمي لدينا. وهي وليدة التعصب الديني، ورسخت نفسها ببطء بينما أصبح الإسلام تهديداً سياسياً وثقافياً متزايداً. لأن الإسلام كان ناجحاً جداً بحيث جعلته ثقافتنا يبدو فاشلاً. ولأننا ندين للمسلمين بالكثير تظاهرنا بأننا لا ندين لهم بشيء. ومن دون هذه الخرافة عن الدّين المتفوق والثقافة المتفوقة، ما الذي يتبقى لدينا لنقول أنه ملك لنا؟

إننا نمتلك شيئاً أكبر بكثير، وأكثر تعقيداً وغموضاً ألا وهو التاريخ المشترك من الدين والثقافة. فالعالم الإسلامي و«الغرب» هما (وكانا دائماً كذلك) نظام مرتبط تفاعلياً ومكون من التفاعلات الثقافية والدينية. إنهما ليسا كيانين منفصلين بقدر ما هما جزءان من عملية مستمرة من التحاور والتبادل.

لقد آن الأوان لكي تنتصر الذكرى على فقدان الذاكرة المتراكمة. إن الإسلام يخص الغرب بقدر ما يخص المصريين واليونانيين. نحن ورثة ابن رشد والرازي بقدر ما نحن ورثة أفلاطون وأبقراط. والغرب يخص الإسلام، ويشكل جزءاً غنياً من تاريخه الذي بدأت كتابته للتو. وخلال كتابة هذا التاريخ الجديد يمكننا أخيراً أن نتجنب كل ما أدى إلى تفرقنا ونتعلم من جديد عما نتشارك به كأبناء لإبراهيم وأرسطو.

الملحق رقم (1)

ماذا يقول القرآن عن:

اللّٰه

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (1) اللهُ الصمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)﴾.

الملائكة

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَاماً كَاتِبِينَ (11) يعلمون مَا تَفْعَلُونَ (12)﴾.

يوم الحساب

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ (50) لِيَجْزِي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51)﴾.

المحبة

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)﴾.

المسيح

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46)﴾.

الرحمة

﴿فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64)﴾.

الذنب

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)﴾.

الإرادة الحرة

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ (11)﴾.

البعث

﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً(67)﴾.

مفردات مستعارة من العربية

(مرتبة حسب الترتيب الأبجدي)

admiral	أمير البحار
adobe	الطوب
albacore	الباكورة
albatross	الغطاس
alchemy	الكيمياء
alcohol	الكحول
alcove	قبة
alembic	الإنبيق (أداة للتقطير)
algebra	الجبر
algorithm	الخوارزمية (اللوغاريتم).
alkali	القلي
almanac	المناخ
amalgam	الملغم
amber	كهرمان
apricot	البرقوق
arsenal	دار الصناعة
artichoke	الخرشوف

assassin	حشاشين
Atlas	الأطلس
azimuth	السموت
Baboon	الربح
Balcony	الشرفة
Banana	الموز
Baroque	مزخرف
Benzine	بنزين
Betelgeuse	الجوزاء
Bismuth	البرموت
borax	بورق
Cable	مرسة
caliber	قالب
Camel	جمل
camphor	كافور
candy	قند
Caper	طفرة
carafe	غراف
Carat	قيراط
carmine	قرمزي

carob	خرّوب
Check	شيك مصرفي، فاتورة
checkmate	شاه مات
chemistry	الكيمياء
cheque	حوالة
Chess	الشطرنج
Chiffon	الشيفون
coffee	قهوة
cotton	قُطْن
Coffer	تابوت، صندوق
crimson	اللون القرمزيّ
Cumin	كَمُّون
Date	تاريخ
Demijohn	الدامجانة (زجاجة ضخمة التجويف)
divan	ديوان
Drug	عقار
elixir	الإكسير
Fanfare	التبويق: نفخ بالبوق= لحن قصير يعزف على البوق
Fellah	فلاح

Fret (of guitar)	قيثارة
Frieze	إفريز. طُنُف في فن العمارة
gauze	قز
gazelle	غزال
Gazette	جريدة
Gibraltar	جَبَلُ طارِق
Ginger	زنجبيل
giraffe	زرافة
Guitar	قيثارة
Gypsum	جبس
hashish	حشيش
hazard	الزهر
henna	حنة
Hooka	نار جيلة
jar	جرة
jasmine	ياسمين
Jumper	الجُوْبيّة (سترة يرتديها العمال)
Julep	الجُلاّب
lacquer	اللّك. ورنيش اللّك
Lapis-Lazuli	اللازورد

Lilac	اللّيْلَج (نبتة عطِرة الزهر)
Lemon	الليمون
lute	العود
magazine	مخازين
Marzipan	مرزبانية (حلوى لوز وسكر)
Mask	قناع
mattress	مطرح
Minaret	منارة
Monsoon	الريح الموسميّة
Mosque	مسجد
Mulatto	مولّد. خُلاسيّ
mummy	موميا
Musk	المسك
Musket	المَشكِيْت وهي بندقيّة قديمة الطراز
muslin	الموصلين (نسيج قطني رقيق منشوه في مدينة الموصل)
Myrrh	مر (صمغ شجر المر)
nadir	نظير
Nitre	نترات
orange	نارنج

racquet	طَبْطابَة
ream	رزمة
rice	رز
Risk	مجازفة. مخاطرة
Rocket	صاروخ
Rook	الرّخ
Saccharin	سكرين
safari	سفر
saffron	زعفران
Sandalwood	خَشَب الصّندَل
Saphire	الصّفِّير، ياقُوتٌ أَزْرَق
Satin	شيطان
sherbet, sorbet	شراب
soda	سوادة
Sofa	أريكة
spinach	سبانخ
sugar	سكّر
Sultan	سلطان
Syrup	شراب
(fabric) tabby	عتابي

talc	طلق
Talisman	الطِّلَّسْم
tambourine	دُف
tariff	تعريفة
Tarot	لعبة التارو
Troubadour	التروبادوري واحد من طبقة الشعراء الغنائيين
Vizier	وزير
zenith	سمت الرأس
zero	صفر

قراءات إضافية

لم تكن النية أن نجعل هذا الكتاب يقول الكلمة الفصل في أي من الموضوعات التي عالجها، بل بالعكس، لم يكن أكثر من مجرد مقدمة، أو نظرة خاطفة على عالم جديد في التاريخ والتفاهم. وهذه النصوص التي استخدمتها جميعاً في بحثي أقدمها للقارئ المهتم الذي يروم معرفة المزيد عن تراث أولاد إبراهيم وأرسطوطاليس.

ظهور الإسلام

يرغب كل مسلم بطبيعة الحال أن يقرأ القرآن باللغة العربية، وهو بالفعل ما يقوم به الملايين من المسلمين. أما لغير الناطقين بالعربية فهناك ترجمات عديدة لمعاني القرآن في الإنجليزية. ولكن يتعين أن يكون القارئ حذراً، فليست كل الترجمات بالجودة نفسها.

فهناك مثلاً ترجمة ف ج داود المعروفة التي أصدرتها دار بنغوين التي تميل إلى إضفاء صفة العنف وكره النساء على المسلمين. ومثال صارخ على ذلك

هو ترجمة داود لسورة البقرة، الآية 223 ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث ترد ترجمتها بالطريقة الآتية:

«Women are your fields: go, then, into your fields whence you please. Do good works and fear God».

في حين أن ترجمة أخرى من أداء عبد الله يوسف علي (هيئة أمانة: 1983) تقدم نبرة مختلفة تماماً.

«Your wives are a tilth into you; so approach your tilth when or how ye will; but do some good act for your souls beforehand and fear God...».

فترجمة داود تعطي الانطباع بأن نساء المسلمين جميعاً مجرد حريم وفتيات متعة، وهي نظرة استشراقية بحتة.

ولكن هذه الآية ليست متعلقة بالنساء عموماً بل بالزوجات خصوصاً، وعندما تكون العلاقات الجنسية مباحة، فالنساء لسن مجرد ملك بل «حرث» أي قطع من الأراضي التي يحرثها المزارع ويجني نتاجها في نهاية الفصل بكل عناية ورعاية. ومن الواضح أن الهدف هو تأكيد عدم الابتعاد عن العلاقات الجنسية، بل ينبغي أن تؤخذ على محمل الجد، لا بل حتى بكل توقير وتبجيل. أما الترجمة السيئة فتجعل هذه الآية مربكة مهينة بطريقة لم يوح بها المعنى الأصلي بتاتاً.

وثمة قاعدة عامة يمكن للقارئ أن يلجأ إليها، ألا وهي الابتعاد عن أيّ كتاب جديد يحمل كلمة «Koran» في عنوانه (كما في حالة كتاب داود). فرسم الكلمة القديم بحرف K غالباً ما (ولكن ليس دوما) يكشف عن تحيز ضد الإسلام رافق البحث العلمي القديم، ومثال فاضح

على ذلك هو كتاب مايكل كوك: القرآن: مقدمة موجزة جداً (مطبعة جامعة أكسفورد، 2000)، وهو كتاب جدلي يكاد لا ينقل أي جديد عن طبيعة القرآن نفسه. ولتلك الغاية ينبغي على المرء أن يرجع إلى ترجمة عبد الله علاوة على كتاب مايكل سيلز «مقدمة إلى القرآن: بدايات الوحي» (مطبعة وايت كلاود، 1999) الذي يحتوي على أوائل السور مع تحليل معمق. وهناك كتاب حديث آخر ألا وهو توماس كليري، «القرآن: ترجمة جديدة «(ستارلاتش، 2004)، وهي ترجمة ممتازة.

أما لمعرفة المزيد عن حياة الرسول محمد فإن أفضل المصادر هي أقواله أي الأحاديث. وكتاب توماس كليري «حكمة النبي» (شامبالا، 2001) يقدم مجموعة مختارة من الأحاديث التي تكشف عن عبقرية محمد ورحمته وظرفه. ويعد كتاب كيرين ارمسترونغ «محمد: سيرة حياة نبي» (هاربر سان فرانسيسكو، 1992) ممتعاً ويقدم نظرة متوازنة لحياة الرسول. أما كتاب يحيى أميرك عن حياة الرسول الموسوم بـ «محمد» (بيرسن: 2002) فيتسم بالورع والملاحظة الحادة. وكتاب ماكسيم رودنسون «محمد» (نيوبرس، 2002) هو مقدمة نقدية إلى حياة الرسول تمثل أسوأ وأفضل ما يمكن للمرء أن يجده في البحث العلمي الاستشراقي. وكتاب جوي غرين: «المسيح ومحمد: أقوال متوازية» (سليستون، 2003) كتاب صغير ولكنه ينوّر المرء حيث يضع المؤلف نبي الإسلام في سياق بحيث يظهر الرابط بين أكثر دينين شائعين في العالم.

يعَدُّ التاريخ السياسي المبكر للإسلام موضوعاً للعديد من الكتب،

ومن ضمنها كتاب ج. ج. سوندرز» تاريخ الإسلام في القرون الوسطى» (راوتلدج، 1965)، الذي يسمو فيه المؤلف فوق ميوله الاستشراقية (على الأقل حين يصل إلى الفصل الأخير)، وكتاب جوناثان بلوم وشيلا بلير: «الإسلام: ألف سنة من الإيمان والقوة» (كتب التلفزيون، 2000) يتسم بالبحث الرصين والشمولية وهو يمثل الرابط لتلك السلسلة الفيديو تلفازية الرائعة التي أخرجتها محطة PBS «الإسلام: إمبراطورية الإيمان». وقد قدمت مقالة بلوم «ثورة القرطاس: تاريخ الورق» عالم أرامكو السعودية مايو/يونيو 1999) معلومات مهمة عن النتاج الثقافي لهذه المدة. أما مقالة ايسكيل ويدان «الشاهد المنسي: الدليل على بدايات جمع القرآن» (مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية، 1998، الجزء 118، الصفحات 1–14) فتقدم استعراضاً بديعاً عن التاريخ المبكر للقرآن. أما كتاب ألبرت حوراني «تاريخ الشعوب العربية» (مطبعة جامعة هارفارد، 1991) فهو مرجع أساسي، ولكن ربما ما هو أكثر نفعاً فائدةً كتاب فيليب حتي، «الإسلام: طريقة حياة « بجزئين (مطبعة جامعة منيسوتا، 1970) و«صانعو التاريخ العربي» (مطبعة القديس مارتن، 1986).

والكتاب الذي حرره برنارد لويس الموسوم بـ «الإسلام: من النبي محمد حتى الاستيلاء على القسطنطينية» (مطبعة جامعة أكسفورد، 1987) هو عبارة عن جزأين لمواد ومصادر أولية. أما للمتعلمين الذين يفضلون الطريقة البصرية فإن كتاب ضياء الدين سردار «مقدمة لمحمد»

(توتن، 1994، بالاشتراك مع زفر عباس مالك) فهو كتاب للأطفال ممتع ومفيد لا يكشف بدايات تاريخ الإسلام وحسب ولكن كيفية فهم الغرب له أيضاً. أما كتاب سردار «الدليل الواضح إلى الإسلام» (فيرسو/ 2004 بالاشتراك مع سيرل راين ديفيز) فهو مقدمة أكثر عمقاً بقليل من الكتاب السابق ومن دون الرسومات.

الفرنجة والمغول:

كتب الباحثون في القرون الوسطى الكثير عن الحروب الصليبية. وهي من أحداث التاريخ في العصر الوسيط التي يكاد الجميع يعرفون عنها (والآن ستعرف أنت بدورك السبب!). إن أفضل موضع لمعرفة المصادر الأساسية عن نظرة المسلمين لعام 1096 وعواقبه هو كتاب «مؤرخو الحروب الصليبية العرب» من تأليف فرانشيسكو غابريلي (مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1969)، و«الحروب الصليبية بعيون عربية» من تأليف أمين معلوف (كتب شوكن، 1985). أما من يروم استعراضاً عاماً عن الموضوع، فليرجع إلى كتاب كيرن ارمسترونغ وتحليلها العميق لتلك الحقبة الزمنية في «الحرب المقدسة: الحروب الصليبية وتأثيرها في عالم اليوم» (كتب أنكر، 2001). أما لمعرفة وجهة النظر الأوروبية التقليدية، فلا يزال كتاب ستيفن رنسمان «تاريخ الحروب الصليبية» (مطبعة جامعة كيمبردج، 1953) هو الأساس.

إن غزو المغول لأوروبا هو أحد الفصول المنسية من تاريخ القرون

الوسطى. فمعظم كتب التاريخ الأوروبية قلما تذكر الموضوع. ومن المصادر الممتازة التي تعطي مقدمات ممتازة كتاب «جياد الشيطان: غزو المغول لأوروبا» من تأليف جيمس تشيمبرز (كاسيل، 1988) وكذلك س. ر. تيرنبول «المغول» (منشورات أوزبري، 1980). أما كتاب روبرت مارشال «العاصفة من الشرق: من جنكيزخان إلى قبلاي خان» فهو مزدان بصورة توضيحية عديدة ولا يكشف مجرد حملة باتو على شرق أوروبا بل نهضة جنكيزخان وأحفاده وأفول نجمهم. ويمكن قراءته بمعية السلسلة الوثائقية التي تحمل الاسم نفسه والتي تحتوي على معلومات مفيدة وصور جميلة. ويعد كتاب مايكل براودن «الإمبراطورية المغولية: نهوضها وإرثها» مصدراً قديماً ولكنه يستند على البحث العلمي الرصين (ماكلان، 1940).

وإذا رغب المرء التعمق في الموضوع فعليه الرجوع إلى مصادر علمية لا يسهل الحصول عليها. وقد وجدت كتاب دينس سينور مفيداً على نحو خاص. فكتابه «آسيا الداخلية واتصالاتها مع أوروبا في القرون الوسطى» (فيرورم، 1977)، يحتوي على عدد كبير من المقالات (وبعضها باللغة الفرنسية فقط) عن علاقات الهنغاريين بالمغول علاوة على التاريخ المغولي. وللناطقين بالإنجليزية فقط، فإن كتاب ج. ج. سوندرز الذي نشر بعد وفاته: «المغول والمسلمون: مقالات عن آسيا في القرون الوسطى» (مطبعة جامعة كانتربري، 1977)، يحتوي على معلومات مفيدة عن معركة عين جالوت ونتائجها علاوة على

تأثير الغزوات المغولية في العالم الإسلامي. وهناك مقالة أخرى تستند إلى البحث العلمي الرصين من تأليف ديفيد تشانز «المغول يواجهون أندادهم: معركة عين جالوت» http://www. strategypage. com/ (articles/default. asp?target=mongol. htm

الطب والعلوم الإسلامية:

على الرغم من أن معظم المشتغلين بفترة القرون الوسطى يعرفون المساهمات الإسلامية العظيمة في الحضارة الأوروبية، فإن القليل منهم قد كتب عن هذا الموضوع. وقد تُرِك هذا العمل لمؤرخي العلم. إن الجهد الخارق في هذا الحقل قد أنجزه جورج سلوتن في سلسلة من المؤلفات ومن ضمنها عمله الموسوعي «مقدمة إلى تاريخ العلوم» (معهد كارنيجي في واشنطن، 1931)، الذي فصل فيه منجزات عباقرة منسيين مثل ابن الهيثم والرازي. أما كتاب السيد حسين نصر «العلم والحضارة في الإسلام» (مطبعة جامعة هارفارد، 1968)، فيعد مؤلفاً رائعاً يجمع بين التحليل التاريخي والاعتماد على مراجع البحث الأصلية. وهو واحد من الكتب القليلة التي يمكن للقارئ أن يجد مقتطفات من الأعمال الأصلية للرازي والخوارزمي وابن الهيثم في ترجمات إنجليزية. أما الكتاب الآخر فهو ترجمة أ. ج. أربري لكتاب الرازي «الطب الروحاني» (جون مري، 1950).

إن مساهمات المسلمين في العلوم من الشمول والإحاطة بحيث

لم يتمكن أحد من أن يكتب كتاباً واحداً جامعاً عن الموضوع، ولكن عوضاً عن ذلك هناك مجموعة متنوعة من الكتب البديعة عن موضوعات متخصصة مثل «التكنولوجيا الإسلامية: تاريخ مصور» من تأليف أحمد الحسن ودونالد هل (كمبردج: مطبعة الجامعة واليونسكو، 1986) والذي يبين موضوعات متنوعة مثل صناعة السيوف والزجاج وبناء السفن وصناعة الأدوات، وعلم المياه، وتجليد الكتب وتغليفها. ويسلط كتاب ديك تيريسي «المكتشفات المفقودة: «جذور العلم الحديث من البابليين إلى المايا» (سايمون وشوسنز، 2002) الضوء على الدين الذي يدين به كوبرنيكوس إلى الطوسي. ويتوسع كتاب «تاريخ نورتن للفلك وعلم الكون» من تأليف جون نورث (و. و. نورتن، 1995) في تفصيل منجزات الطوسي وعلماء الفلك من أسبانيا وبغداد في القرون الوسطى. ويحتوي كتاب آرثر كاستليوني «تاريخ الطب» (الفرد نوبف، 1946) على صور توضيحية عديدة ومراجع أصلية مع شرح وافٍ لمنجزات الرازي وابن سينا والآخرين الذين أججوا ثورة في الطب الإسلامي أولاً والطب الأوروبي لاحقاً. ومقالة ديفيد تشانز «الجذور العربية للطب الأوروبي» (عالم أرامكو: مايو ويونيو 1977) مقدمة رصينة عن الموضوع نفسه. وللوقوف على المصادر الأساسية في الفلسفة الإسلامية تم الرجوع إلى كتاب غيري ي كيسلر «أصوات الحكمة:. كتاب لقراءة الفلسفة من ثقافات مختلفة» (وادزورث، 2004) الذي يعيد طباعة مؤلف الغزالي «المنقذ من الضلال». ويمكن العثور

على تعليقات ابن رشد النارية على تحفة أفلاطون في كتاب «ابن رشد من جمهورية أفلاطون» ترجمة رالف ليرنو (مطبعة جامعة كورنيل، 1974). وتقدم كارولين ستون في مقالتها عن ابن رشد الموسومة بـ «الطبيب والفيلسوف ورجل عصر النهضة» (عالم أرامكو السعودي، مايو ويونيو، 2003) مقدمة مفيدة مزدانة برسوم جميلة لحياة هذا «الشارح» العظيم.

ثقافة مشتركة

حتى كتب المقدمات العامة تذكر بين الحين والآخر تأثير التجارة الايطالية مع العالم الإسلامي. ويكشف كتاب «الكاتدرائية وكير الحداد ودولاب الماء: التكنولوجيا والابتكار في القرون الوسطى» (هاربر كولنز، 1994) لمؤلفيه فرانسيس وجوزيف جيز يبين إسهام المسلمين في الزراعة والهندسة العسكرية وصناعة الزجاج والمنسوجات. أما أفضل كتاب وأكثرها رسوخاً من حيث البحث العلمي فهو «من السوق إلى الميدان: التجارة الإسلامية والفن الإيطالي 1300–1600» من تأليف روزاموندي ماك (مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2001)، وهو مؤلّف مصور يتسم بالشمولية ويروي كيفية تأثر أسلوب النهضة بالأساليب المستوردة من مصر وسوريا وإسطنبول. كما أن كتاب جيري بروتن «السوق في عصر النهضة: من طريق الحرير إلى مايكل أنجلو» (مطبعة جامعة أكسفورد، 2002) هو مؤلف آخر يعتمد البحث العلمي الرصين ومكتوب بأسلوب

مُشوّق وهو تنقيح وتعديل لأسطورة من أساطير عصر النهضة. وقد نشر المتحف الوطني للفن في واشنطن دليلاً على مقتنياته باسم «التبادل الفني: أوروبا والعالم الإسلامي (2004) والذي يوضح الرابطة بين عصر النهضة والعالم الإسلامي. أما كتاب عزيز أحمد «تاريخ الإسلام في صقلية» فيكاد يكون الوحيد من نوعه الذي يقدم باللغة الإنجليزية معلومات مستفيضة عن هذه الزاوية المنسية من العالم الإسلامي.

إذا رغبت في معرفة المزيد عن الأندلس فعليك أن تبدأ بكتب ماريا روزا مينوكال. يُعد كتابها «حلية العالم: كيف صنع المسلمون واليهود والمسيحيون ثقافة التسامح في إسبانيا في القرون الوسطى» (لتل براون، 2002) يُعد أكثر كتبها رواجاً وأكثرها سهولة للقراءة عن التسامح الديني في القرون الوسطى في إسبانيا الذي أشرق بنوره على أوروبا في عصورها المظلمة. أما كتابها الآخر «الدور العربي في التاريخ الأوروبي في القرون الوسطى: الإرث المنسي» (مطبعة جامعة بنسلفانيا، 1987) فهو أكثر علمية وأكثر عمقاً ولا يوضح العلاقات الأدبية بين المسلمين والمسيحيين في القرون الوسطى فقط، بل كيف طمست ذكرى ذلك الاحتكاك واللقاء أو شوهت خلال عصر النهضة. وأحد مصادر مينوكال هو مؤلّف ميغيل آسين بلاسيوس المهم «الإسلام والكوميديا الإلهية» (فرانك كاس، 1968) الذي لا يزال إلى يومنا هذا المرجع الأساس في هذا الموضوع، وعندما يقرأه المرء فإنه يشعر بهول الصدمة والإلهام بالضبط كما شعر قراؤه عندما نشر الكتاب قبل أكثر

من قرن من الزمان. أما مقالة روبرت وليبلنغ الابن «هروب العصفور الأسود» (عالم ارامكو السعودي، يوليو وأغسطس 2003) فهي مقالة رائعة وممتعة عن زرياب.

وللاستزادة رجعتُ إلى كتاب «الأندلس: إسبانيا تحت المسلمين» من تأليف إدوين هول (روبرت هيل، 1958) الذي لم يقدم لي نتفا عن زرياب وحسب، بل أيضاً الحياة الثقافية للأندلس في ذروتها. وتقدم مقالة هنري جورج فارمر «موسيقا الإسلام» (في «تاريخ أكسفورد والجديد للموسيقا، المجلد الأول: الموسيقا القديمة والموسيقا الشرقية» من تحرير ايغون والسز، مطبعة جامعة أكسفورد، 1966) أدلة كافية عن تأثير الموسيقا الإسلامية على الموسيقا الغربية. وللاطلاع على قراءات في الأدب في أسبانيا المسلمة، فإن أفضل مرجعين هما «انطولوجيا الأدب الإسلامي: من نهوض الإسلام إلى العصور الحديثة» من تحرير جيمس كرتزك (هولت، راينهرت وونستن، 1964) وكذلك كتاب «الخيل والليل والبيداء: انطولوجيا الأدب العربي الكلاسيكي» من تحرير روبرت اروين (مطبعة أوفرلوك، 1999). وهناك كتاب آخر من تأليف روبرت أروين وهو «ألف ليلة وليلة: دليل» الذي يكشف فيه عن العالم الذي ألهم هذا المؤلّف وكذلك كيف ألهمت هذه القصص بدورها الأدب الغربي.

وختاماً، هناك مجموعة من الكتب التي نشرت مؤخراً، تحاول أن توضح «الخطأ» الذي حلّ بالإسلام، ولماذا يمثل تهديداً للسلم العالمي أو

أسلوب حياتنا. . . الخ. ومعظم هذه المؤلفات تحوّل تحاملها وتحيزها إلى علم. وهناك الكثير من المناظرات والمواقع التي تمولها من دون شك مؤسسات ومنظمات.

خذ حذرك من أي جهة تستقي معلوماتك منها، واحذر المصالح الذاتية لهذه الجهات. وهناك كتابان شهيران وأساسيان عن التحامل ضد الإسلام، من تأليف أدورد سعيد : أحدهما هو «الاستشراق» (فانتج، 1978) المكتوب بلغة مكثفة، والآخر أكثر يسراً وهو «كشف الإسلام» (فانتج، 1997).

ومن الإنصاف أن أذكر أن بعض الباحثين الذين اعتمدت عليهم في معلوماتي هم من المستشرقين، وفي الوقت الذي ينبغي علينا أن نمتدح العديد من المستشرقين لعلمهم الغزير، فإن بعض المشهورين والمؤثرين منهم يحتقرون الإسلام وأتباعه من المسلمين لأسباب سياسية أو دينية. ويحدوني الأمل أن حقبة جديدة من التاريخ ستنتقل من أيادي هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم بالحقد إلى أولئك الذين يفتحون أياديهم للترحيب بإخوانهم وأخواتهم من المسلمين. فلنحقق هذا الأمر سوية.

نبذة عن المترجم:

حصل على شهادة البكالوريوس (امتياز) في اللغة الأنجليزية وآدابها من جامعة الموصل عام 1975.
حصل على شهادتي الماجستير في الآداب و تدريس اللغة الإنجليزية (1981 - 1982)، والدكتوراه في النقد الأدبي (1983) من جامعة انديانا في الولايات المتحدة الأمريكية.
درّس في امريكا و بعض الدول العربية وعمل عميدا لكلية الآداب بجامعة الاتحاد و رئيساً لقسم اللغة الإنجليزية والترجمة في جامعات عربية عديدة.

من مؤلفاته:

النقد التطبيقي التحليلي (بغداد، دار الشؤون الثقافية، 1986).
لونجين والجرجاني، دراسة تاريخية مقارنة (العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، (2000).

Catharsis in Literature (Bloomington, Indiana, Indiana (Univ. Press, 1989) and A Comparative Study of Longinus and Al-Jurjani: The Interrelationships Between Medieval Arabic Criticism and Graeco-Roman Poetics (New York: Edwin Mellen Press, 2004).

من ترجماته:

ليليان فيرست، الرومانتيكية (الموصل، 1978)
جيكوب برونسكي، العلم والقيم الإنسانية (بغداد، 1990)
ت .س. اليوت ,الأرض الخراب (القاهرة, 2006)
Ibn al Arif, Attractions of Mystical Sessions (Bucks: Avebury, 1980
.with Dr. William Elliott

كيف صنع الإسلام العالم الحديث؟

عندما كانت أوروبا تتخبط في ظلمات القرون الوسطى نَعِمَ العالم الإسلامي بالمستشفيات والأدوية و الموسيقى الشجية. و عمل في بيت الحكمة جيش من المترجمين و العلماء الذين نقلوا حكمة الإغريق و معارف الهند و علوم الفرس إلى العربية. وفي مطلع عصر النهضة كان الأوروبيون يرتدون الأقمشة العربية و يستمعون إلى موسيقاهم و يتعلمون من فلاسفة الأندلس. والاهم من كل هذا هو أن المسلمين علموا الغرب الأسلوب العلمي في التفكير و المنهج. وهكذا انتشل الإسلام الغرب من القرون الوسطى ووضع أقدامه على عتبات عصر النهضة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

ابوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9 789948 016755